سلسلة لبنان في العصر الحديث 3

الإغتراب اللبناني ملحمة أم مأساة؟!

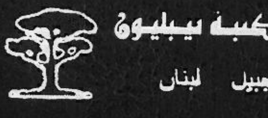
للدكتور لويس صليبا

و: تاريخ الهجرة اللبنانية/السورية

مع دراسة لأوضاع المسيحيين في الولايات العثمانية

للخوري باسيليوس خرباوي (1913)





دار ومكتبة بيبليون

جبيل لبنان

كتب للدكتور لويس صليبا

صدرت عن دار ومكتبة بيبليون

I - في الدراسات الإسلامية

1 – **بحث في جذور النظرة الذكورية إلى المرأة في الثقافة الإسلامية**، دراسة وتحقيق لكتاب بستان الراغبين لمحمد مصطفى العدوي.
طبعة ثانية (ط2)، 250 ص.

2 – **النساطرة والإسلام: جدلية علاقة** منذ ما قبل البعثة إلى ما بعد سقوط العباسيين/دراسة وتقديم لكتاب المجدّل للاستبصار والجدل.
ط2، 420 ص.

3 – **من تاريخ الهرمسية والصوفية في الإسلام** / جمع، ترجمة، وتقديم لدراسات للمستشرق البروفسور بيير لوري. ط2، 315 ص.

4 – **مفكّر مسيحي طالب بالإسلام ديناً للدولة**/ دراسة وتحقيق لكتاب الأزاهير المضمومة في الدين والحكومة لأمين خيرالله صليبا. 640 ص.

5 – **صدام الأديان والمذاهب في لبنان: شهادة من الماضي عبرة للآتي**، دراسة وتحقيق وملاحق لكتاب مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان، لميخائيل مشاقة. 721 ص.

6 – **معراج محمد/المخطوطة الأندلسية الضائعة:** ترجمة لنصّها اللاتيني مع دراسة وتعليقات وبحث في جذور النظرة الغربية إلى الإسلام. 370 ص.

7 – **المعراج في الوجدان الشعبي:** دراسة لأثره في نشأة الفِرَق والفنون والأسفار المنحولة في الإسلام. 340 ص.

8 – **المعراج من منظور الأديان المقارنة**، دراسة لمصادره السابقة للإسلام ولأبحاث المستشرقين فيه. 422 ص.

9 – **الاغتراب اللبناني ملحمة أم مأساة**، دراسة وتذييل لكتاب تاريخ المهاجرة اللبنانية مع دراسة لأوضاع المسيحيين في الولايات العثمانية. (يتبع في آخر الكتاب)

سلسلة لبنان في العصر الحديث 3

الخوري باسيليوس خرباوي

تاريخ الهجرة اللبنانية/السورية

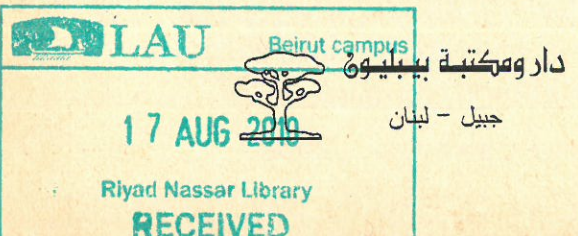
مع دراسة لأوضاع المسيحيين في الولايات العثمانية

وتسبقه دراسة وتكملة وملاحق للدكتور لويس صليبا

الإغتراب اللبناني ملحمة أم مأساة؟!



دار ومكتبة بيبليون
جبيل – لبنان



مؤلّف الدراسة والتكملة : **د. لويس صليبا**

باحث وأستاذ في الدراسات الإسلامية والأديان المقارنة

عنـــوان الدراسة : الإغتراب اللبناني ملحمة أم مأساة؟!

مؤلّف الكتاب : **الخوري باسيليوس خرباوي**

العنوان الأصلي للكتاب : تاريخ المهاجرة السورية

إلى الديار الأميركية (1913)

عدد الصفحات : 434 + 220 ص

سنة النشر : 2008

تنضيد وإخراج داخلي: صونيا سبسبي

التجليـد الفنـــي : تراث للتجليد

بيروت 01/453456

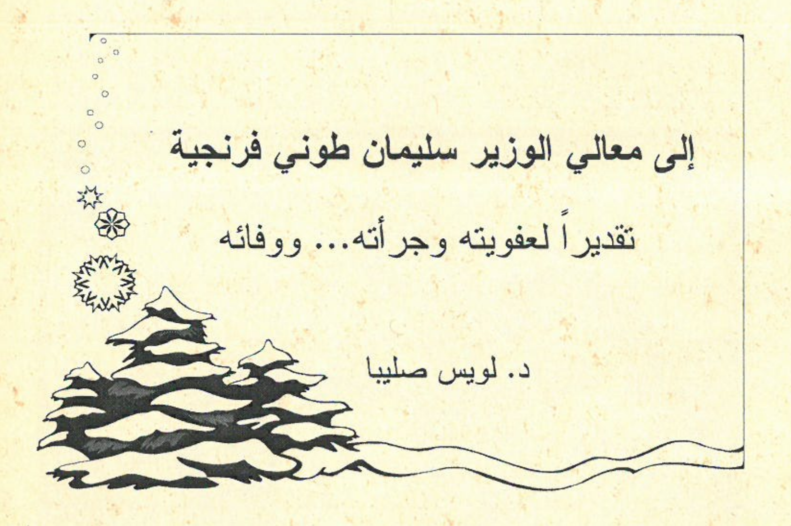
الناشر : **دار ومكتبة بيبليون**

طريق المريميين – حي مار بطرس– جبيل/ بيبلوس ، لبنان

ت: 09/540256 – 03/847633 ف: 09/546736

Byblion3@terra.net.lb

إهداء



إلى معالي الوزير سليمان طوني فرنجية

تقديراً لعفويته وجرأته... ووفائه

د. لويس صليبا

سلسلة لبنان في العصر الحديث

1 – مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان. رواية معاصرة للفتن الطائفية في القرن 19، لِ ميخائيل مُشاقة ومعه دراسة وملحق للدكتور لويس صليبا: صراع الأديان والمذاهب في لبنان. 722ص

2 – شهداء لبنان في الحرب العالمية الأولى، سيرة، وثائق وظروف إعدام فيليب وفريد الخازن بقلم هند أرملة فريد الخازن. مقدمة لِ نعوم لبكي. 300 ص.

3 – تاريخ الهجرة اللبنانية/السورية إلى الديار الأميركية، مع دراسة لأوضاع المسيحيين في الولايات العثمانية، تأليف الخوري باسيليوس خرباوي. دراسة وتذييل لِ د. لويس صليبا.

4 – ذخائر لبنان، تاريخ مختصر للبنان وأسره وطوائفه، إبراهيم بك الأسود. 325ص

5 – تنوير الأذهان في تاريخ لبنان، موسوعة في تاريخ لبنان الحديث لِ إبراهيم بك الأسود.

6 – دليل لبنان، لإبراهيم بك الأسود. 690 ص

7 – الجغرافية التاريخية للبنان وسوريا وفلسطين، وفيه أبرز التقسيمات الإدارية والسياسية للولايات العثمانية في بلاد الشام أواخر القرن 19، لِ فضل الله أبي حلقة. 226 ص.

8- قلائد المرجان في تاريخ شمالي لبنان، ومعه الترجمة الكاملة لمذكرة يوسف بك كرم وزيارة الأمير دي جوانفيل إلى شمالي لبنان لِ بطرس بشارة كرم. 276 ص.

9 – دليل مراحل لبنان عبر التاريخ ومعه قاموس المدن والقرى والأحياء والينابيع. لِ سليم أوسابيوس. 288 ص

د. لويس صليبا

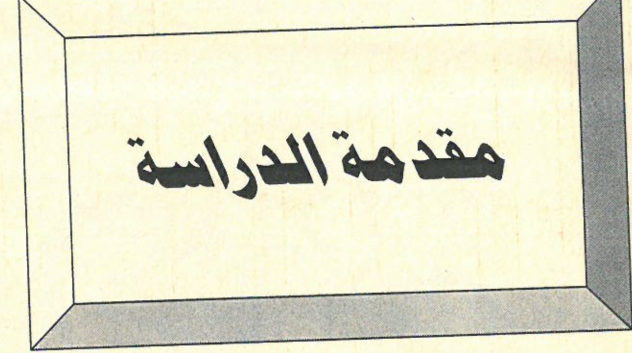
الإغتراب اللبناني ملحمة أم مائساة؟!

دراسة وتكملة وملاحق لِ :

تاريخ الهجرة اللبنانية – السورية



لوحة لِ جبران خليل جبران



مَن منّا لا تهمّه الهجرة؟! وهل يخلو بيت من بيوتات لبنان، بسهله وجبله المفتوحَين على الغرب، من مغترب ومهاجر؟!

الهجرة آفة مُعدية لم تترك منزلاً في لبنان إلا وأصابته بشيء من بلاياها. وأية عائلة في لبنان لم تعانِ من الهجرة؟!

ولكن أليس للهجرة إلا هذا الوجه القاتم؟! وهل الهجرة اللبنانية مجرّد نزف بشري وشتات في أربعة أرجاء المعمورة؟!

إذا كان البعض لم يرَ في الهجرة سوى الجانب السلبي المذكور، فثمة مَن لم يرَ فيها، كما سنرى عبر صفحات هذه الدراسة، سوى الوجه المشرق، ويكاد لا يعرف من المغتربين إلا أمثال قدموس والسمعاني وجبران. فأين تكمن الحقيقة؟!

أليست الهجرة فاتحة تغيير وثورة تقلب الموازين والأفكار والمجتمعات؟ ألم تبدأ غالبية الديانات بهجرة؟

لا بل إن التاريخ البشري بأكمله بدأ، وفقاً للمفهوم البيبلي والقرآني، بهجرة قسرية لآدم من جنّة عدن هجرة من باب الجنّة الغربي كما سيرد.

وإبراهيم أبو الديانات الساميّة الثلاث بدأ دعوته التوحيدية بالهجرة من ديار قومه.

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، (العنكبوت 26/29). إنها هجرة إبراهيم، ومعه لوط ابن أخيه، من

أرض الكفر والشرك إلى حيث أمره ربّه[1].

هجرة بأمر إلهي، وبداية تاريخ جديد استُهلّ بعهد ووعد.

«وقال الرب لأبرام أهجر أرضك وعشيرتك وبيت أبيك، واذهب إلى الأرض التي أريك. فأجعل منك أمة كبيرة، وأبارك وأعظّم اسمك، وتكون بركة لكثيرين»، (سفر التكوين 1/12 – 2) [2].

ويعقوب بن إسحق (إسرائيل) هاجر بأمر من أبيه.

وموسى ألم يبدأ رسالته بالدعوة إلى الخروج من مصر: «إذهب واجمع شيوخ إسرائيل وقل لهم أن الرب(...) قد تجلّى لي قائلاً: (...) ها أنا قد وعدت أن أخرجكم من ضيقة مصر»، (خروج 16/3 – 17) [3]، وقال الرب لموسى: «قل لبني إسرائيل أن يرحلو»، (خروج 15/14).

وفي القرآن عن هجرة موسى وشعبه:﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَى﴾، (طه 312/20).

وغوتاما بوذا (560 – 480 ق.م)، مؤسس البوذية ومعلّمها، والأمير ابن الملك يبدأ بحثه ودعوته بالهجرة من قصر أبيه:

---

1 – البيضاوي، عبدالله بن عمر (ت 791)، تفسير البيضاوي، تحقيق مجدي السيّد، القاهرة، المكتبة التوفيقية، ط1، ج2، ص 249.

2 – الكتاب المقدّس، كتاب الحياة، عربي، إنكليزي، لندن جمعية الكتاب المقدّس، ط2، 2000، ص 16.

3 – م. ن، ص 92.

«وقرّر الأمير غوتاما الاقتداء بذاك الزاهد. ولم تنفع ممانعة والده ولا حالتِ القصور وأسباب النعيم، وخلافة الوالد على العرش. فنهض في إحدى الليالي، ألقى نظرة أخيرة على زوجه وابنه، وامتطى جواده، وهجر القصر»[4].

وقبل بوذا هجر الملك راما، أبرز دعاة الهندوسية وأبطالها، مُلكه ومملكته تاركاً العرش لأخيه وتغرّب في الغابات.

يقول راما مخاطباً أمه قبل الهجرة:«إي أمي، لقد جاء زمن الشدّة، وأنا راحل إلى الغابة، ولسوف أقيم فيها أربعة عشر عاماً. فقد تنازلت عن العرش وكل ما يتّصل بالمُلك، وسيكون لباسي منذ الآن لباس الناسك. والمملكة سوف تصير إلى أخي بهاراتا»[5].

وفي فجر المسيحية هجرة إلى مصر، «إذا ملاك من الرب قد ظهر ليوسف في حلم، وقال: قم واهرب بالصبي وأمه إلى مصر، وابقَ فيها إلى أن آمرك بالرجوع..، فقام يوسف في تلك الليلة، وهرب بالصبي وأمه منطلقاً إلى مصر»، (متى 13/2 – 14) [6].

وبداية التأريخ الإسلامي، أليست الهجرة. رسولٌ وصحابته

---

4 – قمير، يوحنا، بوذا حكيم آسية ضمن الهند إن شدت وهدت، بيروت، مؤسسة نوفل، ط1، 1995، ص 101.

5 – ڤالميكي (900 ق.م)، ملحمة الرامايانا، ترجمة عبدالإله الملاّح، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ط1، 2003، ص 80.

6 – الكتاب المقدّس، م. س، ص 1424.

يهاجرون في سبيل الله والدين الحنيف:﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، (النساء 99/4).

والأمثلة تتعدّد والحديث يطول. الديانات العالمية الكبرى الخمس تبدأ بهجرة. لكأن فجر الأنوار والهدى لا ينبلج إلا بعد ليل الهجرة.

ولسنا هنا في صدد بحث ميتافيزيائي/فلسفي عن الهجرة. وإنما هي بعض خطرات تمهّد لهذه الدراسة، وهذا الكتاب عن الهجرة اللبنانية. والغرض منها إعادة التأكيد أن الهجرة ظاهرة إنسانية تساهم العلوم البحتة والإنسانية في جلاء بعض غوامضها. ولكنها لا تكفي، لوحدها، لفهم هذه الظاهرة وكنه أسرارها وأبعادها.

كان وقوعنا على كتاب الخوري باسيليوس خرباوي، تاريخ المهاجرة السورية إلى الديار الأميركية، اكتشاف بحدّ ذاته. وقد استخدمنا هذا المصنّف كمصدر في دراستنا "صدام الأديان والمذاهب في لبنان"[7]، والتي بها نصدّر كتاب مشهد العيان

---

7 – صليبا، لويس، صدام الأديان والمذاهب في لبنان، دراسة وتحقيق لكتاب مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2007، 720 ص.

بحوادث سورية ولبنان. وإثر إطلاعنا عليه ودراستنا له مقارنة بالأصول الأخرى، وجدنا أن مؤلّف الخوري خرباوي مصدر أساسي في دراسة الهجرة اللبنانية–السورية وكذلك أوضاع المسيحيين في بلاد الشام وسائر الولايات العثمانية في القرن التاسع عشر. ففيما يتعلّق بالموضوع الثاني يورد خرباوي وقائع وأحداث وأوضاع عايشها وشهدها، ولا نجد لها أثراً عند غيره من المؤرخين.

وفيما يتعلّق بالموضوع الأول (الهجرة)، فهو يورد تقارير بالوقائع والأرقام والأسماء عن أوضاع الجاليات اللبنانية في مختلف الولايات الأميركية. وظروف أبناء هذه الجاليات وكفاحهم منذ بداية هجرتهم في منتصف القرن 19 وحتى تاريخ صدور الكتاب 1913. إنها وثيقة أولية *Document de 1ère main* وشهادة من الداخل.

وعلى أهمية ما حواه هذا المصنّف نجده غائباً تماماً في كل الدراسات القديم منها والمعاصر. بل وأكثر من ذلك، فإننا لم نجد له أثراً حتى في فهارس المكتبات الكبرى كمكتبة الكونغرس وغيرها ومواقعها على الانترنت.

كل هذه العوامل، وغيرها، حفزتنا على إعادة نشر هذا المصدر النفيس عن تاريخ الهجرة وأوضاع المسيحيين. ولكننا وجدنا أن مجرّد إعادة نشر نص الخوري خرباوي لوحده أمر لا

يفي بالغرض المطلوب. فلا بد أن يُقرن هذا المتن بدراسة تعرّف أولاً بالكاتب والكتاب. وتلقي نظرة نقدية تحليلية على هذا الأخير.

وعملية جمع المعلومات عن الخوري خرباوي، لم تكن بالأمر اليسير.

فاسمه غائب، أو مغيَّب عن الموسوعات والمراجع التي تترجم للمؤلفين. والتعرّف إلى هذا الكاتب ومؤلّفاته وأفكاره، أمر ضروري لمعرفة خلفيته ودوافعه. وتقييم شهادته وموقعها من الجِدّية والموضوعية.

وكانت مواقع الانترنت *Site* الملجأ شبه الوحيد لنا. ولا بد أن ننوّه هنا بجهد عدد من الأصدقاء الذين أسعفونا بذلك. وعلى رأسهم الباحث أحمد الحوت، والآنسة ربى عبدالله المسؤولة في مكتبة جامعة البلمند.

ومن موقع إلى آخر، جمعنا المعلومة تلوَ الأخرى، كما تجمع لوحة *Puzzle*. وظهّرنا صورة لهذا الكاتب، إن لم تكن شاملة، فهي أداة مفيدة للبحث، ساهمت في فهم الكثير من الآراء والروايات التي يعرضها الكاتب. وكل ذلك مبيّن في طيّات بحثنا وقراءتنا النقدية للكتاب.

ومصنّف الخوري خرباوي، كأي مصدر تاريخي، لا يمكن أن تؤخذ رواياته إلا بعد قراءة نقدية تحليلية لها. ولكن القارئ،

ليس ملزماً، بالطبع، بالأخذ بقراءتنا نحن لهذا المصدر. فمجلّدنا هذا يتيح له العودة إلى النص الأصلي الكامل، الذي نشر كما هو دون زيادة ولا نقصان. وهذا أبسط شروط النشر الموضوعي العلمي.

والهجرة موضوع مغرٍ وعزيز: فنحن ممَّن ذاق طعمها، بحلوِها ومرِّها، سنوات طويلة، ولا يزال. وهذا ما جرّنا إلى مزيد من التفكّر والبحث. فرأينا من المفيد أن نرفد كتاب الخوري خرباوي بأبحاث وجوانب لم يتناولها هو. فقد بحث مثلاً في أسباب الهجرة. فعرض أسباباً وحلّلها. وفاتته أخرى. أو لعلّها لم تفته، وإنما كانت غير ذات شأن في زمنه. فقمنا بدورنا بتحليل أسباب ومسبّبات أخرى، ومن زاوية مختلفة عن مقاربة سائر الأبحاث وذلك تحاشياً للتكرار. ومن جملة ما انفردنا بعرضه نظرة علم المعمار الهندي *Sthapatya Veda* للموضوع. وقد تبدو طريفة، أو غريبة، بل حتى مستهجنة للبعض، ولكنها تستحق وقفة وتفكّراً.

وتصدّينا للهجرة مفهوماً وتعريفاً وتحديداً. ومعلوم أن الفلاسفة، منذ سقراط، يجمعون على: «أن لا شيء أصعب من التعريف، ولا شيء أشدّ في فحص الصفاء العقلي من محاولة

تعريف الأشياء وتحديد المقصود منها»[8].

فتناولنا تعابير الهجرة والتغرّب والاغتراب في اللغة. وربطنا بين هذه الأخيرة والرحيل من الغَرب وفق نظرة علم المعمار الهندي. ثم توقّفنا عند مسألتين لا يُذكر الاغتراب اللبناني إلا وتذكران معه: أزمة الهوية ومسألة الانتماء.

ففيما يتعلّق بالموضوع الأول، كان لا بد من جلاء الالتباس في هوية المهاجرين: أعثمانيون هم؟ أم عرب أم سوريون أو لبنانيون؟ لا سيما وأن كتاب الخوري خرباوي الذي ننشر لا يتحدّث إلا عن السوريين والمهاجرة السورية. فبينّا، إستناداً إلى النصوص والمصادر، كيف تطوّر استخدام هذه النعوت تاريخياً ليستقرّ بعد نهاية الحرب العالمية الأولى على مصطلح الهجرة والاغتراب اللبناني. وأوضحنا لما عُرف المهاجرون اللبنانيون، بداية، في أميركا بالسوريين وفي مصر بالشوام. وإلى ما كانت تشير هذه الألقاب.

وفيما يختصّ بالمسألة الثانية: الانتماء، تناولنا قضية ازدواج الجنسية عند المغتربين، وهل تعني ازدواجاً، أو حتى تناقضاً، في الانتماء بين بلدين.

وذكرنا ما قام به المهاجرون من سعي حثيث من أجل

8 – ديورانت، وِل، قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله المشعشع، بيروت، مؤسسة المعارف، ط6، 1988، ص 23.

استقلال لبنان. وكيف عبّروا بمواقفهم ونشاطاتهم وأدبهم عن التعلّق بالوطن الأم والحنين إليه وخدمة قضاياه.

ولعلّ الصفحة الأكثر إشراقاً في تاريخ المهاجرة اللبنانية هي أدب المهجر. ومصنّف الخوري خرباوي يكتفي بالإلماع إليه. في حين أن الملايين من البشر لم تعرف لبنان إلا من خلال جبران وزملائه. فهل يجوز إغفال هذا الجانب الأساسي في دراسة عن الهجرة؟.

ولكن ثمّة إشكالية مهمة تُطرح هنا: فالدراسات عن أدب المهجر عديدة ومتوفّرة. فما الفائدة من تكرار ما جاءت به؟! وهل يتّسع المقام لدراسة وافية عن هذا الأدب في بحث هو في الأساس تاريخي- فكري وليس بأدبي. لذا، ومنعاً للتكرار، من ناحية والتطويل من أخرى، حصرنا بحثنا في أدب المهجر في ناحيتين، هما في صلب موضوعنا الأساسي:

1 – مسألة الهوية والانتماء اللتين توقّفنا عندهما، وكيف انعكستا في أدب المهجر.

2 – الصورة التي رسمها أدب المهجر للمغترب اللبناني وما يفيدنا هذا الأدب في البحث عن تاريخ الهجرة ومراحلها وأوضاع المهاجرين. وهكذا استخدمنا الأدب ونصوصه في عملية البحث التاريخي/الأنتروبولوجي. وقديماً قيل الشعر ديوان العرب، أي أنه حافظ لأخبارهم وأرشيف لتاريخهم.

وصورة الهجرة والمغترب في أدب المهجر قادتنا إلى تناول مسألة الهجرة في أدب المقيمين. أو ما يُعرف بالأدب اللبناني الحديث.

وهنا لاحظنا تناقضاً في النظرة بين تيارَين:

واحد لم يرَ في الهجرة سوى مأساة، بل وخرافة أحياناً.

وثانٍ: وعلى العكس من الأول غنّى وأنشد ملحمة الاغتراب اللبناني منذ أيام الفينيقيين إلى اليوم. والتيار الثاني أقدم زمنياً، على الأرجح، من الأول.

فتناولنا أبرز من يمثل كلاًّ من التيارين.

ولا بد لي أن أعترف هنا أن كتابة هذه الدراسة، ولا سيما الفصلَين الخامس والسادس، قد أتاحت لي نتفاً من تذكار الماضي والحنين إليه. وأيقظت فيّ حسّ الأديب والناقد الأدبي. فكانت مناسبة للعودة إلى قراءة أدباء أحببتهم في نشأتي أمثال فؤاد سليمان وسعيد عقل. وهما، وإن كانا على طرفي نقيض في النظرة إلى الهجرة وفي الفكر القومي، فقد عبّر كلٌّ منهما عن رأيه ورؤياه بأدب مبدع راقٍ . فإن أنت شاطرت الواحد أو الآخر رأيه أو ناقضته، فلا بدّ لك من الاعتراف بإبداعه ومعجز بيانه.

ولكن، وكما ألمعت، ليست الدراسة الأدبية هدفنا هنا، فنحن وإن شطح القلم بنا أحياناً إلى تحليل ونقد أدبي. فمقصدنا

الأساسي كان واستمر وبقي، كما ذكرنا في خاتمة ذلك الفصل، محاولة مقاربة الهجرة هذه الظاهرة البشرية المعقّدة من حيث عجزت العلوم الإنسانية والبحتة عن مقاربتها، أو على الأقل من حيث أظهرت عجزاً عن الإحاطة الشاملة الكاملة بكل أبعادها ووجوهها.

وهل لهذه العلوم أن تنطق بالكلمة الفصل في سلسلة الهجرات المباركة التي عرفها تاريخ البشرية منذ إبراهيم وراما وصولاً إلى المسيح ومحمد، ومروراً بموسى وبوذا عليهم أشرف السلام.

فقد تفشي الكلمة المبدعة وتبوح بما تعجز عنه الأرقام والمكاييل والمقاييس.

ولا ندّعي في هذه الدراسة فقه جوهر ذاك السرّ. وإنما هي مجرّد محاولة لمقاربته وملامسته بما تيسّر وأتيح من أدوات.

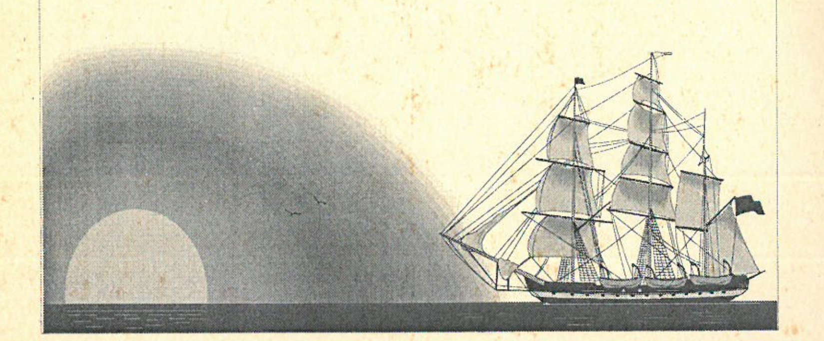
Q.J.C.S.T.B

باريس في 2007/06/10

عناوين فصول الدراسة

الفصل الأول

لبنان جبل مفتوح على الغرب



مواضيع الفصل الأول:

- الهجرة موضوع يحتاج إلى مزيد من البحث.
- الهجرة تغرّب أي رحيل من الغرب.
- يعطون الكثير ولا نعطيهم شيئاً.

الهجرة موضوع يحتاج إلى مزيد من البحث

الهجرة اللبنانية، موضوع لم ينل بعد كامل ما يستحقّ من اهتمام ودراسة.

عام 1973 أعلن د. شارك مالك أن:«القصة الكيانية للاغتراب اللبناني، بجميع أبعادها الإنسانية الروحية، لم تكتب بعد»[1].

وحتى يومنا هذا لما يزل كلام شارل مالك، وللأسف، صحيحاً وإلى حدٍّ بعيد.

والهجرة في لبنان ظاهرة تطرح تساؤلات عديدة، وعلى الرغم من الإجابات المتعدّدة التي قدّمها، ويقدّمها، الباحثون لتفسير هذه الظاهرة وتعليلها يبقى السؤال الأساسي مطروحاً: لماذا عرف لبنان في تاريخه القديم والوسيط والحديث والمعاصر موجات متتالية من هجرة أبنائه وخروجهم من وطنهم إلى بلاد أخرى. فمنذ أيام الفينيقيين ومستعمراتهم حول البحر المتوسط كقرطاجة وغيرها إلى أيامنا هذه: دَفْقٌ متواصل، جبلٌ يقذف

---

1 - مالك، شارل، لبنان كياناً ومصيراً، ضمن كتاب الهجرة: مسألة لبنانية، الكسليك/لبنان، جامعة الروح القدس، ط1، 1974 ص 17 – 18.

بأبنائه في عرض البحر، بحثاً عن فرص أخرى. يتحدّثون عن الشتات اليهودي والفلسطيني. وقد عرف لبنان شتاتاً لا يقل أهمية وخطورة عن الأخيرين. وإن كان، بشكل عام، طوعاً لا قسراً.

فما الذي يدفع اللبنانيين، دوماً وباستمرار، إلى الغربة والاغتراب؟

«الفقر في الوطن غُربة. والغنى في الغربة وطن»، يقول الإمام علي بن أبي طالب.

ويضيف الباحثون والمؤرخون عوامل أخرى حفزت اللبنانيين على ترك وطنهم إضافة إلى السعي وراء الرزق وفرص العمل. وأبرزها البحث عن الحرّية. حرّية المعتقد، وحرية الفكر والتعبير. فالمجازر الطائفية 1860، أدّت إلى نزوح الكثير من المسيحيين عن جبلهم ومدنهم إلى مصر وأميركا وغيرها بعيداً عن جور الأتراك وتعصّبهم واستبدادهم.

ولكن هل تكفي عوامل كهذه، على أهميتها وثقلها، لتفسير ظاهرة عمرها آلاف السنين، وتعليل هذا النزف البشري المستمر، الذي لما يزل لبنان يعاني منه اليوم أكثر من الأمس. تؤكّد الإحصاءات اليوم "أن عدد اللبنانيين المهاجرين يساوي أربعة أضعاف المقيمين"[1] أي أن اللبنانيين المقيمين في وطنهم

1 – سلامة، رياض، حاكم مصرف لبنان، محاضرة في ندوة البنك الأوروبي للاستثمار، باريس. نقلاً عن جريدة البلد، عدد 103/24، 2007، ص 15.

لا يتجاوز عددهم 20% من مجموع أبنائه. طالما تساءلت، وأنا مَن عاش في المهجر اثني عشر عاماً، عن جملة أسباب هذه الظاهرة، ولما هي ثابتة من ثوابت التاريخ اللبناني؟

الهجرة تغرّب أي رحيل من الغرب

ولفتَتْني في هذا الصدد الإجابة التي يقترحها علم المعمار أو الهندسة المعمارية الهندية: *Sthapatya Veda* أو *Vaastu Shastra*. وقد عرّفنا عنه في مؤلّفنا: "أقدم كتاب في العالم ريك فيدا"[1]. ويركّز هذا العلم على الاتجاهات كأساس لفن العمارة. فالمنزل مثلاً يجب أن يكون مدخله متّجهاً نحوَ الشرق. والبيت الذي تستقبل بوّابته الغرب يعاني غالباً من ترك عدد من أفراد عائلته له وهجرتهم عنه. وإذا طبّقنا مبادئ الهندسة المعمارية الهندية على لبنان جغرافية وموقعاً. نجد أن بوّابة هذا البلد مفتوحة على الغرب. فالجبل كلّه يتطلّع إلى البحر أي الغرب، والشريط الساحلي بأسره مفتوح على الغرب، في حين أن شرقه تقفلة سلسلة، بل سلسلتين من الجبال: الشرقية والغربية. فلبنان جغرافياً هو بشكل أساسي جبل وشاطئ مقفل من الشرق، مفتوح على الغرب. أما الداخل (البقاع) فوادٍ بين سلسلتي جبال، وهو الآخر مقفل على الشرق. وينتج عن كل ذلك، وفقاً للهندسة

1 – صليبا، د. لويس، أقدم كتاب في العالم، ريك فيدا: دراسة، ترجمة وتعليقات، بيبلوس، دار ومكتبة بيبليون، ط2، 2007، ص 85.

الهندية، أن لبنان كبلد أشبه بمنزل بوابته على الغرب ولا مدخل شرقي له. وهو بالتالي معرّض دائماً لمشكلة البيوت المفتوحة على الغرب: أي هجرة الأبناء. والمثل اللبناني عميق الدلالة في هذا الصدد، يقول:«ما بيجي من الغرب شي بيسرّ القلب».

والهجرة بالمفهوم المسيحي المشرقي العريق لعنة وعقاب أتى ونفّذ من الغرب. فوفقاً لتقليد قديم فإن آدم طُرد من جنة عدن من الباب الغربي وبقيَ طيلة حياته يتطلّع إلى الشرق إلى باب الخروج هذا ليتذكّر جنّته المفقودة[1].

والأمر المثير للانتباه هنا هو أن فقه اللغة العربية وعلم اشتقاق الكلمات وأصولها *Etymologie* يتوافق مع نظرة علم المعمار الهندي ستهاپتيا ڤيدا *Sthapatia Veda*، ففي العربية لفظة **الغَرْب** تعني في الوقت عينه المغرب (غياب الشمس)، وأيضاً الذهاب والتنحّي[2].

وتغرّب تعني في الوقت عينه: بَعُد ونزح عن الوطن، وكذلك أتى من الغَرْب.

الغُربة والغرب: النوى والبعد. والنوى هو المكان الذي تنوي أن تأتيه في سفرك، أي تتغرّب إليه أو تأتيه من الغرب.

وهكذا فالاغتراب وهجرة الوطن والنزوح عنه تترادف

1- Hayek, Michel, le chemin du désert, p 123.

2 – ابن منظور، لسان العرب، تحقيق يوسف البقاعي، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ط1، 2005، ص 2868.

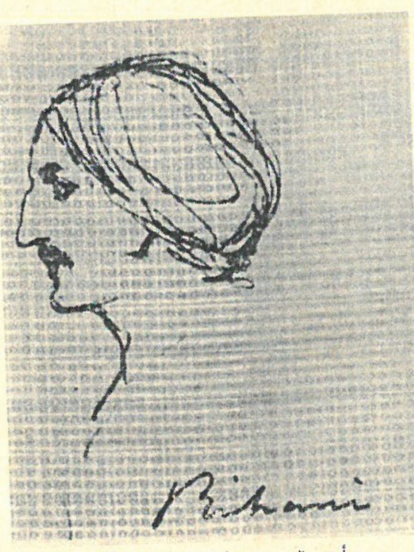
وتتماهى مع الذهاب من الغرب. وهو بالضبط حال المهاجرين والمغتربين اللبنانيين الذين ذهبوا وتركوا ويتركون وطنهم من الغرب.

وقد عبّر الأديب/المفكر المهجري أمين الريحاني (1876 – 1940) في كتاب خالد عن هذا الارتباط بين الهجرة والغرب والمغرب والغروب وتضاد كل ذلك مع المشرق، وتلازم الهجرة مع موقع لبنان من المشرق والمغرب، يقول الريحاني راوياً كيف قرّر بطله خالد أن يهاجر: «وفي يوم من الأيام، وكان [خالد] يتبع بعض السوّاح إلى الأرز، ومن على قمة ظهر القضيب وهو يرقب الشمس تغرب في البحر المتوسط، عقد العزم على أن يلحق هو أيضاً بها والتغرّب. ذلك أن غروب الشمس، كما كتب، كان يستهوينا أكثر من شروقها، لا بل كان أجمل منه. فالمغرب كان قريباً جدّاً، والمشرق بعيداً كل البعد. أجل لقد شاهدنا النور المنبعث من الطرف الغربي للعالم في ذلك اليوم، وانطلق لساننا بحمد الله وتسبيحه. والنور كان يحاكي نار القرى الموقدة في العالم الجديد والشمس نادتنا، فلبّينا النداء»[1].

وتأتي الوقائع التاريخية لتدعم هذه النظرة، وهذا التحليل الخارج عن المألوف.

---

1 – Rihani, Ameen (1876 – 1940), The Book of Khaled Beyrouth, librairie du Liban, 6th Edition, 2000, 1st Edition 1911, p 24.



أمين الريحاني (1876 – 1940)

فكلما كان لبنان يفقد عمقه الإستراتيجي الجغرافي، وكلما كانت أرضه تقتصر على الجبل وجزء من الساحل، كلما نشطت حركة الهجرة منه، بل وتفاقمت. ومن المعلوم أن بداية الهجرة اللبنانية في الزمن الحديث والمعاصر تعود إلى عهد متصرفيّة جبل لبنان. ولكن ما الذي حدث في المتصرفيّة؟! لقد ضاقت أرض لبنان، وحُصر الكيان الجديد في سبعة أقضية هي زحلة، جزين، الشوف، المتن، كسروان، الكورة والبترون ومديرية واحدة هي دير القمر . ما لا يتعدّى إجمالي مساحته 3727 كلم2 [1]. أي حُرم لبنان من أي امتداد في الداخل (البقاع وغيره). فما

1 – الملاّح، عبدالله، متصرفية جبل لبنان في عهد مظفر باشا (1902 – 1907)، بيروت، مؤسسة خليفة للطباعة، ط1، 1985، ص 7.

كان أمام اللبناني سوى الجبال والصخور. وما وراءه سوى البحر. فاختار الكثيرون البحر منفذا لهم ومنقذاً من أحوال معيشية رديئة.

ولو عدنا إلى حقبات التاريخ الأكثر قدماً لَلاحظنا الظاهرة عينها: كلما حرم لبنان من امتداد داخلي، ومساحة يتنفّس فيها اللبنانيون فيما وراء الجبل، قذف هذا الأخير بأبنائه في البحر بحثاً عن تحسين فرص العيش.

إن في الهجرة لسرّ، يتخطّى الكم والأرقام. فعلوم الاقتصاد والمال والديموغرافيا، لا تكفي وحدها لشرح هذه الظاهرة. من هنا اعتبر عدد من الباحثين «أن هناك شيء غامض يفسّر ظاهرة غير معروفة حتى الآن»[1].

فهل تكشف مقاربة ستهاپتيا ڤيدا *Sthapatya Veda*. أو علم المعمار الهندي شيئاً أو أشياء من أبعاد هذا السرّ؟!.

إن لبنان كموقع وجغرافية، لم يدرس ويحلّل إلى اليوم كسبب أساسي من أسباب ظاهرة الهجرة. فقد شكّل هذا الموقع من أقدم أزمنة التاريخ مركزاً جاذباً وطارداً في آن واحد. فهو البوابة الأولى لكل آتٍ من البحر المتوسط. والمنفذ الرئيسي لكل مغادر من الشرق الأدنى. وعبر أراضي لبنان تحرّكت القوافل

1 – العقل، د. جهاد نصري، الهجرة الحديثة من لبنان وتعاطي المؤسسات الرسمية والأهلية معها (1860 – 2000)، بيروت، دار ومكتبة التراث الأدبي، ط1، 2002، ص 19.

التجارية والحملات العسكرية في كل اتجاه في حوض البحر المتوسط ونحو الداخل.

ونتيجة لهذا الموقع، ولجغرافيته المفتوحة على البحر، والمقفلة أو المسدودة نحو الداخل، لا سيما في حقبات عديدة من تاريخه، غدت الهجرة ثابتة من ثوابت التاريخ اللبناني وركناً من أركانه. يقول شارل مالك: «إن الهجرة هي من الأعمدة العشر التي ينهض عليها ويتألف منها الكيان اللبناني. والاغتراب اللبناني بسعته وكثافته ومغزاه يطبع لبنان بطابع مميّز. ومن دون هذه الظاهرة في جميع العصور لم يوجد ولا يوجد لبنان»[1].

الهجرة، وفقاً لمالك، مرادف للبنان، ولا وجود له بغياب هذه الظاهرة. لكأنها، كما أرضه، من ضرورات هذا الوجود. ولكن ألا يمكننا أن نقول هنا أنها نتيجة لطبيعة هذه الأرض؟! ونكتفي بهذا القدر من عرض هذه المقاربة التي قد تصدم القارئ وتثير استغرابه. فهي بعيدة عن لغة الأرقام وعلومها. ولكنها مع ذلك تستحق وقفةً وتفكّراً. لا سيما بعد أن غدت دراسة ظاهرة الهجرة «تعتبر اليوم من الدراسات الدقيقة المعقّدة لتداخلها في مختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية. لم تعد هذه الظاهرة تقتصر فقط على المعلومات الرقمية أو الكمية الخارجية التي تتعلّق بأسباب الهجرة وحجمها ونتائجها»[2].

---

1 – مالك، شارل، م. س، ص 19.

2 – العقل، م. س، ص 17.

يقول شارل مالك:«قد يكون للهجرة اللبنانية معنى وبعد أعمق بكثير مما يتصور المحلّلون الاقتصاديون والاجتماعيون والسياسيون»[1]. إنها مقولة عميقة وصحيحة. فأسباب الهجرة لا تقف فقط عند حدود الاقتصاد والاجتماع، بل تمتدّ إلى ما هو أعمق من ذلك: إلى كيان الوطن وإنسانه. وهوية كلّ منهما. لما يتغرّب الإنسان؟ لما يعيش في غربة أو في الغربة؟!.

في الجواب أبعاد وجدانية وكيانية لا تحصرها الأرقام أو، على الأقل، لا تكفي لشرحها.

يعطون الكثير ولا نعطيهم شيئاً

وغالباً ما يلوم المقيمون المهاجرين. وينسبون إليهم قلّة التعلّق بوطنهم ونسيانه وعدم التفكير بالعودة إليه. ولكن المنطق السليم يفرض قبل أن نسألهم ماذا فعلوا لنا؟ أن نطرح على أنفسنا السؤال ماذا فعلنا للمهاجرين والمغتربين؟.

فالمغترب اللبناني لما يزل، إلى اليوم، محروماً من أبسط حقوقه السياسية والوطنية: حق الانتخاب وبالتالي حق المشاركة في الحياة السياسية والوطنية. في حين تعترف معظم الدول لمهاجريها بهذا الحق. وتفتح سفاراتها خارج حدودها لمغتربيها للمشاركة في الاقتراع[2].

---

1 – مالك، م. س، ص 19.

2 – أنظر بهذا الشأن كتاب جورج فرشخ، إقتراع المغتربين دراسة ولوحات مهجريّة، بيروت، بيسان للنشر، ط1، 2006، 184 ص.

فالاعتراف بحق كهذا ليس سوى أبسط واجبات الوطن نحو مهاجريه. وثمّة حق آخر أشد خطورة وأكثر أهمية. إنه حق الانتماء والجنسية. ولا يزال المغتربون اللبنانيون محرومون منه. وكم نبّهت المؤسسات في لبنان والجمعيات إلى ذلك ودعت إلى حلّ هذه المشكلة. وآخرها كان المجمع البطريركي الماروني 2006 الذي لحظ:«المسؤولون في لبنان تغنّوا بالاغتراب وبملحمة الانتشار، الذي يفخر به الوطن، ومع ذلك، فإنهم تجاهلوا حقوق المنتشرين، ولم يهتمّوا بتسجيل أولادهم في خانة المواطنين اللبنانيين»[1].

لذلك فقد أوصى المجمع:«بالعمل بكل الوسائل المتاحة على إعطاء المنتشرين حقوقهم المدنية في لبنان وفي طليعتها حق المواطنية. وفي هذا المجال بالذات يوصي المجمع بمتابعة المساعي لدى السلطات اللبنانية المختصّة من أجل تسجيل أولاد المتحدّرين من أصل لبناني في سجلّات قيود لبنان»[2].

ومن المؤسف أن تبقى هذه المسألة معلّقة منذ استقلال لبنان. وعرضة للتجاذبات السياسية، ولا سيما الطائفية منها.

أما ما يقدمه المغتربون للبنان فكثير: الحضور العالمي وغيره. وليس أقل من ذلك السند المالي والاقتصادي. فاستناداً

1 – المجمع البطريركي الماروني، 2003 – 2006، النصوص والتوصيات، قدم له البطريك نصر الله صفير، بكركي / لبنان، 2006، ص 118.
2 – م. ن، ص 134.

إلى إحصاءات البنك الدولي (التوقّعات الاقتصادية العالمية لسنة 2006) تبلغ نسبة تحويلات المهاجرين إلى الناتج المحلّي الإجمالي 25,80% في لبنان. وهي أعلى نسبة في البلدان العربية[1]. ويقول رياض سلامة، حاكم مصرف لبنان، في هذا الصدد «إن تحويلات المغتربين اللبنانيين تشكّل أهم مصدر للنقد الأجنبي في لبنان. وهي تقدّر بمبلغ 5.6 مليارات دولار أميركي في السنة»[2].

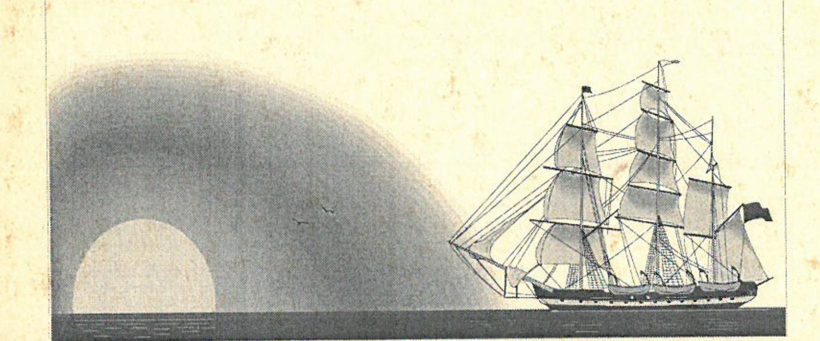
ويردّ الحاكم أسباب التحويلات إلى ثلاثة: الميل إلى مساعدة الغير، التعلّق بالوطن، وتنويع المحفظة المالية. ويقول أن أهم هذه الأسباب هي الميل إلى مساعدة الغير، إذ يخصّص قسم كبير من الأموال التي يحوّلها المهاجرون لتمويل حاجات المستفيدين الأساسية كالغذاء والسكن واللباس ونفقات التعليم والتطبيب»[3].

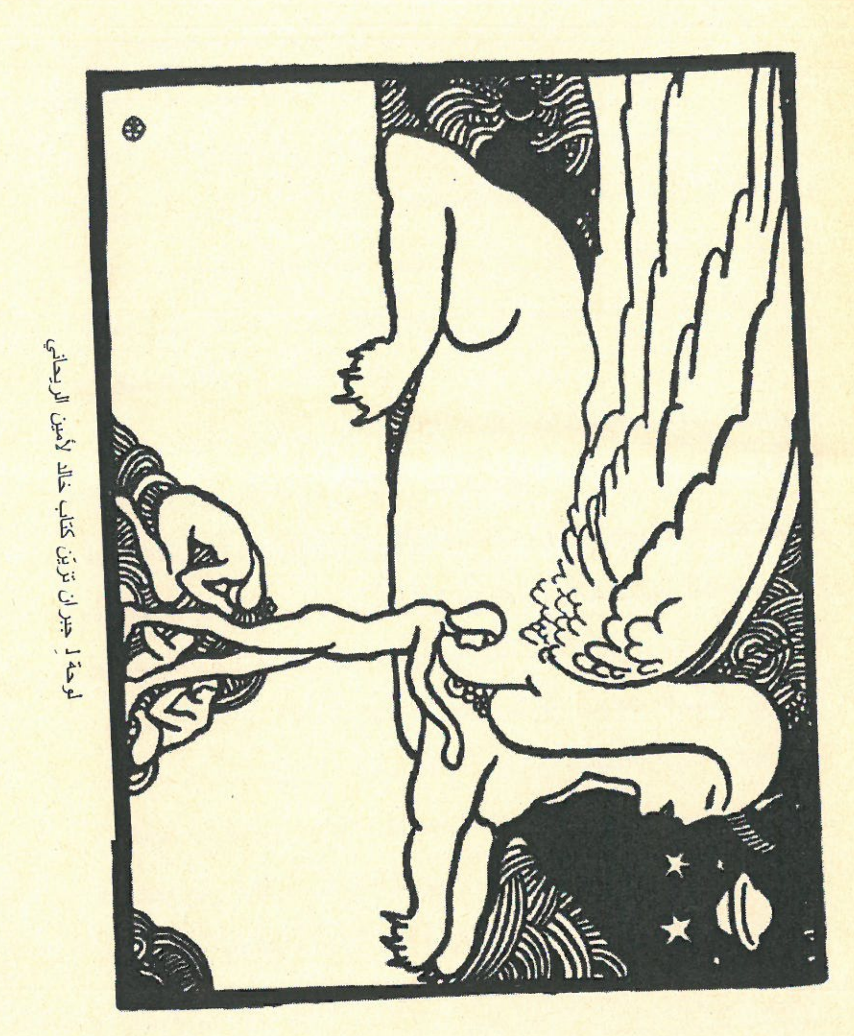
وما ذكرنا كافٍ للإضاءة على الدور الحاسم الذي يلعبه المغتربون في تطوير الاقتصاد اللبناني وتنشيطه. ودعم العملة الوطنية. ويعطي إجابة واضحة على السؤال: ماذا يفعل المهاجرون للبنان وأهله المقيمين. في حين يبقى السؤال المعاكس يبحث عن جواب.

1 – سلامة، رياض، م. س، ص 15.
2 – م. ن.
3 – م. ن.

الفصل الثاني

تاريخ المهاجرة: الكتاب والمؤلّف





لوحة لـ جبران تزين كتاب خالد لأمين الريحاني

مواضيع الفصل الثاني:

- المؤلّف الخوري خرباوي
- مؤلّفات الخوري خرباوي

قلنا أن المؤلفات والدراسات التي تتناول الهجرة اللبنانية قليلة. ونشير هنا إلى أن هذا الموضوع بدأ يستقطب اهتمام الباحثين والمؤسسات. وننوّه في هذا المجال بنشاط د. عبدالله الملاح الأكاديمي[1].

أما ما نقدّمه نحن في هذا المجلّد، فهو، على الأرجح، أقدم مصدر عرض للهجرة في مؤلَّف مستقل، والعنوان الأصلي لهذا الكتاب هو:

تاريخ المهاجرة السورية إلى الديار الأميركية. لمؤلّفه الخوري باسيليوس خرباوي. وقد طبع في نيويورك 1913.

ويذكر المؤلّف في خاتمة كتابه أنه أنهى كتابته في 1913/11/18.

فمَن هو مؤلف هذا الكتاب؟!

---

1 - الملاح، د. عبدالله، الهجرة من متصرّفية جبل لبنان، 1861 - 1918، بيروت، 2007. وبالإضافة إلى كتابه هذا فقد أشرف المؤلف على عدد من الرسائل والأطروحات الجامعية في هذا الموضوع. كما سعى إلى تأسيس كرسي جامعي متخصّص في مسائل الهجرة. وأبحاثها، وذلك بالتعاون مع الأب كرم رزق مدير معهد التاريخ وقسم الآثار في جامعة الروح القدس، الكسليك.

وما هي ميزات هذا السِفر؟!

وما الداعي إلى إعادة نشره؟

المؤلّف: الخوري خرباوي

لا نعرف الكثير عن الخوري باسيليوس خرباوي مؤلّف كتابنا. ولم نجد له ذكراً في موسوعات المؤلّفين العرب، أمثال الأعلام للزركلي، ومعجم المؤلّفين لكحّالة، ومصادر الدراسة الأدبية لداغر.

والمصدر الوحيد الذي يذكر الخوري خرباوي هو معجم المطبوعات العربية والمعربة لِ يوسف اليان سركيس. يقول: «الخوري باسيليوس خرباوي كاهن كنيسة القديس نقولاوس [نقولا] السورية الأرثوذكسية في بروكلن نيويورك». ويذكر له كتابين: تاريخ روسيا وتاريخ الولايات المتحدة. الصادرين في نيويورك[1]. وسنتناولهما لاحقاً مع سائر مؤلفاته.

وفي الأصول العربية لداغر إشارة مقتضبة إلى خرباي في فصل الأدب/ فقرة الأدب اللبناني في المهاجر الأميركية جاءت كما يلي:

2541 – خرباوي – تاريخ الولايات المتحدة والمهاجرة

---

1 – سركيس، يوسف اليان، معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة، مطبعة سركيس، ط1، 1928، ج1، ص 818/9.

السورية – نيويورك 1913[1].

فالاسم غير مذكور كاملاً وغائب عن فهرس المؤلّفين في آخر الكتاب. ما يدل على أن داغر لم يحصل سوى على معلومة مبتورة.

ونجد للخوري خرباوي ذكراً في كتاب د. عبدالله الملاّح على لائحة رجال الدين العرب المنتشرين في القارة الأميركية (1900 – 1918)، واسم الخوري باسيليوس خرباوي مدرج ضمن أسماء رجال إكليروس الروم الأرثوذكس ومركزه بروكلن نيويورك[2].

أما فيما يخصّ سيرة الخوري خرباوي، فأبرز ما وجدنا، بعد طول بحث النبذة الموجزة التي كتبتها حفيدته *Julia Mallen* والموجودة على موقع إلكتروني[3]. تقول الحفيدة عن الجدّ أنه من بيروت وقد هاجر إلى الولايات المتحدة بداية القرن العشرين. أتقن سبع لغات، وألّف العديد من الكتب. أنجب الخوري خرباوي عشرة أولاد. ولد تسعة منهم في بيروت والأخير في بروكلن.

---

1 – داغر، يوسف أسعد، الأصول العربية للدراسات اللبنانية، دليل بيبليوغرافي. بالمراجع المتعلّقة بتاريخ لبنان، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ط1، 1972، ص 310.

2 – الملاّح، م. س، ص 295. نقلاً عن نجيب عبده، السفر المفيد في العالم الجديد، ص 326 – 328.

3- Mallen, Julia, I would like to trace, www.genforum.genealogy.com, January, 09, 2002.

وعن عائلة خرباوي نقرأ في معجم أسماء الأسر:«اسم أسرة من الأسر المسيحية في الكفير بقضاء مرجعيون، عربي منسوب إلى قرية خربا بحوران التي ربما كان أصل الأسرة منها. وأشهر مَن عرف من أبناء هذه الأسرة الخوري إيليا الخرباوي»[1].

أما عمر كحالة فيعيد لقب الخرباوي إلى قرية خربة روحا في البقاع/لبنان. وإليها ينتسب المؤرخ والمفسّر الفقيه المعروف إبراهيم الخرباوي البقاعي (ت 885 هـ/1480 م) [2].

أياً يكن الأصل، فالخوري خرباوي بيروتي هاجر إلى أميركا. ويُظهر في كتابه هذا معرفة بتاريخ بيروت. ويروي كثيراً من الأحداث التي عاصر، لا سيما الأحداث والتشنّجات الطائفية التي عرفتها بيروت أواخر القرن التاسع عشر.

عام 1915، وعلى أثر وفاة المطران روفائيل أسقف بروكلن للروم الأرثوذكس، نجد الخوري خرباوي يتصدّى لمحاولات خلفه الأسقف جرمانوس لضمّ أبرشية بروكلن إلى سلطة بطريركية أنطاكية الأرثوذكسية. فأصرّ خرباوي مع زميله الشماس عمانوئيل أبو حطب على إبقاء الأبرشية تابعة

1 – أبو سعد، أحمد، معجم أسماء الأسر والأشخاص ولمحات من تاريخ العائلات، بيروت، دار العلم للملايين، ط3، 2003، ص 323.

2 – كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، بيروت، ط1، 1883، ج1، ص 49.

لبطريركية موسكو الأرثوذكسية[1].

ونجد للخوري خرباوي ذكراً في احتفال تأبيني للكاهن الشهيد نقولا خشّة. والذي قتله الأتراك بتهمة العمالة في 1917/08/02. فقد أقيم لهذا الكاهن الشهيد، كما أوردت جريدة السائح، 1919، قدّاس لراحة نفسه في الكاتدرائية السورية الأرثوذكسية في بروكلن، ترأسه الأسقف أفتيموس وإكليروسه. وأبّنه المتقدّم في الكهنة باسيليوس خرباوي. فوصف مالاقاه رجال الكنيسة المسيحية من قديم الزمن من الاضطهادات. وقال إن قتل الخوري نقولا ليس إلا من تلك الاضطهادات. فلذلك هو أحد الشهداء الذين تقوم على ثباتهم في الإيمان والوطنية أسس المبادئ[2].

وفي 1932/07/21، توفي التاجر جورج باسط Georges *K. Basset* أحد أقرباء الخوري خرباوي [ابن عمته على الأرجح]، وكان هاجر إلى أميركا عام 1900 أي في السنة التي هاجر فيها هذا الأخير. وكلا الهجرتين تعودان إلى السبب عينه مجازر 1860 بحقّ المسيحيين في جبل لبنان وما تلاها أيضاً من

1-History of the Formation of the society of clercks secular of saint Basil, www.reu.org.

2 – بيطار، الأرشمندريت توما، القديسون المنسيون في التراث الإنطاكي، طرابلس، منشورات النور ص 559/60، نقلاً عن جريدة السائح نيويورك عدد 27 ك سنة 1919.

اضطهاد وتضييق لهم. وقد ترأس الخوري خرباوي مراسم دفن قريبه ورثاه[1].

وفي النبذة التاريخية عن كاتدرائية مار نقولا الأرثوذكسية/بروكلن نجد أن المتقدم في الكهنة باسيليوس خرباوي استمرّ كاهناً مسؤولاً عن هذه الكنيسة من سنة 1907 إلى 1938[2].. ولعلّ السنة الأخيرة هذه هي تاريخ وفاته.

مؤلّفات الخوري خرباوي

أبرز ما أحصينا للخوري خرباوي من مؤلفات، هو التالي، وفق تاريخ الصدور:

1 – تاريخ روسيا منذ نشأتها إلى الوقت الحاضر، نيويورك، مطبعة جريدة مرآة الغرب، ط1، 1911، 718 ص. ذكره معجم المطبوعات[3].

2 – تاريخ الولايات المتحدة الأميركية منذ اكتشافها إلى الزمن الحاضر، ويليه تاريخ المهاجرة السورية إلى الديار الأميركية، نيويورك، مطبعة الدليل، ط1، 1913، 931 ص. ذكره

1- Basset's contributed to Milan's economy, w.w.w.milanews.com

2- SC. Nicholas Antiochian orthodox Cathedral – History, w.w.w.stnicholascathedral.org.

3 – سركيس، م. س، ص 819.

معجم المطبوعات أيضاً[1].

3 – بهجة النفوس في سيرة القديس الشهيد جاورجيوس، بروكلين/ نيويورك، 1919.

4 – *The old church in the new world, or the mother church being a plain exposition and vindication of the church founded and headed by our lord Jesus Christ, her doctrine, her sacrements, etc 353p.*

وترجمة عنوان هذا الكتاب: الكنيسة القديمة في العالم الجديد، أو الكنيسة الأم: عرض بيّن ودفاع عن الكنيسة الحقيقية التي أسسها ورأسها ربنا يسوع المسيح، عقيدتها وأسرارها الخ....

نشر في بروكلن – نيويورك عام 1930، 353 ص.

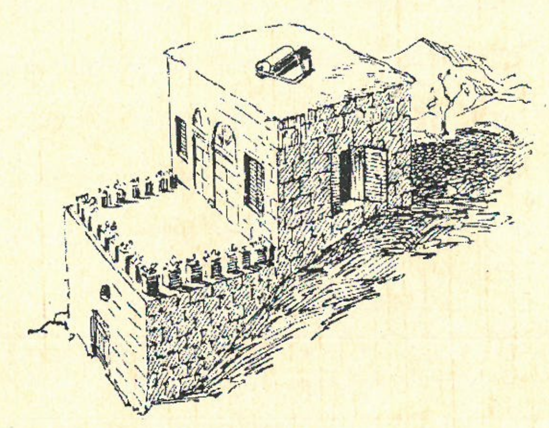
أما الكتاب الذي ننشر هنا تاريخ المهاجرة السورية، وهو القسم السابع من تاريخ الولايات المتحدة الأميركية، فلم نجد حتى الآن أي أثر له في فهارس المكتبات الكبرى ولا في مواقعها الإلكترونية Site. ولا نعلم السبب. من هنا فإننا بنشرنا لكتاب الخوري خرباوي، ننفض الغبار عن مصدر مهم في دراسة الهجرة، طواه النسيان، ولم يُعرف لا في الغرب حيث صدر، ولا في هذا الشرق الذي يتناول حقبة بارزة وحديثة من تاريخ أبنائه.

1 – م.ن.

سبق أن قلنا أن كتاب الخوري خرباوي مـن أوائـل المؤلّفـات المخصّصة لهجرة اللبنانيين والسوريين، إن لم يكن أوّلها علـى الإطلاق. فله بذلك فضل السبق. وقد تنطبق فيه آية الذكر الحكيم ﴿السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾، (الواقعة 56/10).

وهو وإن لم يكن بحثاً أكاديمياً منهجياً في الهجـرة. فهـو مصدر لا غنى عنه لهذا البحث.

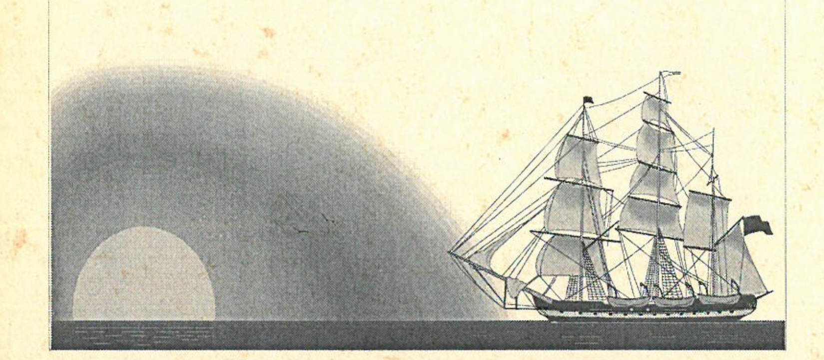
وسنتوقّف فيما يلي عند بعض النقاط التي أثارت انتباهنا في مصنّف، الخوري خرباوي. فنعرض لها في قراءة نقديـة لهـذا الكتاب. كما نتناول بعض المواضيع الأخرى التي تثيرها ظاهرة الهجرة. فتكون دراستنا هذه، في الوقت عينه، مـدخلاً لمؤلّـف الخوري خرباوي، ومكمّلاً له.

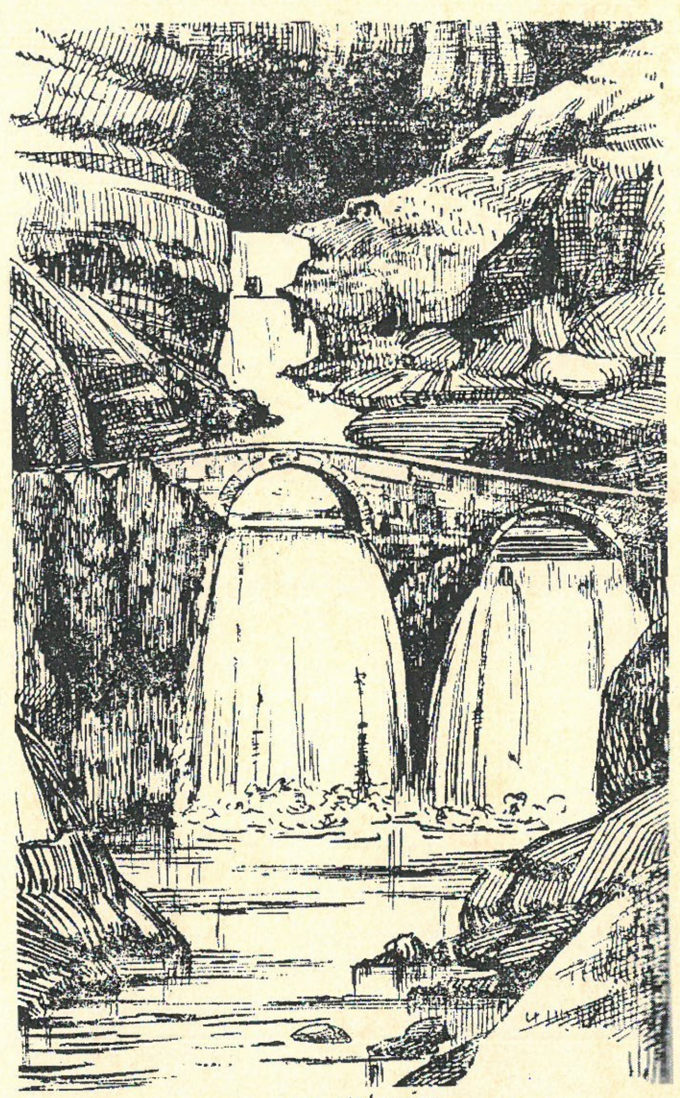


بيت لبناني عتيق

الفصل الثالث

الهجرة: تحديدها وأنواعها





شلّالات أفقا/نهر ابراهيم

الهجرة والاغتراب في اللغة والعلوم الاجتماعيّة

العنوان الأصلي للكتاب: تاريخ المهاجرة السورية إلى الديار الأميركية كما سبق وذكرنا.

فما الفرق بين الهجرة والمهاجرة والاغتراب والانتشار وغيرها من المصطلحات التي تستخدم اليوم في هذا المضمار؟ وما معنى كلّ منها؟

الهِجرة معجمياً هي الخروج من أرض إلى أرض[1]. ويصحّ أيضاً القول الهُجرة بضم الهاء، وفق ابن منظور الذي يُقرّ اللفظتين هِجرة وهُجرة في استخدام العرب، وإن كانت الأولى هي الشائعة. وقد أخطأ د. خليل أرزوني في أطروحته في الاقتصار على الهُجرة بضم الهاء[2] محيلاً إلى ابن منظور، لأن الأخير يجيز الاثنين. أما المهاجرة، كما يقول الأزهري في تهذيب اللغة، وينقل عنه ابن منظور في اللسان، فهي في الأصل

---

1 - ابن منظور، م. س، ص 4087.

2 - أرزوني، د. خليل، الهجرة اللبنانية إلى الكويت 1915 – 1990، تقديم د. مسعود ضاهر، بيروت، مكتبة الفقيه، ط1، 1994، ص 23.

عند العرب خروج البدوي من باديته إلى المدن[1]. ويضيف ابن منظور: فكل مَن فارق بلده من بدوي أو حضري أو سكن بلداً آخر فهو مهاجر. وفي القرآن:﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾، (النساء 100/4). والتقويم الإسلامي يبدأ بهجرة الرسول وصحبه من مكّة إلى المدينة، هرباً من اضطهاد مشركي قريش.

فلفظة هجرة أدقّ مدلولاً من مهاجرة. من هنا تفضيلنا لها في العنوان الجديد للكتاب.

وتركّز التعريفات الحديثة للهجرة على البعد الزماني، إضافة إلى البعد المكاني الذي تناوله التعريف اللغوي المعجمي. فالجغرافية السكانية تعرّف الهجرة بِ :«أحد أشكال انتقال السكان من أرض يطلق عليها المكان الأصلي، إلى أرض أخرى يطلق عليها مكان الوصول، أو المكان المقصود. ويتبع ذلك تغيير في محل الإقامة. ويفرّق في الهجرة بين الانتقال المؤقت والانتقال النهائي، في ضوء فترة الغياب عن المكان الأصلي»[2].

وتختلف تعاريف الهجرة باختلاف العلوم التي تدرس هذه الظاهرة. «ذلك أن المعاني المركّبة والمعقّدة لمفهوم الهجرة

1 - م.ن.
2 - أرزوني، م. س، ص 23.

جعلته أحد المفاهيم الأساسية في علوم عديدة، يتّخذ كل منها بعداً متميّزاً، لكنه لا يستقلّ، أو ينعزل، عن الأبعاد الأخرى، فالبعد السوسيولوجي لا يستقلّ عن البعد النفسي أو الاقتصادي أوالديموغرافي أو السياسي»[1].

ورغم التباين في تعريفات الهجرة، فهي تشترك بإقرارها أن الهجرة عبارة عن تحرّك بشري، فردي أو جماعي، من الموطن الأصلي إلى مكان آخر بهدف العيش والإقامة فيه بصفة مؤقّتة أو شبه دائمة. بحيث ينتج عن هذا التحرّك البشري إنعكاسات مؤثّرة، سلباً أو إيجاباً، على الأصعدة السكّانية والاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة لطرفي الهجرة: البلد المصدّر لها، والمكان المستقبل لها.

وفي العربية لفظة أخرى، سبقت الإشارة إليها هي: الغربة والاغتراب. وقد رأينا أنها ترتبط عضوياً وفقهياً واشتقاقياً بالغَرب كجهة. وذلك في عرضنا لنظرية علم المعمار الهندي القائلة أن الأبواب المفتوحة على جهة الغرب سبب في الغُربة.

والغربة لغوياً هي النزوح عن الوطن والذهاب من الغرب

1 - أرزوني، م. س، ص 24.

والابتعاد والغياب. وغرّب في الأرض وأغرب: إذا أمعن فيها[1].

ورجل غرَب وغريب: بعيد عن وطنه[2].

ويشتقّ من جَذر غرَب في العربية الكثير من الألفاظ التي تعني الهجرة والنزوح والبعد واللوعة على كل ذلك.

الغرب: حدّ كل شيء وغرب: بعيد المطرح.

وعنقاء مغرب: طائر عظيم يبعد في طيرانه.

والغَرب: الحدّة، في لسانه غرب أي حدّة.

والغرب: مسيل الدموع. والغروب: الدموع حين تخرج من العين. والغروب: مجاري الدموع.

والغُراب: الطائر الأسود. وفي الحديث أن اسم غراب لما فيه من البعد ولأنه أخبث الطيور. ولنذكر هنا أيضاً أن الغُراب هو الطائر الذي ينعق في الأماكن الخالية التي تغرّب أهلها وهجروا. كلها ألفاظ مشتقّة من جذر واحد: غرب وتشير إلى أحزان الغربة ومآسيها.

ويميّز البعض بين الهجرة والاغتراب:«فهذه الأخيرة تعني القطع أو انعدام التواصل، بعكس مفهوم الهجرة الذي يبقي على التواصل والامتداد والتكامل بين المقيم والمهاجر، بين المواطن

---

1 – ابن منظور، م. س، ص 2868.

2 – م.ن.

والمهجر»[1].

وهذا ما دفع د. جهاد العقل إلى إسقاط مصطلح الاغتراب ومشتقّاته إسقاطاً تاماً في أطروحته عن الهجرة. لأن من معاني الاغتراب «القطع وعدم التواصل، أو بتعبير آخر الانسلاخ الكلّي عن المجتمع الأصلي» [2].

ولكننا لا نوافقه الرأي. بل نرى عكس ذلك تماماً. الغربة والاغتراب ومشتقّاتهما أغنى بمدلولاتهما من الهجرة كما رأينا. صحيح أن الغربة تعني الغياب والبعاد. ولكنها لا تحمل في مدلولاتها الأصلية معنى القطع وعدم التواصل. وإذا كان البعض قد حمّلها هذا المعنى، فهو من باب التجاوز وليس في الأصول.

هذا والهجرة كتعبير ومصطلح لا يقتصر مدلوله على الرحيل إلى خارج الوطن، بل يشمل أيضاً حركة النزوح من القرية إلى المدينة. فاستخدام لفظة الهجرة يتطلّب غالباً توضيح أي نوع منها: داخلية أم خارجية. يقول د. محمد عطاالله مميّزاً بين الهجرة والاغتراب «الاغتراب اللبناني فرع من أصل. الأصل هو الهجرة. الهجرة من القرية إلى المدينة. وهذه الهجرة، المسألة الأصل، ما زالت مستمرّة ومضطرده منذ أواسط القرن التاسع

---

1 – العقل، م. س، ص 30.

2 – العقل، م. س، ص 39.

عشر (...) رغم أن الاغتراب قد عرف فترات من الاشتداد (...) ولكنه لم يسجّل الاستمرار الذي ما فتئت تسجّله حركة الهجرة من القرية إلى المدينة، الهجرة الداخلية، مما يشجّعنا على القول بأن الاغتراب حالة خاصة لمسألة عامة هي الهجرة»[1].

ولا يوافق جميع الباحثين على هذا التحديد. إذ يميّزون بشكل واضح بين الهجرة والنزوح. فالأولى تختلف، شكلاً ومضموناً، عن النزوح الذي «يطلق على حركة السكّان من مناطق ريفية إلى مناطق مدنية داخل حدود الدولة الواحدة»[2].

ونحن نرى أن التمييز بين الهجرة والنزوح لغةً ومفهوماً وظاهرة يسهّل عمل دارسي كل من الظاهرتَين. ويعطي لهذه التعابير والمصطلحات مدلولات أكثر دقة وأشدّ بُعداً عن الالتباس.

ويمكن التمييز، من الناحية التاريخية، بين نمطَين من الهجرة: هجرة إجبارية أو قسرية، وأخرى تلقائية.

والأمثلة على الهجرة القسرية في العصر الحديث عديدة: تهجير الفلسطينيين من وطنهم عام 1948. وتهجير الهندوس والسيخ من باكستان إلى الهند بعد تقسيم هذه الأخيرة 1949[3]. أما الهجرة

1 - عطاالله، د. محمد، الاغتراب وأثره في التركيب الاقتصادي الاجتماعي في لبنان، ضمن كتاب الهجرة: مسألة لبنانية الكسليك/لبنان، جامعة الروح القدس، ط1، 2004، ص 51.

2 - أرزوني، م. س، ص 26.

3 - صليبا، د. لويس، ديانة السيخ بين الإسلام والهندوسية، جبيل/دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2008، الباب الأول، الفصل الثالث.

التلقائية فهي نمط قديم جداً ويرى البعض "أنها ظاهرة ارتبطت بالإنسان منذ ظهوره"[1]. إذ نجد عبر التاريخ البشري الكثير من الجماعات التي انتقلت من مكان إقامتها الأصلي إلى أماكن أخرى بتأثير القحط أو كوارث طبيعية ألخ... وهجرة الشعوب الساميّة من جنوب الجزيرة العربية باتّجاه ما يعرف بالهلال الخصيب، وهجرة القبائل الهندوأوروبية وقبائل المغول ألخ... أمثلة على ذلك.

وبالعودة إلى الهجرة اللبنانية ومختلف أنماطها وأشكالها، فالمؤرّخ أدمون رباط لا يسمّي اللبناني في أفريقيا ولا في الخليج مغترباً، لأنه يعتبر أن اتصاله دائم مع لبنان، بينما الذي ذهب إلى القارة الأميركية فهو قد ابتعد كثيراً. ويرى أن المغترب هو مَن كانت عائلته في أساسها أو جذعها لبنانية الأصل»[2].

والمغترب في الاستخدام العامي والشعبي للكلمة هو مَن هاجر نهائياً من وطنه (لبنان). أما مَن يرحل للعمل وتبقى عائلته في الوطن، أو يبقى على اتصال مستمر بهذا الأخير عبر السفر وغيره، فهو مهاجر وليس بمغترب. ولا يطلق اللبنانيون على أبناء وطنهم العاملين في الخليج وسائر الدول العربية لقب

1 - أرزوني، م. س، ص 25.

2 - عطاالله، م. س، ص 51.

مغتربين. فهذا التعبير يعني في وعيهم الجماعي البُعد بوجهَيه المكاني أو الزماني أو الاثنين معاً.

يبقى أن لفظة اغتراب بمعنى الهجرة يصعب إيجاد مقابل لها في اللغات الأجنبية. وما يقابلها بالفرنسية والإنكليزية أي *Aliénation* مصطلح فلسفي يعني الاستلاب. وهو مفهوم هيغلي – ماركسي يؤدّي معنى الغربة الخارجية، وفيها انقطاع مع الأهل، والغربة الداخلية، أي الغربة عن الذات[1]. والاغتراب بالمعنى الفلسفي يعني ببساطة عيش الغريب الطارئ على مجتمع ما. ولفظة أليانوس في اللاتينية تعني المختلف والغريب. فمصطلح المستلَب (المغترب) لا يذكّرنا بأي شخص آخر سوى بشخص يتّصف بطابع الغريب عن الخطّ السوي والعادات الاجتماعية الخاصة بمجتمع ما[2].

ويميّز الباحثون في الهجرة اللبنانية غالباً بين أربعة أنواع من القضايا الاغترابية: الأوّل الاغتراب إلى أميركا وأوستراليا الذي هو نهائي ودائم. والثاني إلى أفريقيا وهو مؤقت ولو طال. والثالث إلى الخليج وهو وجيز ووسيط. والرابع إلى أوروبا وهو اغتراب خاص يجمع بين المؤقت والظرفي. ويُخشى أن يتحوّل

1 – العقل، م. ن، ص 39.

2 – جوليا، ديديه، قاموس الفلسفة، ترجمة فرنسوا أيوب، باريس، دار لاروس، ط1، 1992، ص 33/4.

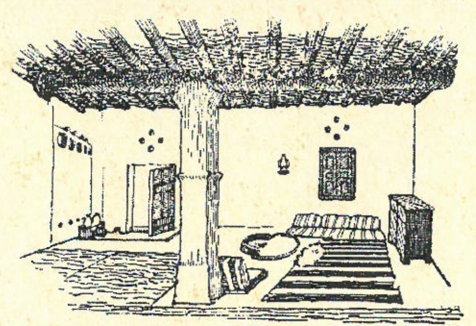
إلى دائم[1].

وثمّة تحديدات أخرى، لعلّها أقدم من هذه الأخيرة. فالدكتور جميل جبر مثلاً يميز بين ثلاثة أنواع من الاغتراب:

1 – الاغتراب الدائم كما في أستراليا وأميركا.

2 – الاغتراب المؤقت وتحتّم مداه الزمني طبيعة المجتمع والمناخ وظروف العمل كما هي حال المهاجرين إلى أفريقيا، وبعض البلدان العربية.

3 – الاغتراب المهني وهو انتقال اللبنانيين للعمل في البلدان العربية وغيرها بموجب عقود عمل أو لمدة محدودة وهذا الاغتراب يقرب من تصدير الخدمات[2].



علّية من الداخل

1 – العقل، م. س، ص 32.

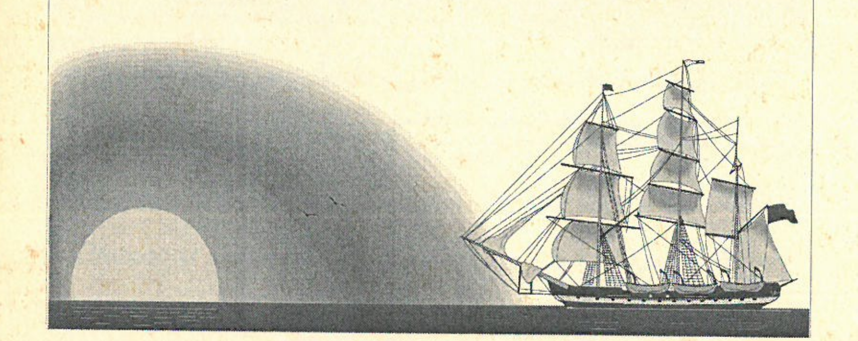
2 – جبر، د. جميل، الاغتراب اللبناني، نظرات مستقبلة، ضمن كتاب الهجرة: مسألة لبنانية؟ الكسليك/لبنان، جامعة الروح القدس، ط1، 1973، ص 70.



عرزال الناطور وخيمته

الفصل الرابع

المغتربون ومسألتي الهوية والانتماء





ميخائيل نعيمة ووفد من الجاليّة اللبنانيّة – السوريّة على درج البيت الأبيض، يعرضون هدية الجالية في البرازيل إلى رئيس الولايات المتّحدة ودرو ولسن، تقديراً لجهوده في مؤتمر الصلح/فرساي 1919

المغتربون وأزمة الهوية

يطرح كتاب الخوري خرباوي، منذ البداية والعنوان، مشكلة لا يزال المهاجرون يعانون منها إلى اليوم. إنها أزمة الهوية. فالكتاب لا يتحدّث إلا عن سوريا والمهاجرين السوريين إلى أميركا. فهل يعني ذلك من المؤلّف موقفاً قومياً إيديولوجياً معيناً؟!.

ليس بالضرورة. فلا يغربنّ عن البال أننا في سنة 1913. وجبران المعاصر لخرباوي، كان هو أيضاً يتحدّث عن سوريا. ولا بد هنا من إيضاح بعض الأمور التاريخية، فصفة اللبناني، لم تقترن بالمغترب المهاجر من لبنان، إلا بعد الحرب العالمية الأولى. إذ إن دوائر الهجرة في الدول الجاذبة سجّلت القادمين الأوائل إليها من بلاد سوريا ولبنان وفلسطين في هويات متعدّدة، وتحت أسماء مختلفة. فسجّلوا كأتراك *Turko* لأنهم ولدوا داخل السلطنة، أو كعرب Arabes لأنهم يتكلّمون العربية، أو كسوريين *Syrios* لأنهم قدموا من ولاية سوريا، أو كعثمانيين *Otomanos*،

لأنهم رعايا عثمانيون ويحملون هذه الجنسية[1].

وساهمت أسباب أخرى في تعدّد التسميات هذه، أحدها أن المهاجرين هؤلاء، عند وصولهم إلى الموانئ الأجنبية كانت تُترك لهم حرية التصريح عن الجنسية التي يحملون. أو كانوا يكتفون بتسليم جوازات سفرهم التركية، ويتركون للموظفين حرّية التصرّف[2].

وكان المهاجرون يُعرفون بلقب توركو Turco. وكانوا يستاؤون من تلك التسمية، لأنهم ليسوا في الواقع أتراكاً بل هاربين من جور الأتراك. فذلك اللقب كان يوقظ في أذهانهم ذكريات مريرة[3] وكان استعمال هذه اللفظة يفيد الإهانة والاحتقار، ويعني، فيما يعني، الازدراء والكره والدعاية الساخرة والافتراء الذميم[4].

ويقول الأديب المهجري جورج صيدح (1893 – 1978) أن لقب توركو التحقيري يعود إلى مظهر المهاجرين الأوائل الزري

---

1 – جمعة، هيثم، الهجرة اللبنانية واقع وآفاق، تقديم الرئيس نبيه برّي، بيروت، ط1، 2002، ص 89.

2 – العقل، م. س، ص 400.

3 – صيدح، جورج، أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية، طرابلس، مكتبة السائح، ط4، 1999، ط1، 1956، ص 77.

4 – الملاح، الهجرة، م. س، ص 182.

ومهنتهم الدنيئة الكشة[1] [البائع المتجول حامل الكشة]. ويقول الشاعر القروي في ذلك:

كُن بينَهُم جلّ الزمان — تظلّ توركو محتقَرَ

حتى العبيد السود قد — سخروا بنا مع مَن سخَر[2]

كما يقول في قصيدة أخرى:

أنتَ مَن أنتَ أيها الراكب التمبيل — والعجب بين ركبيه راكب

أنت توركو ولو وطئت الثريا — وأقمت السهى ببابك حاجب

مستضام مهما اعتززت فقير — ولئن شِدْتَ ناطحاتِ السحائبِ[3]

وقد عانى المهاجرون اللبنانيون والسوريون من التمييز العنصري أينما كانوا وحلّوا. فوصفهم مثلاً بعض الكتّاب البرازيليين بطرق لاذعة "وسخون يرتدون ثياباً رثّة وبالية" وزعموا حتى أنهم أكلة لحم بشري، فنشرت جرائد مدينة كامبوس في البرازيل مثلاً أن اثنين من التوركو كانا يأكلان ولداً في إحدى الغابات، وعندما سمعا وقع أقدام أركنا إلى الفرار تاركين في المكان آثار الجريمة من لحم ودم. فانتشر الخبر واتّهم المهاجرون العرب بأكل اللحوم البشرية (...) وعندما جرى التحقيق بهذه الرواية، تبيّن أن الآثار المزعومة لم تكن سوى

---

1 – صيدح، م. س، ص 77.

2 – الملاح، م. س، ص 182.

3 – صيدح، م. س، ص 79.

معلاق خروف[1]. كل هذه الأسباب والأحداث وغيرها كثير جعلت المهاجرين اللبنانيين والسوريين يرفضون الهوية التركية ولقب تركي. ولم يكن لقب عربي، كما يقول الأديب المهاجر ميخائيل نعيمة (1889 – 1988)، بأحسن حالاً. فاصطلح المهاجرون، لا سيما في أميركا الشمالية على تعريف أنفسهم أنهم سوريون، دون أن يعني ذلك، يضيف نعيمة، أن اللبناني تخلّى عن انتمائه.

يقول نعيمة بلفظه «حار المهاجرون في بدء هجرتهم إلى أي الأمم ينتسبون. فهم بتبعيتهم أتراك، وبلسانهم عرب. ولكن كلمة تركي كانت تنطوي في أذهان أهل البلاد على شيء من الإهانة والتحقير. ولم تكن أفضل منها بكثير كلمة عربي. فاختاروا أن ينتموا إلى سوريا، لأنها القطر الأكبر من الأقطار الثلاثة التي نزحوا عنها. وهي لبنان وسوريا وفلسطين. ولأن اسمها قديم ومعروف. أما في علاقاتهم، بعضهم ببعض، فما كان اللبناني يتخلّى عن لبنانه، ولا الفلسطيني عن فلسطينه»[2].

وهذا ما جعل تسمية سوري تظهر منذ نهاية القرن التاسع عشر[3] لتختفي نهائياً تسمية العثماني والتركي إثر هزيمة

1 – الملاح، م. س، ص 182، نقلاً عن مجلة المشرق 1898.
2 – نعيمة، ميخائيل، سبعون، حكاية عمر، المرحلة الثانية 1911 – 1932، بيروت، مؤسسة نوفل، ط6، 1983، ص 197.
3 – الملاح، م. س، ص 182، نقلاً عن مجلة المشرق 1898.

الأتراك في الحرب العالمية الأولى. وانسحابهم بالتالي من لبنان وسوريا وفلسطين. وبعد اقتسام الولايات العثمانية السابقة بين الدولتين المنتدبتين بريطانيا وانكلترا وفقاً لاتفاقية سايكس بيكو، شاع انتشار جنسيات الدول المستحدثة.

والهوية اللبنانية، لم تطبع تنظيمات اللبنانيين وجمعياتهم إلا بعد الحرب العالمية الأولى. أما قبل هذا التاريخ فكانت جمعيات المغتربين تندرج تحت أسماء متعدّدة، منها النوادي الشامية والنوادي السورية، والنوادي السورية–اللبنانية. ونوادي وجمعيات باسم مناطق وطوائف مختلفة. وقد تناولنا، في كتاب لنا، مسألة الهوية اللبنانية هذه عند اللبنانيين المقيمين والمغتربين، إثر الحرب العالمية الأولى، ومطالب جمعياتهم وأحزابهم ومذكّراتها إلى مؤتمر الصلح في فرساي[1]. فالرابطة السورية – اللبنانية مثلاً والتي كانت تضم جبران خليل جبران وأمين الريحاني وميخائيل نعيمة وترأسها د. أيوب ثابت، الرئيس اللاحق للبنان، طالبت بالانتداب الفرنسي على كل سوريا، ورفضت حكم الأمير فيصل محتجّة بأن السوريين ليسوا عرباً[2]. أما جمعية النهضة اللبنانية التي أسّسها وترأسها نعوم مكرزل في

1 – صليبا، لويس، أمين صليبا مفكّر مسيحي طالب بالإسلام ديناً للدولة، بيبلوس، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2005، فصل مذكرات الأحزاب اللبنانية والسورية إلى مؤتمر الصلح، ص 65 – 73.
2 – م.ن، ص 68 – 70.

نيويورك فطالبت باستقلال لبنان وتوسيع حدوده[1].

وهذا التضارب في المطالب يعطي فكرة عن تطور الوعي السياسي والثقافي المشبع بالأفكار القومية المختلفة من عربية وسورية ولبنانية عند المهاجرين اللبنانيين.

وكما عُرف المغتربون اللبنانيون في الأميركيتين وعرّفوا عن أنفسهم بداية بِ : السوريين لتجنّب لقب "تركو" المسيء لهم، عُرفوا في مصر بالشوام. وقد قبلوا هذا اللقب، ولم يروا فيه أية إساءة. يقول د. مسعود ضاهر في كتابه، الهجرة اللبنانية إلى مصر:«أما تعبير الشوام في دراستنا فتقتصر دلالته فقط على مساحة جغرافية وفد منها المهاجرون إلى مصر، وكانت لهم سمات متقاربة في المأكل والملبس واللهجة والعادات والتقاليد وسواها. فأطلق عليهم المصريون تسمية الشوام لتمايزهم عن جاليات أخرى كثيرة سكنت مختلف أرجاء مصر وتفاعلت مع شعبها. فالشوام بهذا المعنى تعبير اصطلاحي يطلقه سكّان البلد الذي يؤمّه المهاجرون، فيتقبّلوه طوعاً دونما حاجة إلى رفضه أو الاحتجاج عليه، ولا يشكّل أية إساءة لهم» [2].

وفي مكان آخر من الدراسة يحدّد، بشكل أدقّ، مدلولات تعبير الشوام فيقول:«كانت غالبية المهاجرين الشوام مسيحية

1 - م.ن، ص 72/3.
2 - ضاهر، مسعود، الهجرة اللبنانية إلى مصر، هجرة الشوام، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ط1، 1986، ص 14 - 15.

بصورة عامة، ولبنانية إلى حدّ كبير»[1].

ويضيف «يقال أن الهجرة كانت دوماً ذات طابع مسيحي. هذا القول صحيح، إلى حد كبير، في الهجرات الأولى، سواء إلى مصر أو إلى أميركا أو إلى أفريقيا أو إلى أستراليا وباقي البلدان»[2]. وما يقوله مسعود ضاهر عن الهجرة إلى مصر، ينطبق على الهجرة إلى أميركا إلى حد بعيد. فغالبية المهاجرين إليها والذين عُرفوا أو عرّفوا عن أنفسهم أنهم "سوريون" في أميركا، مقابل الشوام في مصر، كانوا مسيحيين بصورة عامة ولبنانيين إلى حد كبير. وتعبير سوري في ذهن المواطن الأميركي، والمهاجر كذلك، يشير إلى المسيحيين في الغالب.

المغتربون ومسألة الانتماء

ولكن أزمة الهوية ليست المشكلة الوحيدة التي عانى منها المغتربون اللبنانيون، فثمّة مسألة لا تقلّ عنها أهمية، أنها مسألة الانتماء وازدواجية الولاء.

وقد عبّر الشاعر المهجري نسيب عريضة (1887 - 1946) عن الازدواجية هذه، بطريقة شاعرية رائعة تدلّ على عمق

1 - ضاهر، مسعود، الهجرة اللبنانية إلى مصر، هجرة الشوام، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ط1، 1986، ص 14 - 15.
2 - م.ن.

المشكلة عندما أنشد:

أنا المهاجرُ ذو نفسين واحدةٌ   تسيرُ سيري وأخرى رهنُ أوطاني[1]

ويذكر مؤلّفنا خرباوي هذه المشكلة في مواضع عديدة. ويحاول تحليل أسبابها. فهو مثلاً يشير إلى قدرة التطبّع والتأقلم السريعة عند المهاجر، ويعتبرها من مناقبه. ولكن سرعة التأقلم هذه لها وجه سلبي، برأيه، إذ تؤدّي إلى ضياع الهوية. يقول:«وفي السوري مزية تساعده على النجاح وتقدّره على الفلاح في ديار الغربة، وهي أنه مع نشاطه وثباته وذكائه، على ما ذكرنا، لديه الخلق يسهل انطباع العادات الجديدة في نفسه (...) فإذا أقام في أميركا، أو غيرها تخلَّق بأخلاق سكّانها، حتى تشكّ إذا عاشرته أو عاملته في أنه وطني بحت»، (ص 786). ولكن خرباوي يسارع إلى التعقيب بأسى على ذلك، فيضيف:«غير أن هذه المزية هي أيضاً من البواعث المؤدية إلى ضياع الجنسية، وهي التي يخشى على السوريين في أميركا منها. وقد بدت طلائع الاندماج بالأميركيين تبدو فيهم»، (ص786). وقد أثبتت الأيام أن تخوّف خرباوي كان في محلّه. فسرعة التأقلم والتكيّف التي يتمتّع بها المهاجر اللبناني في أميركا وغيرها خفّفت من تعلّقه بوطنه الأم وأدّت أخيراً إلى استقراره

1 – السرّاج، د. نادرة جميل، نسيب عريضة، الشاعر، الكاتب، الصحفي، دراسة مقارنة، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1970، ص 173.

الدائم في المهجر.

ويشير خرباوي إلى أن أوائل المهاجرين كانوا يفكّرون بجني الأرباح والعودة – السريعة إلى الوطن. يقول: «ولم يكن فكر التوطّن يخطر على بال المهاجرين الأوّلين. بل كان كل اهتمامهم منصرفاً إلى جمع مبلغ من الدراهم، في أية حالة كانت، وبأقصر ما يمكن من الزمن، والرجوع إلى الوطن. ولهذا فلم يكونوا ذوي اهتمام بالتجارة الأصوليّة، أو الزراعة، أو غير ذلك»، (ص 772).

وهذا في الواقع حال غالبية المهاجرين، عند استعدادهم للسفر. فهم، بداية، يعزّون أنفسهم بفكرة العودة السريعة، ويبنون قصوراً في الأحلام، عن نجاح منتظر يعودون بعده إلى بلادهم. يقول خرباوي في ذلك:«وقبل أن ترسو السفينة في المرفأ كان كل المهاجرين السوريين يفكّرون في جعل المدّة التي سيصرفونها في **بلاد الذهب** قصيرة، ليعودوا بعدها إلى الوطن»، (ص 774).

ويعبّر فؤاد سليمان عن رغبة العودة هذه عند كل لبناني عزم على الهجرة. بطريقة شاعرية رائعة في حوار يتخيّله بين هذا الأخير وأمه:

"إلى أين يا كنزي الغالي إلى أين؟!"

– في البحر يا أماه حكاية رائعة.. جبال من اليواقيت، مرصودة

على وجهي، في غد أعود إلى قلبك ومعي أكداس منها، ومعي صبيّات حلوات»[1].

ولا يقلّ الحوار الذي يتخيّله بين المسافر والأرض عن الأول روعة ودلالة:

« - إلى أين يا فلاح الخير يا دافق البركات في صدري؟ إلى أين؟

- في البحر يا أرض، في البحر حكاية رائعة، جبال من اليواقيت مرصودة على وجهي... كروم من الزمرّد معلقة فيها العناقيد.. غداً أعود بالتراب الذهبي إلى ترابك... غداً أعود بعناقيد الزمرّد فأعلّقها في دواليك[2]».

بلاد الذهب، وفق تعبير خرباوي، ومغاور الزمرّد والياقوت وفق تصوير سليمان، والحكاية/الأسطورة تنمو وتنتشر، فيفرغ الجبل، وتيبس الكروم.

ويشير خرباوي إلى حنين العودة الذي بقي مستفحلاً في الأجيال الأولى من المهاجرين، يقول:«وفي مجتمعاتهم إذا شرب أحد القهوة مثلاً في بيت أحد أصحابه، كانت كلمة الشكر التي يقدّمها للمضيف: "برجوعك إلى الوطن إن شاء الله".

فيجيبه هذا بقوله: "برفقتك يا سيدي"»، (ص 774).

1 - سليمان، فؤاد، درب القمر، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ط2، 1995، ص 64.

2 - م.ن، ص 64/5.

وأذكر شخصياً أن هذا بالتحديد ما كنا نقوله، في الغربة، عندما يستضيفنا أحد المواطنين. والدعاء هذا، نادراً ما كان يستجاب.

ولكن ما الذي قلب الأحوال وأطفأ جذوة الحنين؟ إنه النجاح ولذّة الحريّة التي ذاقها المهاجرون، والتي تفتقر إليها بلادهم. يقول خرباوي:«ولكن لمّا ذاقوا لذّة الحرية ورأوا فرص النجاح سانحة لهم (...) عدلوا عن فكرة الرجوع، ومالوا إلى البقاء (...) فاشتروا الأملاك (...) وعدد كبير منهم تجنّسوا بالجنسية الأميركية»، (ص 822).

إلى ما أدّى هذا الاندماج؟ إلى ضياع اللغة الأم. يقول «ولو بقيت اللغة العربية تربطهم بذوي قرباهم في الوطن، لكان يوجد بارق أمل بذلك. أما وقد أعدم ذلك الرابط، وحلّت اللغة الإنكليزية، محل العربية، في غالب البيوت والعائلات السورية، حتى والتي معظم أفرادها من مولودي سوريا، فلا أمل بعودة المهاجرين، ولا نسلهم» (ص 822/3).

وشهادة خرباوي هذه تكتسب أهميتها في أنها تأتي من داخل عالم الاغتراب، وتصف حاله وضياع لغته الأم في وقت مبكر نسبياً، أي بداية القرن العشرين. ونرى أن خرباوي محقّ في تشخيصه للمشكلة. فضياع اللغة الأم كان العامل الحاسم في ضياع الانتماء والتعلّق بالوطن الأم. وفي ذلك تقول الباحثة

د. نجوى نصر:«أمام أزمة سببها الصراع بين الانتماء وبين الصدمة الثقافية، كافحت الأجيال الأولى من المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأميركية في سبيل الاحتفاظ بلغتها الأم سلاحاً للبقاء. ولكن الأجيال المتعاقبة لم ترزح تحت هذا الحمل الضميري، لأن العامل اللغوي ليس بضاغط... وهكذا فقدَ أفراد الأجيال الثانية كل اهتمام في ثقافة تراثهم، لأنهم لا يجدون في أي منها فائدة مباشرة لمسيرتهم الحياتية»[1]. فشهادة خرباوي هنا تؤكد تحليل د. نجوى نصر ونظرتها. فحقبته هي حقبة الأجيال الثانية، وأبناء المهاجرين الذين لم يروا فائدة، ولا مصلحة، من تكبّد مشقّة تعلّم العربية. وماذا كان بنتيجة كل ذلك، مزيد من الاندماج والانتماء إلى بلد المهجر، على حساب الصلة بالوطن الأم، والرغبة في العودة إليه. يقول خرباوي في شهادة حيّة واقعية وتاريخية:«ومَن دقّق البحث في كيفية معيشة السوريين في الولايات المتحدة. ودرس أميالهم وأفكارهم. لوجد أنه لا يوجد عشرة بالمئة يخطر على بالهم فكر العودة إلى الوطن القديم. ومن عاد منهم إليه لا يستقرّ به المقام، أشهراً معدودة، حتى يعود برفقة أقاربه وأصدقائه. وهو يقسم بألا يعود ثانية إلى ذلك الوطن التاعس بحكومته»، (ص 823). وقد أثبتت الأيام صوابية شهادة خرباوي وواقعيتها، لا سيما فيما يخصّ مسألة العودة. وفي ذلك

1 - جمعة، م. س، ص 28.

يقول الشاعر المهجري جورج صيدح (1893 - 1978) في كتاب صدر 1956:«هجر لبنان مليون من أبنائه. ومضى قرن كامل على هجرتهم. فلنسأل كم كان عدد الناجحين من المليون؟ واحداً في المئة. وكم كان عدد العائدين؟ واحداً في الألف»[1].



جورج صيدح (1893 - 1978) في آخر صورة له

1 - صيدح، م. س، ص 12.

وصيدح يتّفق مع خرباوي بأن الهجرة ليست نزهة وسياحة قصيرة، يجني بنتيجتها المسافر الأموال ويعود بها إلى وطنه. يقول: إن دعاة الاغتراب عن الوطن يفترضون الهجرة سياحة مؤقتة، هدفها الاستفادة من تراث الأرض الغريبة. ومن علوم سكّانها، ثم العودة إلى الدار للتمتّع بالفائدة الحاصلة. وهم يفترضونها أيضاً مفلحة على طول الخط. كأن وراء كل سعي حثيث نجاحاً مؤكّداً ينتظره».

ويعقّب صيدح على ذلك:«ما أبعد هذا الافتراض عن واقع الهجرة الذي نعيشه»[1].

ولكن صيدح يختلف مع خرباوي في الصورة التي يرسمها للمهاجرين وأحوالهم المادّية والمعيشية، فإذا استثنينا الناجحين، والذين لا يتخطّون كما قال 1%، «فالباقون لا يزالون في المهاجر يدافعون أشباح الفاقة والعوز في أعمال تستنزف العافية والشباب. ولا تفتح باباً للرجاء بحياة أفضل. إن وراء كل مثرٍ عظيم يعود إلى وطنه، بالجيب العامر وبسيارة فخمة، مئة من الفاشلين، يقاسون شظف العيش، ويمارسون أحطّ المهن، تمنعهم كبرياؤهم من العودة إلى ديارهم فقراء أذلّاء»[2].

وهذه اللوحة القاتمة التي يرسمها أديب عاش الهجرة

1 – م.ن.
2 – صيدح، م. ن.

وعايش ويلاتها تدعو إلى التأمل والتفكّر والمقارنة مع الصورة التي يقدّمها لنا خرباوي في هذا الكتاب. والتي تبدو، أمام لوحة صيدح، مشرقة متفائلة.

ويشير خرباوي. إلى واحدة من كبريات سيئات المهاجر. أو بالأحرى مزية ذات وجهين. فهو بمبادرته الفردية واعتماده على نفسه حقّق الكثير من النجاحات. ولكن الوجه الآخر لهذه النزعة الفردية هو انعدام التضامن الاجتماعي. يقول:«فالسوريون أقوياء بأفرادهم، ضعفاء بمجموعهم. فلو وجدت فيهم فضيلة الاتّحاد لأضحوا قوّة يخشى بأسها. وجعلوا العالم بأسره يشعر بتلك القوّة»، (ص787).

وهو تشخيص صحيح. فداء النزعة الفردية لما يزل من أكبر الآفات التي يعاني منها اللبنانيون مقيمين ومغتربين. وهؤلاء الأخيرون ينفعلون ويتفاعلون مع كل الانقسامات والصراعات السائدة في مجتمع المقيمين. فتنعكس عليهم انقساماً وتزيدهم تشرذماً. وذلك عوض أن يعكسوا على الداخل شيئاً من الوحدة والتضامن. وفي ظلّ هذه الآفة يبقى الحديث عن لوبي للبناني الانتشار نوعاً من أضغاث الأحلام. ذاك كان اختباري في الاثنتي عشر سنة التي عشتها في المهجر. إذ إن أقل مشكلة أو احتكاك داخل المجتمع اللبناني، بل وحتى داخل الطائفة والشريحة الواحدة من المجتمع، ينعكس انقساماً وعداءً وصراعاً على

المغتربين.

وإلى هذه النزعة الفردية المتطرّفة وانعدام التضامن، يذكر خرباوي آفة أخرى يعاني منها المهاجر. يقول:«ويمتاز السوريون بحسن معاملتهم للأجانب، وسوء معاملتهم مع بني جنسهم. فإذا ابتاعوا من الأجنبي دفعوا له في الغالب لدى الاستحقاق. وإذا اشتروا من مواطنيهم ماطلوا في الدفع وسوّفوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً»، (ص 791). وهذه الشائبة، أعتقد أن اللبنانيين يتشاركون فيها مع سائر العرب. أو على الأقل هذا ما كان انطباعي أثناء العمل التجاري في المهجر لسنوات عديدة.

هذه الجوانب القاتمة والرمادية، لا يجب أن تحجب جوانب مشرقة من الاغتراب اللبناني، لا سيما في مجال الانتماء والتعلّق بالوطن الأم. والذي نحن بصدده هنا.

فالأدب المهجري، وهو واحد من أكثر وجوه الاغتراب اللبناني إشراقاً، مليء بعواطف التعلّق بالوطن والحنين والاعتزاز بالانتماء إليه. وكذلك فالجمعيات الاغترابية اللبنانية، والتي سبقت الإشارة إليها، لعبت دوراً فاعلاً من أجل استقلال لبنان. ومآثر المغتربين في هذا المجال لا يحصرها العدّ. ولداود بركات كلمة جدّ معبّرة عن مدى تعلّق المهاجرين بوطنهم وجهادهم في سبيله يقول:«لو قطعوا رؤوسنا، في المهجر

لَتَدَحْرَجَت إلى لبنان»[1].

ولا يمكن أن ننكر أن الكثير من المغتربين عرفوا كيف يوفّقون بين حبّهم لبلد إقامتهم وتعلّقهم وإخلاصهم للوطن الأم. فأعطوا كل ذي حق حقّه، أو حاولوا ذلك جاهدين. أما اللبنانيين أصحاب الجنسيات المزدوجة وحاملي جوازات سفر من دول غربية، فهم في الغالب يعانون من ازدواجية الانتماء. فشخصيتهم الأساسية *Personalité de base* لبنانية لا لبِس فيها. وكثيراً ما يكون جوازهم الغربي نوعاً من تسهيل مرور *Laisser passer*، لتيسير سفرهم وأعمالهم، وما يتطلّب ذلك من إجراءات قانونية وإدارية... الخ.

اللبناني في انتمائه وقوميّته مرن إجمالاً، وغير متعصّب أو متطرّف *Chauviniste*. تلك كان ميزته منذ بداية الهجرة الحديثة، ولمّا تزل. يقول المؤرخ/المغترب فيليب حتي في ذلك:«ولكن احتفاظ المهاجر بولائه إلى وطنه الأم والإبقاء على صلاته القديمة بأهله ومواطنيه، لم يحل دون القيام بواجباته كمواطن في وطنه الجديد. فإن اللبناني المهاجر لم يكن يشعر بالقومية الجارفة العنيفة التي يشعر بها القوميون في عهدنا هذا. فكان من اليسير عليه أن يشعر أنه مواطن، ومواطن مخلص، في البلد الذي كان يهاجر إليه. فإن الليونة والمرونة وحسن التكيّف التي يتميّز بها

1 – الملاّح، م. س، ص 210.

اللبناني جعلته رجلاً عالمياً. ففي مصر أصبح مصرياً، وفي فرنسا أصبح فرنسياً وفي أميركا أميركياً. وذلك في زمن لم يكن يشعر اللبناني بعد أنه لبناني»[1].

ولرئيس ساحل العاج الراحل هوفوي بوانيه رأي لافت في الهوية والانتماء يقول:«إن جنسية الفرد لا تُحدُّ بمكان ولادته فحسب، وإنما بمدى الحب الذي يكنّه للأرض التي يعيش عليها»[2].

وهو قول يربط الهوية بعاملين: الأصل أو بلد المنشأ، والأرض التي يعيش الإنسان عليها. وكثيرون هم اللبنانيون المغتربون الذين اختاروا الاثنين معاً، ولم يؤثروا واحداً على حساب الآخر.

وغالباً ما كان اللبنانيون محطّ إعجاب. أهل دول الاغتراب والمسؤولين فيها. فالخوري خرباوي ينقل في كتابنا هذا عن أحد الكهنة الأميركيين قوله له:«إنني لا أتعجّب إذا رأيت رئيس الولايات المتحدة سورياً بعد مضي خمسين سنة. إذا دام السوري على ما هو عليه من الاجتهاد والنشاط والتقدّم السريع»، (ص 784). ويعقّب خرباوي على ذلك:«وبالحقيقة إن السوري يدرك في ديار الغربة بمدة عشرين سنة ما لا يدركه غيره بخمسين أو

---

1 – حتي، د. فيليب، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة أنيس فريحة، بيروت، دار الثقافة، 1985، ص 579.

2 – جمعة، م. س، ص 30.

ثمانين سنة. والعيان أفضل شاهد». أما نبوءة الكاهن الأميركي فقد تحقّقت في بعض دول أميركا الجنوبية. وجبرائيل طربية الذي نعرض نبذة عن حياته في الملحق كان رئيساً للحكومة في كولومبيا. وقد أثنى على اللبنانيين وعلى أدوارهم العديد من الساسة العرب. يقول الأمير محمد علي توفيق سليل الأسرة الملكية المصرية:«إن المهاجرين اللبنانيين فتحوا العالم الجديد. ونقلوا إليه لغتهم وعاداتهم ومعتقداتهم. وأسّسوا ما وراء الأوقيانوس عالماً عربياً جديداً»[1].

ولشكري الخوري، رأي ملحوظ في جريدة "أبو الهول" في هذا الصدد «لو كان للقمر طريق لكنت ترى لبنانياً حاملاً كشّته[2] صاعداً إليه، وخلفه لبنانياً شكّ دواته في زنّاره لينشئ مدرسة أو جريدة في القمر»[3]. التاجر والمربي/الأديب الوجهان الأكثر شهرة للبناني المغترب. ويتناول خرباوي في كتابه كِلا الوجهين كما سنرى.

---

1 – الملاّح، م. س، ص 242.

2 – الكشّة: صندوق كبير، يحمل غالباً على الظهر. يضع فيه المهاجر/البائع المتجوّل ما يأتمنه التاجر عليه من لعب ودبابيس وأقشاط وكشاكش وصابون وعطور وغير ذلك. ويطوف بها على المنازل طارقاً أبوابها عارضاً سلعه بالإيماء والإشارة على ربّات البيوت. وغالباً ما كان يقصد القرى البعيدة والنائية بحثاً عن زبائن لا يجدهم في المدن، حاملاً كشّته التي يمكن أن يتراوح وزنها بين 50 و 100 كلغ».

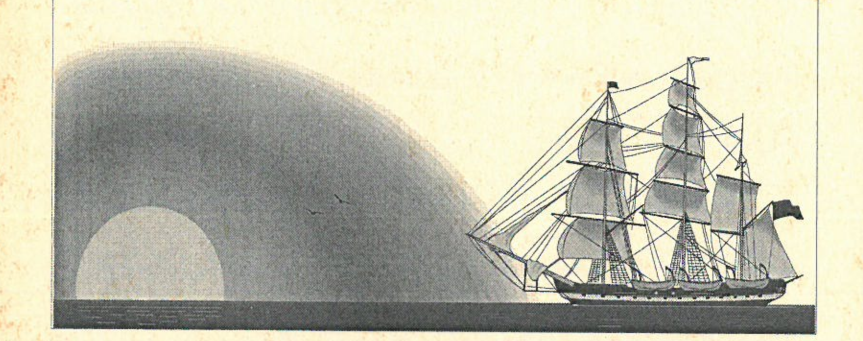
3 – صيدح، م. س، ص 19.



المهاجر اللبناني وبجانبه صندوق الكشّة، نصب تذكاري في سان باولو/البرازيل

الفصل الخامس

لبنان والاغتراب في أدب المهجر



مواضيع الفصل الخامس:

- أدب المهجر أبرز مفاخر المغتربين
- لبنان في أدب المهجر

  الحنين في أدب جبران

  الشوق في شعر القروي

  رشيد أيوب والمثوى الأخير

  ندرة حدّاد والصبوة للأهل

  إيليا أبو ماضي وجبال لبنان

  رياض المعلوف والكوخ الأخضر
- صورة المغترب في أدب المهجر
- أدب المهجر: الذروة والأفول

أدب المهجر أبرز مفاخر المغتربين

يتناول خرباوي في كتابه أبرز نشاطَين للمهاجرين: التجارة والأدب. ولكننا نراه يركّز غالباً على التجّار. في حين يمرّ على الأدباء مرور الكرام. وسبب تركيزه على التجّار محض نفعي مادي، إذ يبدو أن تجّار الجالية السورية هم مُمَوّلوا طباعة كتابه. والكتاب يُفتتح بإهداء إلى عدد من التجّار، ويُختتم بمجموعة من الإعلانات لمحالّ ومتاجر أبناء الجالية. وقد أسقطنا في طبعتنا هذه الإعلانات المذكورة، والتي تمتدّ على عشرات الصفحات، إذ لا ضرورة لها.

فطبيعي والحالة هذه، أن يخصّ خرباوي تجّار المهجر الأميركي بلفتة، أو بالأحرى مجموعة لفتات كريمة. ونظنّ أنه بالغ في ذلك، فملأ صفحات كتابه بصور التجّار هؤلاء، استدراراً لكرمهم وطمعاً بتمويلهم.

أما أدب المهجر والأدباء فيمرّ عليهم مرور الكرام. فهو يكتفي بمجرّد ذكر أسماء نوابغ وقمم الأدب العربي في عصره: جبران خليل جبران وأمين الريحاني ورشيد أيوب.

ويغفل ميخائيل نعيمة ونسيب عريضة. في حين يقرّظ ويشيد بأدباء وكتّاب طواهم النسيان اليوم كَ أسعد الملكي مثلاً الذي يقول عنه «كتاباته هي الدرّ المنظوم، والسحر الحلال»، (ص 838). وعجُبنا من هذه المدائح التي تكال بلا حساب يبطل عندما نعلم أن المذكور تاجر (...) فخرباوي في كتابه هذا يذكّر بشعراء العرب المدّاحين مستثيري كرم ممدوحيهم وجودهم.

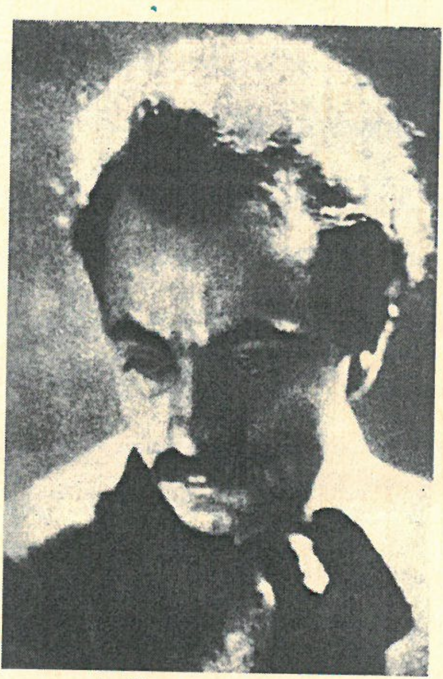
ومن الفوائد الأدبية التي يذكرها أن المهجر سوق للكتاب العربي. يقول:«إن المهاجرين في الولايات المتحدة وحدها يستجلبون من سوريا كتباً كل سنة بما تبلغ قيمته الخمسة آلاف دولار. وقس على ذلك سائر المهاجر الأخرى. وقد قال لي خبير أنهم لا يباشرون في سوريا بطبع كتاب، إلا إذا كانوا على ثقة أنه يصادف رواجاً في المهجر»، (ص820).

والخلاصة أن كتاب خرباوي مجحف بحق أدب المهجر، رغم أنه كان شاهداً على بواكير هذا الأدب. ولا يستطيع الباحث أن يستخلص منه الشيء الكثير في هذا المجال. ولسنا في دراستنا هنا في وارد سد هذه الثغرة. فالدراسات التي تناولت أدب المهجر عديدة ومتوفّرة. ويمكن للقارئ العودة إليها في مكتبة البحث/لائحة المصادر. ولكننا، ومن ناحية أخر، لا

نستطيع أن نمرّ مرور الكرام على ظاهرة، هي برأينا ورأي الكثيرين، أبرز وأهم ما أنتجه لبنان المغترب: أدب المهجر. وما كان لهذا الأخير من أثر فعّال في نهضة الأدب والفكر العربي وحركة التجديد فيه. يقول المؤرخ/المغترب د. فيليب حتّي في مستهلّ حديثة عن أدب المهجر:«وحيثما ذهب اللبناني، كان يحمل معه مطبخه وكنسيته ومطبعته»[1]. وهي ملاحظة واقعية صحيحة، تنطبق على مختلف بلدان الاغتراب. فالمطبخ اللبناني غدا اليوم من أشهر المطابخ العالمية. تنتشر مطاعمه في غالبية البلدان. وأول ما تبنيه المجموعات الاغترابية وتجتمع فيه كنيسة. ولكن موضوعنا هنا أدب المهجر.

وأبرز وجوه هذا الأدب هو، بدون شك جبران خليل جبران (1883 – 1931)، وسائر رفاقه في الرابطة القلمية. ويقول عنه الأديب المهجري جورج صيدح أنه كان في زمنه كالمتنبي في عصره: مالئ الدنيا وشاغل الناس.

1 – حتي، د. فيليب، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة أنيس فريحة، بيروت، دار الثقافة، 1985، ص 580.



جبران: عبقريّة جسّدت رسالة وطن

ولا أغالي إذا قلت أن جبران أمّة في رجل. فقد اختصر وطنه في أبعاده الإنسانية وتراثه الروحي والصوفي العميق. بل وحتى فاق وطنه شهرة. وهذا ما تحقّقتُ منه بنفسي خلال إقامتي الطويلة في الهند. إذ كنت أينما رحلت أو حللت في شبه القارة الهندية أسلّف همّاً عند الإجابة على السؤال التقليدي والذي يتكرّر يومياً عشرات المرّات: من أي بلد أنت. فغالباً ما كنت أجد سائلي لم يسمع أبداً بلبنان. فكان عليّ أن أجيب على سيل من الأسئلة التي تتلو: أين هو هذا البلد؟ في أية قارّة.. الخ. حتى

اهتديت إلى جواب يوفّر عليّ مشقّة الكثير من الشرح. إذ كنت أبادر سائلي بالقول: هل تعرف جبران خليل جبران. وغالباً ما كان يجيب بنعم. فأردف أنا من بلد جبران خليل جبران. فيعقّب عندها: إنه بلا شك بلد جميل. ولطالما عجبت من هذا الرجل الذي فاق موطنه شهرة. مع ما يحوي هذا الأخير من تراث إنساني. ألوف (بل ملايين الهنود) لم يسمعوا بلبنان، ومع ذلك فقد سمعوا بجبران وقرأوا شيئاً له. أليس هذا ظاهرة مثيرة للعجب؟!



سورية المتحرّرة بريشة جبران

إنه مثل نموذجي عن الرسالة الإنسانية والعالمية الشاملة التي حملها أدب المهجر ونشرها في الملايين من البشر. وإنجاز المهاجرين هذا لوحده كافٍ لكي تكون مساهمتهم في تراث وطنهم ونهوضه لا تقل، بل تتخطى أحياناً، مساهمة المقيمين.

والحديث عن أدب المهجر يطول ويتخطّى حدود هذه الدراسة. ولكننا نقتصر، في تناولنا له، على نقطة واحدة تخدم السياق، وتضيء على جوانب من مسائل أثرناها حول أزمة الهوية ومشكلة الانتماء وغير ذلك عند المغتربين. والنقطة المقصودة أو الإشكالية هي التالية:

كيف عكس أدب المهجر أزمة الهوية والانتماء عند المغترب، وما هي الصورة التي رسمها لهذا الأخير؟

لبنان في أدب المهجر

تبدو الهويّة اللبنانية والانتماء إلى الوطن والتعلّق به والحنين إليه ورجاء العودة واضحاً في أدب المهجر. لا بل إن ظاهرة الحنين إلى الوطن لا نجدها في الأدب العربي بمجمله وفي مختلف عصوره واضحة ومؤثّرة وصادقة كما نجدها في شعر المهجر الأميركي بشقّيه الشمالي والجنوبي، تلك خلاصة رأي عيسى الناعوري[1] وألفرد

1 - الناعوري، عيسى (1918 - 1985)، أدب المهجر، القاهرة، دار المعارف، ط3، 1977، فصل الحنين إلى الوطن، 79 - 88.

خوري[1]، وجورج صيدح وغيرهم.

ولا نغالي إذا قلنا أن أدباء المهجر كافّة لم يتشاركوا في موضوع واحد، كما اشتركوا في التعبير عن حنينهم الجارف لوطنهم وتوقهم إلى العودة إليه. ولا عجب في ذلك، فأشعارهم ونثرهم في هذا الموضوع انطلقت من معاناة صادقة عاشها كل منهم. فعبّر عنها بصدق وعاطفة مؤثرة.

ولو شئنا أن نذكر لكل أديب منهم شيئاً مما قال، لأحوجنا الأمر إلى دراسة مستقلّة. لذا سنقتصر على بعض النماذج المعبّرة.

الحنين في أدب جبران

فجبران مثلاً والذي ملأت شهرته الأرض في حياته. بقي طيلة عمره في المهجر يحلم بالعودة إلى لبنان، ليقضي أيامه في صومعة هادئة في دير ما سركيس هرباً من ضجيج المدينة. وقد عبّر مراراً عن أمنيته هذه في كتبه ولأصدقائه. فمخائيل نعيمة ينقل عنه حلمه هذا. يقول جبران لنعيمة:«ميشا ميشا، نجّاني الله وإياك من المدنية والمتمدّنين. ومن أميركا والأميركيين. ونحن سننجو بإذن الله. وسنعود إلى قِمم لبنان الطاهرة. وأَوْدِيَتِه

1 - خوري، ألفرد، الكلمة العربية في المهجر، بيروت، دار الريحاني، لات، فصل الوجد إلى لبنان، ص 37 - 81.

الهادئة. وسنأكل من عنبه وبَقوله... الخ»[1] ويضيف جبران في بَوحه لصديقه: «نفسي تطالبني بعزّتها، وفكري يطالبني بحرّيتــه، وجسمي يطالبني براحته. ولن أستعيد عزّة نفسي وحرّية فكــري وراحة جسمي إلا في لبنان»[2].



جبران مع نعيمة

1 - نعيمة، ميخائيل، جبران خليل جبران، حياته موته، أدبه فنه، بيــروت، مؤسسة نوفل، ط11، 1991، ص 207.

2 - م.ن، ص 211.

ويمضي جبران محدّثاً نعيمة عن صومعة حقيقية، يحلم أن يسكنها في لبنان ويقضي فيها بقيّة أيّامه: «هي دير قديم مهجــور في ضاحية من ضواحي بشرّي اسمه مار ســركيس(...) هنــاك سنعتزل العالم يا ميشا. وسنحلم ما طاب لنا أن نحلم. وسنكتب ما شئنا أن نكتب»[1] ولكن جبران لم يعد إلى تلــك الــصومعة، إلا جثّة هامدة، لتكون مثواه ومقامه ومتحفاً له.

وكتاب النبي لجبران ليس سوى تعبير عن حنين جارف إلى الوطن: فالمصطفى الذي قضى إثنتَي عشرة ســنة فــي مدينــة أورفليس ينتظر سفينة ليركبها عائداً إلى موطنه هو نفسه جبران الذي عاش في نيويورك سنوات يحنّ إلى العــودة إلــى بــشرّي قريته. وعودة المصطفى ليست سوى تعبير عن أمنيــة جبــران بالرجوع إلى لبنان.

ولبنان جبران من نوع آخر: «لكم لبنانكم ولي لبناني. لبنانكم طوائف وأحزاب.. وفود ولجان.. خطب ومناقشات... أما لبناني فتغريد الشحارير، وحفيف أغصان الحور. ورجع صدى النايات في المغاور والكهوف»[2] لو عاد جبران اليــوم هــل يعــرف لبنان؟! وهل يجد فيه شيئاً مما كان يحلم به؟!.

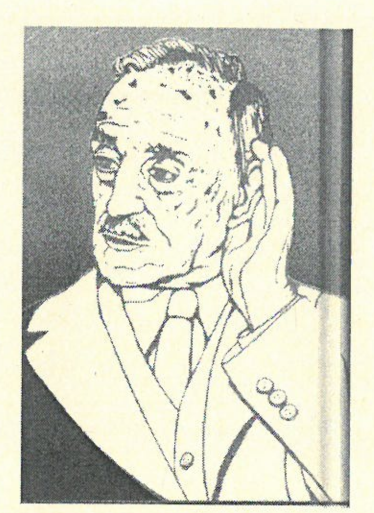
1 - م.ن.

2 - جبران، جبران خليل، المجموعة الكاملة، قدّم لهــا ميخائيــل نعيمــة، بيروت، دار صادر، 1949، ص 521.

الشوق في شعر القروي

ويعبّر الشاعر القروي (1887 – 1984) عن شَوْقه لوطنه، وحنينه للعودة في الكثير من قصائده.

نأت عنك الأحبةُ والديارُ   فدمعُك والأسى وطن وجارُ
وما لبنانُ بالمنسي لكن   جوارُ الأهلِ يتلوه الجوارُ
دفنتَ ربيع عمرِكَ في بلادٍ   بها طالت لياليك القصارُ
أرومُ إلى ربى لبنان عَوْداً   ويمسكُني عن العودِ افتقارُ
ولو خيّرت لم أهجر بلادي   ولكن ليس في العيش اختيارُ[1]



الشاعر القروي

1 – الشاعر القروي، الأعمال الكاملة، الشعر، طرابلس، جروس برس، ط7، 1992، ص 255 – 257.

ويصوّر القروي غربته الدامية، ووحشته في بلاد لا يفهم أحد فيها لغته، يقول في ريو دي جانيرو 1914:

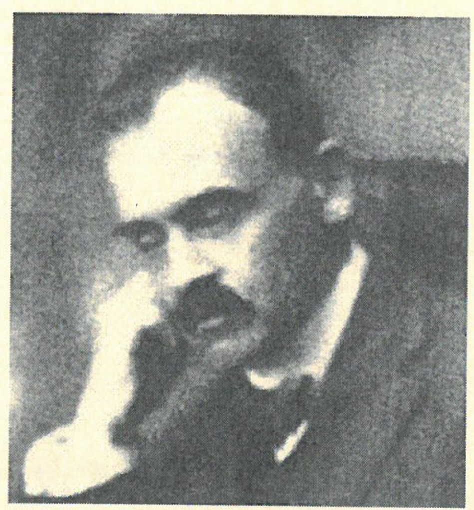
ناءٍ عن الأوطان يفصلني   عمّن أحبُّ البرُّ والبحرُ
في وحشةٍ لا شيءَ يؤنِسُها   إلا أنا والعودُ والشعرُ
حولي أعاجم يرطنون فما   للضاد عند لسانهم قدرُ
ناسٌ ولكن لا أنيس بهم   ومدينة ولكنها قفرُ
أما أنا والغمُّ كبّلني   صخرٌ يُحسُّ وليتني صخرُ[1]

رشيد أيوب والمثوى الأخير

وفي شعر رشيد أيوب (1871 – 1941)، حنين دائم إلى لبنان. ومَن منّا لا يعرف رائعته الشجيّة «زادنا في مدرسة ما بعد الحرب الكَونية الثانية، وإلى مدى طويل، في أذهان النشء وعلى ألسنتهم تحيا قصيدة يا ثلج»[2].

يا ثلجُ قد هيّجت أشجاني   ذكّرتني أهلي بلبنانِ
باللهِ عنّي قل لجيراني   ما زال يرعى حرمةَ العهدِ
يا ثلجُ قد ذكّرتني الوادي   متنصّتاً لغديره الشادي
كم قد جلست بحضنِه الهادي   فكأنني في جنّة الخلدِ[3]

1 – م.ن، ص 234 – 235.
2 – زكا، د. نجيب منصور، أقلام مهاجرة، بحث حول نتاج الرابطة القلمية، بيروت، شركة المطابع الحديثة، ط1، 1980، ص 120.
3 – م.ن، ص 121.



رشيد أيوب

ورشيد أيوب لم تُشبع ناطحات السحاب عينيه. فنراه يحنّ إلى العرزال وخيمة الناطور في لبنان. يقول في ديوانه أغاني الدرويش:

فخذ الدنيا وما فيها وهات   خيمة الناطور
حيث أدنو في ليالي الطوال   من حمى الإلهام
وترى عيناي في أرض الخيال   روضة الأحلام[1]

ويصوّر رشيد أيوب حاله في الغربة في قصيدة ذات نغمة حزينة عذبة. فهو عليل لا يشفيه سوى نسيم صنّين. يرقب الكواكب في الليل وفي أحشائه حرقة الغربة ويحتسي الخمر علّه

1 - خوري، ألفرد، م. س، ص 49.

يبرّد ناره، فلا يزيده الشرب سوى عطشاً واحتراقاً.

ذكّروه بالحمى فارتعشا   وهو كالمجنون
مغرمٌ في الحبّ قِدماً قد نشا   قلبه المحزون
لا تلوموه فذا صبٌّ سقيم   نازح مسكين
ليس يحييه سوى ذاك النسيم   في حمى صنّين
يرقب الأفلاك إن جنّ الظلام   في حشاه نار
وهو يحسو الخمرَ مضنى لا ينام   ينشد الأشعار
لم تزده الكأس إلا عطشا   أبداً ظمآن
يتغنّى عمره كيف مشى   بربى لبنان[1]

وقبل أن تنطفئ الشعلة. أحسّ رشيد أيوب بدنو الأجل في أرض الغربة، وبعيداً عن وطنه والكروم والليل الصافي والنجوم. فأوصى أن يكون لحده بجانب خيمته ليسمع، وهو نائم نومته الأخيرة، رنين الجرس أحلى الألحان إلى قلبه. يقول في زفرة عميقة تلمس القلب وتدفئه:

لبست شمسي الوشاحا   آه ما أحلى المغيب
نام قلبي واستراحا   وقضى ذاك الغريب
في الأنام
فاحفروا قبري بجانبْ   خيمتي عند الكروم

1 - عبّاس، إحسان، م. س، ص 124.

حيثما كنتُ أراقبْ   في دجى الليل النجوم

لا أنام

وأخبروا نايي وكوبي   ثم لا تنسوا الجراب

رفقائي في كروبي   أنني تحت التراب

لا أضام

دقّةُ الناقوسِ عندي   كلُّ أنغامِ الطرب

فاضربوه عند لحدي   يوم تفريج الكرب

بالحمام[1]

لكِ يا نفسي حياة   بعدما أُلقي العصا

فالأماني جائعات   علّليها بالحصى

كي تنام

هي تذكارات شاعر   عاش في الدنيا شريد

ومضى في الأمر حائر   يقصد الضوء البعيد

في الظلام[2]

الحنين العميق والنزعةالدينية/المسيحية واضحَين في رائعة رشيد أيوب هذه. وكذلك المنحى الصوفي. فهو يعبّر عن إيمانه بالحياة الأخرى لكِ يا نفسي حياة، وعن تفاهة شهوات الدنيا:

---

1 - م.ن، ص 56.

2 - عبّاس، د. إحسان، ونجم، محمد يوسف، الشعر العربي في المهجر، أميركا الشمالية، بيروت، دار صادر، ط3، 1982، ص 257.

علّليها بالحصى، ولكن إيمانه يبقى إيمان باحث درويش متشكّك مضى نحو الضوء البعيد وهو لما يزل متسائلاً محتاراً.

ندرة حدّاد والصبوة للأهل

وندرة حدّاد (1881 – 1950). وهو الآخر عضو في الرابطة القلمية وشقيق الشاعر عبدالمسيح حدّاد (1890 – 1963)، له قصيدة/وصية شبيهة بوصية رشيد أيوب. ولا نعلم أيهما تأثر بالآخر، فندرة أيضاً يوصي أصحابه أن يدفنوه في مرج خصيب حيث شدو البلابل وخرير الجداول وفيء الصفصاف. وقد لا يكون في الأمر تأثّر. فطالما كان مثوى كهذا أمنية الشعراء. فهو استمرار رغائبهم، ويتيح لهم في الممات ما فات في الحياة.



ندرة حداد

فالنبي يوسف، المهاجر إلى مصر أوصى قومه بأخذ رفاته معهم يوم يرحلون من مصر:«وحمل موسى عظام يوسف معه، لأنه كان قد استحلف بني إسرائيل قائلاً: لا بد أن يفتقدكم الله، فعليكم أن تنقلوا عظامي معكم من هذا المكان»، (الخروج 19/13) [1].

يقول ندرة:

إن أنا مُتُّ أُصيحابي ادفنوا … جسدي في بقعة المرجِ الخصيب
حيثما البلبلُ يشدو مائلاً … كيفما مال به الغصنُ الرطيب
حيثما الجدولُ يجري باكياً … يُسمع المسبوبَ أنّاتِ الكئيب
حيثما الصفصافُ يحني رأسه … شَبَهُ من أضناه هجرانُ الحبيب
حيثما ترعى المواشي حرّةً … لا تخافُ الغدرَ من وحشٍ وديب
وإذا شئتم مناجاتي اجلسوا … حول قبري ساعةً عند المغيب
لا تنوحوا لفراقي حسرةً … أنا مَن يكره أصواتِ النحيب
لا تظنّوا القبرَ فيه غربةً … ليس مَن في صحبةِ القبر غريب
عشتُ في الدنيا زماناً لم أجد … أحداً من الناس أدعوه قريب[2]

رشيد أيوب عاش في الدنيا شريداً، وندرة حدّاد مثله لم يجد له فيها قريب.

وندرة لا يقلّ عن سائر زملائه في الرابطة القلمية حنيناً وشوقاً للوطن. فهو دائم الصبوة إلى الأهل والدار. يقول:

1 - الكتاب المقدّس، م. س، ص 111.
2 - زكا، م. س، ص 154.

ما قيل لي مرحباً … في كل أسفاري
إلا وقلبي صبا … للأهل والدارِ
راجعت بعد الشباب … في التيه ألواحي
فلم أجد في الحساب … باباً لأرباحي

ويخاطب ندرة القادمين الجدد إلى المهجر، شاكياً لوعته على البعد، وقد أصبح حبُّ الوطن ناراً تُشعل قلبه، يقول:

أيها الآتي من الأوطان … والأوطان حلوة
لم أجد عنها وإن طال زمان … البعدِ سلوة
وطن مذ فارقته … في القلب جذوة

إيليا أبو ماضي وجبال لبنان

وإيليا أبو ماضي (1889 – 1957)، يعرج في قصيدة إلى السماء. فيذكّرنا بروايات المعراج عند الصوفية[1]. ولكنه مع ذلك يبقى حزيناً. فيسأله ربّه ماذا يرغب ويتمنّى ليعطيه. فلا يطلب الشاعر سوى فصل صيف أو شتاء في لبنان. فهو في غربته لا يحنّ إلا إلا سواقي لبنان وروابيه ودواليه، يقول:

1 - أنظر صليبا، د. لويس، المعراج بين المحدّثين والمتكلّمين والمتصوفين، تحقيق ودراسة لكتاب المعراج للقشيري، بيبلوس/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2007.

فقال: يا شاعراً عجيباً   قُلْ لي إذن ما الذي تشاء

فقلتُ يا ربُّ فصلَ صيفٍ   في أرضِ لبنان أو شتاء

فإنني ههنا غريبٌ   وليسَ في غربةٍ هناء

تحنُّ نفسي إلى السواقي   إلى الأقاصي إلى الشذاء

إلى الروابي تعرى وتُكسى   إلى العصافير والغناء

إلى العناقيد والدوالي   والماء والنور والهواء[1]



إيليا أبو ماضي

ويميّز أبو ماضي في قصيدة أخرى بين ريح بلاده وأية ريح أخرى فيقول:

---

1 - أبو ماضي، إيليا، ديوان إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر، تقديم جبران خليل جبران، بيروت، دار العودة، 1988، قصيدة الشاعر في السماء، ص 125 - 127.

إني لأعرف ريحها من غيرها   بنوافح الأشذاء في أذيالها

ويمضي في ذكر طفولته في بلاده ولعبه في الساحات وغنائه مع الطيور واستلهامه الشعر من لُغى أطفال لبنان والحكمة من شيوخه.

تلك المنازل كم خطرتُ بساحها   في ظلّ ضيغمها وعطف غزالها

وشدوتُ مع أطيارها وسهرت مع   أقمارها ورقصت مع شلاّلها

وسجدتُ للإلهام مع صفصافها   وضحكت للأحلام مع وزّالها

وملأت عقلي من حديث شيوخها   وأخذت شعري من لغى أطفالها

ويتمنّى الشاعر أن يكحّل عينيه برؤية موطنه قبل الوفاة. فكل جمالات الكَون التي رآها في حياته اختفت ولم يبقَ في خياله سوى ربوع بلاده وجمالها.

تشتاق عيني قبل يغمضها الكرى   لو أنها اكتحلت ولو برمالها

مرّت بي الأيام تقفو بعضها   وثب القطا تعدو إلى آجالها

وتعاقبت صور الجمال فلم يدم

في خاطري منها سوى تمثالها[1]

والجبال تذكّر أبي ماضي بجبل لبنان. ولكنّها مهما علت هيهات أن تماثل هذا الأخير جمالاً وسمواً.

ولربما جبل أشبّهه به

مسترسلاً مع روعة التشبيهِ

فأقولُ يحكيه وأعلمُ أنه

مهما سما هيهات أن يحكيه

ويريد الشاعر أن ينسى قلبه جبل لبنان ويلهيه عنه برؤية الجبال في غربته. ولكن النتيجة تأتي عكسية، إذ تذكّره ربوع الغربة حمى بلاده وتنكأ الجراح.

يا لذّة مكذوبة يلهو بها

قلبي ويعرف أنها تؤذيه

إني أذكّره بذيّاك الحمى

وجماله وإخالني أُنسيه

وإذا الحقائق أحرجت صدر الفتى

ألقى مقالده إلى التمويه

---

1 - عبّاس، إحسان، م. س، ص 122/3.

ويخلص الشاعر إلى أن كل البلدان ستبقى له أرض ضياع ولن يعرف تيهه نهاية إلا بالعودة إلى وطنه.

وطني ستبقى الأرض عندي كلّها

حتى أعود إليه أرض التيه[1]

رياض المعلوف والكوخ الأخضر

ويتساءل رياض المعلوف (1912 - ...) المهاجر إلى البرازيل في قصيدة كتبت عام 1945، إذا كان الزمن سيسمح له يوماً بالعودة إلى لبنان. فهو مثله مثل أبو ماضي ساح في الدنيا، فما غرّه مشهد، ولا رأى أجمل من كوخه الأخضر في لبنان.

هل يا ترى نعود إليك يا لبنان

فتصدق الوعود ويسمح الزمان

فنقطف العنقود منوّع الألوان

هل يا ترى نعود إليك يا لبنان؟

كم سحت في المعمور ما غرّني منظر

فبلدي المهجور وكوخيَ الأخضر

أحلى من القصور والذهب الأصفر

هل يا ترى نعود إليك يا لبنان؟

---

1 - عبّاس، م. ن، ص 123.

مـا أحـسن الـذكر فـي ملّـة الغريـب
فهـو إذا ذكـر موطنـه الحبيـب
يـرتعش النظـر وعينـه تغيـب
هل يا ترى نعود إليك يا لبنان؟[1]

ومع تكرار الشاعر لمعانٍ نجدها في غالبيّة قصائد الحنين إلى لبنان، فجرس القصيدة الحزين والشجيّ في آن يدخلنا في جوّ شعري لطيف ومؤثّر. وصدق عاطفة الشاعر في شوقه إلى عناقيد بلاده وكوخه الأخضر الذي يغنيه عن القصور تعزف على أوتار القلب نغمة الوطنية الصادقة والصافية.

وقارئ نفثات وجدان هؤلاء الشعراء. قد يتساءل اليوم: ماذا بقي من لبنانهم هذا؟! أين السواقي والجداول والكروم والغدير والنواقيس في الوديان والروابي والعصافير والكوخ الأخضر؟.

إننا اليوم، ونحن مقيمون في هذا الوطن، نحنُ إلى ذاك اللبنان الذي تحدّثوا عنه واشتاقوا إليه. فكم أمعنّا في تشويه طبيعته واقتلاع أشجاره وتلويث بحره وأنهاره الخ.

ونشعر في عمق وجداننا الشوق عينه إلى الوطن الذي يغنّون.

1 - بلبع، عبدالحكيم، حركة التجديد الشعري في المهجر بين النظرية والتطبيق، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1980، ص 263.

صورة المغترب في أدب المهجر

والآن أية صورة يعكس أدب المهجر عن الاغتراب؟ وأية لوحة يرسم للمهاجر؟

يصف إيليا أبو ماضي حال المهاجرين وصفاً يجمع الواقعية إلى الشاعرية. يقول:

نحن في الأرض تائهونَ كأنّا قومُ موسى في الليلةِ الليلاءِ
تترامى بنا الركائبُ في البَيداء طَوراً وتارةً في الماءِ
ضعفاءٌ محقّرون كأنّا من ظَلامٍ والناسُ من لألاءِ
واغترابُ القوي عزٌّ وفخرٌ واغترابُ الضعيفِ بَدءُ الفناءِ
عابنا البيضُ أمتنا غير عُجمٍ والعبدي بالسِّحنةِ البيضاءِ
ويح قومي قد أطمع الدهر منهم كلَّ قومٍ حتى بني السوداءِ
فإذا فاتنا عدوٌّ تجنّى فأرانا الحبابَ في الأعداءِ
أطرَبتْنا الأقلامُ لما تغنّت بالمساواة بيننا والإخاءِ
فسكرنا بها فلمّا صحونا ما وَجَدْنا منها سوى أسماءِ[1]

ترسم هذه القصيدة لوحةً رمادية، بل وقاتمة، ولكنها واقعية عن حال المهاجرين اللبنانيين في أميركا. فهم تائهون تيه اليهود في بريّة سيناء، لا يعرفون أين ومتى يحطّون الرحال والركاب.

1 - أبو ماضي، الديوان، م. س، 102/3.

وضعفاء. وغربة الضعيف الذي لا مال ولا سند له بداية النهاية. ويصوّر الشاعر العنصرية التي عانى منها أبناء المهجر. فالأميركيون البيض اعتبروهم غرباء. بل وأحياناً من العرق الأصفر/المغولي ومنعوا هجرتهم كما تقول بعض المراجع. أما السود فعابوا عليهم سحنتهم البيضاء واعتبروهم هم أيضاً غرباء عنهم. فيقول يا للمصيبة حتى الزنوج طمعوا فينا. خُدعنا بالمساواة التي يتحدّثون عنها في أميركا وتتفاخر بها الأقلام. فطربنا وتركنا بلادنا وظلم الأتراك بحثاً عن الحرية والمساواة. فلم نجد من هذه الأخيرة سوى الأسماء.

ويقول الشاعر مسعود سماحة (1882 – 1946)، المهاجر إلى واشنطن. واصفاً حمل الكشّة وتجارته بها.

كم طويتُ القفارَ مشياً وحملي ... فوقَ ظهري يكادُ يقصمُ ظهري
كم قرعتُ الأبوابَ غير مبالٍ ... بكلال وقرّ فصلٍ وحرّ
كم توغّلتُ في البراري وقلبي ... سابحٌ مثل زورقٍ في نهرِ
كم تعرّضت للعواصفِ حتى ... خلتُ أن الثلوجَ في القفر قبري
كم توسّدت صخرة وذراعي ... تحت رأسي وخنجري فوق صدري[1]

إنها صورةٌ/نموذج لآلاف الباعة المتجوّلين. حاملي الكشة التي غالباً ما كان يتراوح وزنها بين 50 و 100 كلغ وكانوا يقصدون بها القرى النائية بحثاً عن الرزق يقرعون أبواب

1 – صيدح، م. س، ص 33.

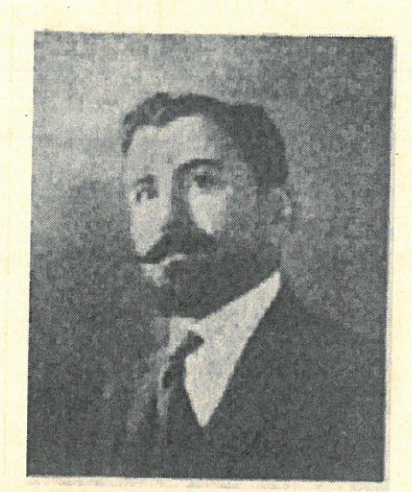
البيوت ويعرضون بضائعهم. أما قصدهم القرى البعيدة والنائية فهرباً من المضاربات، ولأن أهل المدن لا يحتاجون إلى خدماتهم.

وفي تصويره لسفره في البراري والأدغال واقعية وإثارة وتشويق. فتارة تكسوه الثلوج حتى يخال أنها ستكون لحده. وطوراً تطول الطريق فينام متوسّداً حجراً، واضعاً خنجره فوق صدره، متأهّباً أي خطر من إنسان أو حيوان مفترس.

والياس فرحات (1893 – 1976)، ابن كفرشيما والمهاجر، المقيم في البرازيل من 1910 وحتى وفاته، وعضو العصبة الأندلسية، يصف في قصائد عديدة ظروف حياته في المهجر، ولا سيما عمله كبائع متجوّل. يقول:

فنمسي وفي أجفاننا الشوق للكرى ... ونضحي وجمرُ السُّهدِ فيهن يلهبُ
ومأكلنا ممّا نصيد وطالما ... طوينا لأن الصيدَ عنا مغيّبُ
ونشربُ مما تشربُ الخيلُ تارةً ... وطوراً تعافُ الخيلُ ما نحن نشربُ
حياةُ مشقاتٍ ولكن لبعدها ... عن الذلِّ تصفو للأبيّ وتعذبُ
لئن كان صعباً حملُك الهمَّ والأذى ... فحملُكَ مَنَّ الناسِ لا شكَّ أصعبُ
طوى الدهرُ من عمري ثلاثين حقبةً ... طويت بها الأصقاعَ أسعى وأدأبُ
أغرّبُ خلفَ الرزقِ وهو مشرّقٌ ... وأقسمُ لو شرّقتُ راحَ يغرّبُ[1]

1 – صيدح، م. س، ص 33.



الياس فرحات

وقصيدة فرحات هذه خير وصف للمهاجر/البائع المتجوّل. وما يقاسيه من شظف في سبيل لقمة العيش. يأكل ما اصطاد من حيوان فإن لم، يصدِ يَنَم جائعاً. ويشرب الماء الذي تشربه الخيل، أو حتى الذي تعافه أحياناً. ورغم كل هذه المشقّات تطيب له هذه الحياة، لبعدها عن ذلّ الطلب والتسكّع. وفي وصفه لحظّه المنكود في البيت الأخير الكثير من الابتكار والمرح الممزوج بالألم وسخرية القدر.

ويصف ندرة حدّاد (1881 – 1950)، السابق الذكر حال المهاجرين، لا سيما الأدباء منهم والشعراء. وما عانوا من فقرٍ وعوز. يقول:

وَقَفَتْ مطايانا فليسَ لها حادٍ وليس بنافعٍ زجرُ
لم يبقَ إلا الشعر نسكبهُ خمراً إلى أن ينتهي العمرُ
يا ويل أهل الشعرِ كم شبعوا جوعاً وكم سكروا ولا خمرُ[1]

أدب المهجر: الذروة والأفول

وفي الجملة فإن أشعار المهجريين وثيقة تاريخية حيّة وقيّمة حفظت لنا جوانب مهمّة من تاريخ المغتربين وجهادهم وشوقهم وصبابتهم إلى وطنهم، وعملهم الدؤوب في سبيل حريته وعزّته واستقلاله. وقديماً قيل:«الشعر ديوان العرب» أي هو حافظ أخبارهم وتاريخهم. والقول هذا ينطبق بامتياز على شعر المهجر.

وإذا كان لا بد من كلمة نختم بها الحديث عن أدب المهجر فهي أشبه بالحسرة عليه. لقد كان كالشهب تلمع فتنير السماء لفترة، ثم تنطفئ. أدب المهجر هو اليوم ذكرى جميلة، وجزء من ماضٍ انطوى. واللغة العربية انحسرت من أساسها في المهاجر. فالأجيال الرابعة من المهاجرين تكاد لا تعرف حرفاً منها.

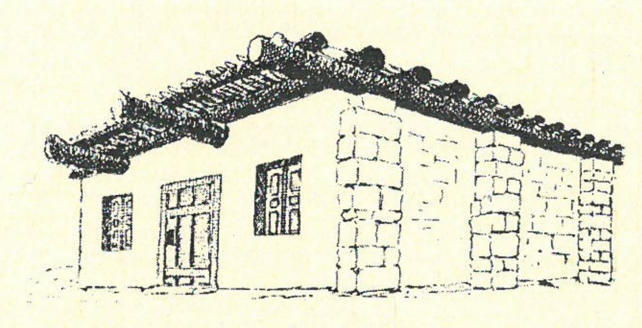
والدراسات التي تناولت أدب المهجر وأثره تعدّ بالعشرات. وكلّها تتحدّث عن نشأته وازدهاره. وما من بحث يدرس أفوله وانحساره.

---

1 – م.ن، ص 27.

لقد مات أدب المهجر، هذه الثـــورة المباركـــة فـــي الأدب العربي، ميتة لا قيامة، على الأرجح، له من بعدها. فكيف توارت هذه الظاهرة بهذه السرعة؟! وما هي أسباب اندثارها؟!

لقد كان انتقال جبران إلى الكتابة بالإنكليزية أوّل مؤشّرات هذا الانحسار وعلامات الأفول. انقراض أدب المهجر واختفائه، وبسرعة نسبية، بعد أن ملأ دنيا الأدب العربي، وشـــغل القـــرّاء والنقّاد ولا يزال، ظاهرة تستحقّ الدراسة والتعمّق واســـتخلاص العِبَر.

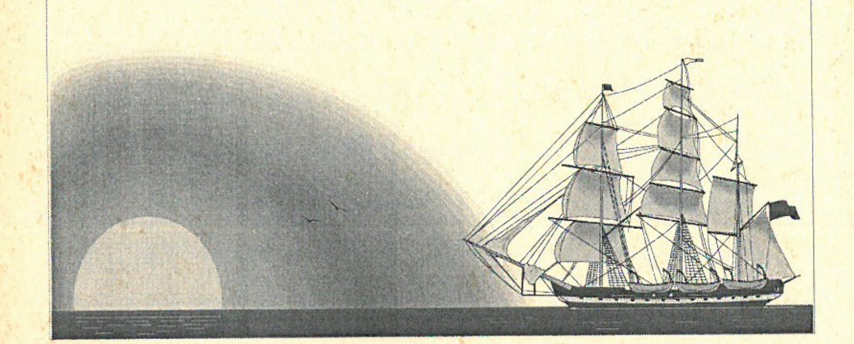


منزل لبناني – قروي

18

الفصل السادس

الهجرة بأقلام المقيمين



مواضيع الفصل السادس:

- نظرتَين متناقضتَين إلى الهجرة
- الهجرة مأساة الوطن والإنسان

  إملي نصرالله وطيور أيلول المهاجرة

  فؤاد سليمان ومغاور الزمرّد والياقوت
- الهجرةملحمة الاغتراب اللبناني

  شيحا منظّر ملحمة الاغتراب

  شارل القرم يستلهم الجبل

  سعيد عقل وقدموس المعلم
- الهجرة بين الملحمة والمأساة

نظرتين متناقضتين إلى الهجرة

الهجرة بجوانبها المشرقة والقاتمة لم تكن محطّ اهتمام أدباء المهجر وحدهم. وإنّما موضع عناية الأدبـاء المقيمـين أيـضاً. فتناولوها أبحاثاً وأعمالاً أدبية نثرية وشعرية مبدعة.

وكثرٌ هم الأدباء المقيمـون الـذين كتبـوا فـي الهجـرة والاغتراب. ويمكن أن نقسّمهم إلى تيّارَين.

الأول: عانى من الهجرة، لا سيما بفقـد أخٍ أو أب ابتلعـه البحر ونادته شمس الغروب إلى المغرب. فعبّر عن معاناته تلك نثراً، أو شعراً، يصف هذا النزف البشري اللبناني وتداعياته على الوطن وإنسانه. ومن أبرز هؤلاء فؤاد سليمان (1912 – 1951). أو سرد ذلك في قالب قصصي كما إملي نـصرالله (1931 – ...) في روايتَيها طيور أيلول والإقلاع عكس الزمن.

التيار الثاني تغنّى بالهجرة. بل حتـى خلـق مـن مأسـاة الاغتراب ما سمّي ملحمة الاغتراب اللبناني. فعدّوا هذا الأخيـر في مصاف الإنجازات الحضارية للبنان ومن مفاخر بطولاته. إنه أدب روّجه المقيمون من اللبنانيين، يصف اللبنـانـي "الـشاطر" و"بائع الكشّة" المغترب أو جوّاب الآفاق ، ويربط بـين الهجـرة الحديثة (ابتداءً مـن 1845) والهجرات القديمة والوسيطة، بل وشبه الأسطورية منها كهجرة قدموس وأليسار (ديدون).

خطاب محلّي أريد منه، ليس فقط تجميل ملحمة الاغتـراب اللبناني، بل وأيضاً تجميل ما سمّي بِ "المعجزة اللبنانية الحـرة"

القادرة على جَني الثروات كيفما كان. وأبرز ممثّلي هذا التيار شارل القرم (1894 – 1963)، وسعيد عقل، لا سيما في قدموس.

والجدير ذكره هنا أن أوائل المؤرّخين المقيمين الذين كتبوا عن الهجرة نظروا إليها من الجانب السلبي. فأوغست أديب باشا، رئيس الحكومة اللبنانية اللاحق رأى في كتابه لبنان بعد الحرب (1919) أن الهجرة تضرّ البلاد لأنها تحرمها القوى الحيّة والأيدي العاملة التي تحتاج إليها الزراعة والصناعة والمشاريع الكبرى. والأيدي هذه لولا المهاجرة لساعدت في نجاح البلاد وإنماء ثروتها[1] وأوغست أديب يجد عذراً للمهاجرين في ضيق أراضيهم، لا سيما بعد حصر الجبل في زمن المتصرّفية.

ومحمد كرد علي يقول في كتابه غرائب الغرب (1923) أن مضارّ الهجرة أكثر من منافعها. ويذكر لنا بعضها: شقاء البيوت التي هاجر أصحابها وعائلوها، كثرة البنات غير المتزوّجات في لبنان، وذلك بسبب هجرة الشبّان وزواجهم من الأميركيات، وغير ذلك.

ولميشال شبلي في كتابه المهاجرة اللبنانية (1927) رأي مماثل في الهجرة[2].

والأديب المهجري توفيق ضعون يعنون فصلاً من كتاب له

1- Adib Pacha, Auguste, le Liban après la guerre, Byblos/Liban, Librairie et éditions Byblion, 2e édition 2006, 1ère édition 1919, p 103.

2 – السرّاج، د. نادرة جميل، شعراء الرابطة القلمية، دراسات في شعر المهجر، القاهرة، دار المعارف،ط3، 1989، ص 62/3.

«الهجرة نقمة لا نعمة»[1].

الهجرة مأساة الوطن والإنسان

إملي نصرالله وطيور أيلول المهاجرة

من أبرز الذين عانوا من الهجرة وعبّروا عن مأساتها في الأدب اللبناني الحديث إملي نصرالله (1931 – ...) وفؤاد سليمان (1912 – 1951).

عانت إملي نصرالله من هجرة إخوتها، وهم في مطلع شبابهم، إلى كندا. وعكست معاناتها هذه في أدبها. فأولى رواياتها وآخرها موضوعهما الهجرة. تقول في سيرتها الذاتية:«أما المؤتمرات الهامة في حياتي، فأذكر بعضاً منها، نسبةً لتأثيرها في أدبي:

هجرة إخوتي وهم في مطلع الشباب إلى كندا، حيث يعيشون حالياً. وكانت من أشدّ المؤثرات التي حرّكت قلبي، وجعلتني أكتب روايتي الأولى طيور أيلول، وروايتي الأخيرة الإقلاع عكس الزمن»[2].

1 – ضعون، توفيق فضل الله، من وحي السبعين (1883 – 1953) في الصلة بين المغتربين والمقيمين، بيروت، دار صادر – ريحاني، ط1، 1953، ص 121.

2 – كامبل، روبرت، أعلام الأدب العربي المعاصر، سَير وسِيَر ذاتية، بيروت، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ط1، 1996، ج2، ص 1328.



إملي نصرالله

يتماهى المهاجرون عند إملي مع طيور أيلول المسافرة، والتي تعبرُ قريتها في آخر الصيف، فتذكّر أبناءها بطيور أخرى بشرية هجرتها. تقول ممهّدة لروايتها:«للقرية عطفٌ خاص على طيور أيلول، رحيلها يعيد إلى الذاكرة صوَر الطيور الكثيرة المهاجرة. طيور صغيرة أو كبيرة أو متوسّطة الحجم، ثقبت الجدران، وفتحت فيها كوى تكاد لا تتّسع، ثم رفّت بأجنحتها. وأفلتت لتحلّق في أجواء بعيدة»[1].

طيور أيلول تحرّك المرارة في القلب، فتذيقهم طعمها من جديد. تنكأ الجروح التي لما تندمل بعد. جروح الفراق، تقول:«وهكذا يبقى طعم الهجرة على ألسنة السكّان، وينحدر فرح

1 - نصرالله، إملي، طيور أيلول، رواية، بيروت، مؤسسة نوفل، ط8، 1993، ط1، 1962، ص 9 - 10.

العودة في غُصّة الوداع، وتغمر دموع الشوق الحزين الدمعات الشحيحة في أعراس الفرح»[1].

والقرية، على الرغم من حسرات المقيمين، عاجزة عن صدّ تيّار الهجرة الجارف، عجزها عن منع الطيور من عبور أجوائها:«وتعجز القرية عن الوقوف في وجه هذا التيار المتّصل جيلاً بعد جيل، تماماً كما تعجز عن صدّ طيور أيلول عن عبور سمائها»[2].

وتصف إملي حال المهاجرين المشتّتين في كل أرض. الباحثين في الخارج عن كنز ضائع، وهو بالأحرى في داخلهم. «ويسيرون في الأرض، في كلّ بقاع الأرض، غرباء فيها، يبحثون عن الكنز الضائع، المدفون في ركن عميق من صدورهم. ويشعرون أن هناك يداً، أعجز من أن يصدّوها، تعمل على تفرقتهم، وذرّهم في عيون الكون، غرباء فيه، يدورون في حلقات مفرغة يبحثون عن أنفسهم، وعن الكنز المفقود»[3].

لكأن الهجرة، عند نصرالله، غُربة واغتراب الإنسان عن الذات أولاً. وظاهرة إنسانية تمسّ جوهر كيانه. وتعجز الأسباب والمسبّبات عن تفسيرها.

والكنز المفقود عند إملي نصرالله يذكّر، ولعلّه يستوحي

1 - م.ن، ص 10.
2 - م.ن، ص 10 - 11.
3 - م.ن، ص 11.

أيضاً مغاور الزمرّد والياقوت التي تحدّث عنها فـؤاد سـليمان (1912 – 1951)، قبلها بأكثر من عقد من الزمن، وسنعود لاحقـاً إليه.

ومن بين رموز الهجرة عند إملي نصرالله يستوقفنا اثنين:

1 – ساحة القرية: المحطّة الأولى في رحلة الاغتراب.

2 – المقبرة: المحطّة الأخيرة وآخر الترحال.

ساحة القرية حيث يجتمـع الأهلـون، وحيـث يتقاسـمون الأفراح والأتراح. مجتمع القرية المصغّر، يغدو عند إملي ساحة الهجرة:«نهضت القرية باكراً في ذلك الصباح، وزحفت بـشيبها وأطفالها إلى ساحة الهجرة»[1].

بعد أن كانت ساحة الأعياد والاحتفالات صـارت سـاحة الهجرة، «لا أحد يذكر متى استحقّت الساحة هذه التسمية، ومَـن خلع عليها هذا اللقب الملائم»[2].

القرية بأسرها تجتمع في الساحة لتودّع الـراحلين كبـاراً وصغاراً، شباباً وشابّات.

وكل يبعث السلام لأفراد أسرته المهاجرين. ساحة القريـة محطّة السفر الأولى. وفيها تجري مراسم التشييع والوداع.

أما المحطّة الأخيرة في رحلة الاغتراب فـالمقبرة. مقبـرة القرية بالذات. فالموت في الغربة غير الموت في الوطن. ولـئن

---

1 – م.ن، ص 122.

2 – م.ن.

مات المهاجر في غربته فعظامه تحـنّ إلـى موطنـه. وأمنيـة المهاجر، كما رأينا مع شعراء المهجر رشيد أيوب وندرة حـدّاد وغيرهما، وكما هي حال النبي يوسف في غربته، هو أن يـدفن في أرضه. فجسم الإنسان من تراب قريته جُبـل. وإلـى هـذا التراب عينه يحنّ للعودة. ذرّات كيان الإنسان تمتـزج بـذرّات تراب قريته. تقول نصرالله في إهداء "طيور أيلول"«إلى قريتـي الطيّبة حيث امتزجت ذرّات كياني بذرّات ترابها الأحمر»[1].

ويقول أبو راجي، أحد أبطال طيـور أيلـول: «لا أخـاف ملاصقة التراب. سوف يسعدني الموت، إن هـو أقبـل ليحـوّل جسدي إلى ذرّات تُغْني تربة حقلي»[2].

هذه العودة إلى تراب القرية، إرجاع الوديعة إلـى الأرض التي أُخذت منها، ستكون هاجس رضوان بطـل روايـة إملـي نصرالله الثانية التي تتمحور حول موضوع الهجرة، كما سنرى.

ما الذي دفعها إلى كتابة رواية أخرى عن الهجرة، وهل لا يزال هاجس الهجرة والاغتراب مسيطراً، منذ روايتهـا الأولـى طيور أيلول، على أعمالها القصصيّة والروائيّة؟! عن هذه الأسئلة تجيب إملي نصرالله:

«بعدما فرغت من كتابة طيور أيلول، وفي السنوات التـي

---

1 – م.ن، ص 5.

2 – م.ن، ص 82.

تلَت نشرها، أي الستينات، كانت تراودني فكرة متابعة الموضوع الذي أثرته، واقتفاء مسيرة الطيور المهاجرة. وسرد حكاياتها، لا في القرية الحزينة، بل في مطارح الإقامة... لكن الموضوع لم يكن قد نضج بعد... وذات يوم بدأت كتابة رواية عنوانها "عودة طيور أيلول"... قلت بدأت، لأني كتبت من تلك الرواية فصلَين أو ثلاثة وتوقّفت.. لماذا؟ شعرت بأني أكتب عن أشواقي، لا عن الحدث الإنساني الاجتماعي... كنت أتوق كثيراً إلى رجوع "الطيور المهاجرة". غير أن الأيام كانت تتقدّم عكس مسيرة أحلامي... لذا أقلعت عن متابعة كتابة تلك الرواية»[1].

وعن ظروف كتابة "الإقلاع عكس الزمن"، تقول نصرالله:«توفّر لي أن أقوم بزيارة بعض بلدان الاغتراب اللبناني، ومنها كندا والولايات المتحدة... الزيارة الأولى كانت قبل الحرب، عام 1974. وهذه تشكّل خلفية "الإقلاع"... إلا أن الفكرة لم تنضج نهائياً إلا بعد زيارة لاحقة (1980). قمت خلالها بدراسة أوضاع المغتربين من الأجيال: الأول والثاني والثالث للهجرة، في بنيان ضيقة، وتحدّثت إلى كثيرين منهم ولم أذكر الجيل الرابع، لأن هذا الجيل لا علاقة له بالجذور، أي بالوطن الأم... وخلال زيارتي لاحظت تحوّلاً عند الجيل الثاني، الذي أبدى اهتماماً إنسانياً عميقاً بما حدث ويحدث عندنا..

1 - عيد، منصور، قضايا إنسانية في روايات إملي نصرالله، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط1، 1995، ص 10 - 11.

وحين عدتُ، وفيما الطائرة تعبر اللحظة الفاصلة بين ليل كندا ونهار الشرق، حينذاك سمعت صدى عنوان كتابي الجديد. يتردّد في ذهني وأنا أحاول عبثاً أن أُغمض عيني:

"الإقلاع عكس الزمن"! وشعرت في تلك اللحظة بأن الرواية نضجت. وما بقي هو تسجيلها بالكلمات»[1].

وفي "الإقلاع" يتماهى البطل الأساسي "رضوان" مع والد الكاتبة الذي هاجر معظم أبنائه إلى كندا. والرواية مهداة إلى روح هذا الأخير[2].

في "الإقلاع" حقّقت نصرالله، بعض ما كانت تهدف إليه في مشروع روايتها "عودة طيور أيلول". فوضعت المهاجرين في دنياهم ومجتمعاتهم الجديدة، وتناولت طرق حياتهم المستحدثة وما ترسّب في نفوسهم وأعماقهم من عادات وتقاليد وطنهم. يَروي "الإقلاع" حكاية رضوان، كهل من قرى جنوب لبنان سافر مع امرأته في بداية الحرب اللبنانية إلى كندا لزيارة أبنائه وبناته المهاجرين.

حاول رضوان البحث، دون جدوى، عن أخويه وأخته المهاجرين إلى نيويورك أثناء الحرب العالمية الأولى. ولم ينسه نجاح أولاده في المهجر ضياع إخوته فيه:«العين مليانة، لكن ما

1 – م.ن، ص 11-12.

2 - نصرالله، إملي، الإقلاع عكس الزمن، بيروت، مؤسسة نوفل، ط2، 1984، ص5.

حدا يأخذ مطرح حدا. الابن له معزّة، والأخ له معزّة»[1].

ويحاول أبناؤه جميعاً إقناعه بالبقاء في كندا، وثنيه عن العودة إلى لبنان الذي تزداد الحرب فيه اشتعالاً. فيصحبوه لزيارة أجمل مناطق كندا، وترافقه ابنته مع زوجته إلى نيويورك لزيارة أقرباء .. الخ.

وتحاول الإبنة كما إخوتها إغراءه بالبقاء:«يعني تحبّ تبقى هنا (...) كل يوم نطوف بكما في مطارح جديدة»[2].

ولكن جمال أميركا لا ينسيه، ولا يغنيه، عن الضيعة:«هالبلاد حلوة يا بنتي. حلوة كثير. لكن حلاها يخصّ أهلها. ونحن لنا بلادنا، ضَيعتنا الصغيرة، لا ينقصها الجمال. فيها تعوّدنا العيش والسكن»[3].

مغريات العيش بين الأبناء والأحفاد واكتشاف الجديد من ناحية، ومخاطر العودة إلى وطن يحترق في الحرب من ناحية أخرى، لم تصرفه عن الرغبة في العودة، وإن وحيداً، إلى الأرض التي تناديه «وشعر بشوق مفاجئ، لا إلى أولاده أو أحفاده أو إخوته... بل إلى تلك الأرض التي تمدّ ذراعيها تتلقّفه، كلّما لطمته الحياة لطمة لا يعرف كيف يداريها»[4].

---

1 - م.ن، ص 297.

2 - م.ن، ص 259.

3 - م.ن، ص 259 - 260.

4 - م. ن، ص 298.

وتبدع نصرالله في تصوير مغريات الحياة التي تعرّض لها رضوان في المهجر. ومن روائع ما تصف التجربة عند صعوده إحدى ناطحات السحاب لرؤية نيويورك من فوق. هذا المشهد الباهر. يذكّره بتجربة المسيح على الجبل ورفضه لكل ممالك العالم ومغريات إبليس، (متى 1/4 - 11). وكما معلّمه، يرفض رضوان السقوط في التجربة:«لا. لا... إذهب عني يا إبليس. هناك إله واحد أعبده، قرية واحدة، أحبها، ومنزل واحد، ينتظرني عند المقلب الآخر من البحر»[1].

والنتيجة هي بعد كل مشهد وإغراء:«أحسّ فجأة بأنه اتخم! شبع فرجة: بنايات، حدائق (...) وهو الآن مستعدّ للتراجع... للعودة»[2].

ثمّة نداء دائم يهتف لرضوان. ونصرالله تجعله نداءً للموت وليس للحياة. ولكنه الموت الذي يشاؤه رضوان. فموت عن موت يختلف. في الغربة يموت المرء مرّتين. يقول رضوان:«هنا يموت الإنسان مرّتين: مرّة حين تهدأ أنفاسه، ويستريح القلب، (...) ومرّة أخرى عندما يرافقونه إلى مثواه الأخير»[3].

ولكن لماذا يفكّر رضوان بالموت وهو «في أوج الصحّة

---

1 - م.ن، ص 265/6.

2 - م.ن، ص 266.

3 - م.ن، ص 338.

والنشاط»[1]. ما هذا النداء الذي لا ينفكّ يهتف له؟!

علاقة رضوان بالأرض وبالموت في أرضه ليست مجرّد علاقة وجدانية وشوق وحنين. إنها علاقة كيانيّة: حب الأم لابنها، وتعلّق الأخير بأمه، ولا يماثله أو يعوّض عنه أي حبّ آخر: «هناك مَن ينتظرني. حبيبتي تنتظر بشوق، تتّكئ على جبل حرمون، وتفتح لي ذراعَيها بلهفة، لتضمّني إلى حضنها الدافئ... هناك حيث غرست سبعين سنة من عمري»[2].

لم يختر رضوان العودة وحيداً فقط، بل اختار، من حيث يدري أو لا يدري، الموت في وطنه. يريد أن يموت مرّة، لا مرّتين. أن يستطعم ويستلذّ بالموت. «الموت يفقد رهبته وهَوْله. إذا أصاغ السمع وتسرّبت إلى أذنيه أصوات رقيقة محبّة تهدهده ليغفو في خضم الأرض، مثلما يغفو الطفل في حضن الأم»[3]. «وهو لن يبقى ليموت هنا، مهما كانت الرحلة مريحة. يريدهم أن يودّعوه بالهزج والندب الذي يخرج عن النغم التقليدي، ليقترب من مناطق الفرح.

يريد أن يلتقي حوله، كل مَن أحبّهم وأحبّوه في تلك الزاوية الدافئة من الوجود. أن تلتقي حوله النائحات. وترفع الندّابة صوتها تعدّد مآثره، تستسقي الدموع، وتذكر في مناسبة موته

---

1 - م.ن، ص 344.

2 - م.ن، ص 349.

3 - م.ن، ص 338.

الموتى الذين سبقوه، وتدعوهم ليرافقوه، على دروب الرحلة الجديدة»[1].

الموت، كما يراه رضوان ويتصوّره، احتفال يمتزج فيه الفرح والحزن.

ويذكر رضوان ابن عمه شاهين الذي حمل معه الحسّون من حاصبيا وهرّبه إلى كندا. ولكن الحسّون لم يعِش سوى بضعة أشهر. فحلف شاهين أن يدفن حسّونه في تراب حاصبيا. ولما لم يستطع السفر، بقي الحسّون مطموراً في الثلاّجة، بانتظار العودة[2].

فهل يرضى أن يكون كذاك الحسّون؟!

ويصرّ رضوان على العودة. يتّخذ قراره، ولا يحفل بتوسّلات أولاده وزوجته. ويعود إلى قريته، ليخطفه مسلّحون، بعد أيام من بيته، ويقتلوه.

وكان وداعه، كما شاء، مهيباً. بكاه الرجال والنساء والأطفال. وناحت عليه النساء، وندبه الرجال. ولاحظت الداية أم نعمان أن جبين الجثمان كان يتفصّد بالعرق، وأن ثغره افترّ عن ابتسامة. ويعلّق ولدَه: «إن طيف الابتسامة هو رسالة الوالد السرّية إلينا، وإلى مواطنيه».

---

1 - م.ن، ص344.

2 - م.ن، 345/6.

شاء أن يشكرهم، أن يقول لهم أنهم لم يخيّبوه. وأنهم التفّوا حوله بكل الحرارة والحمية، مثلما كان يتوقّع[1].

أقلع رضوان عكس زمنه. وعاد إلى موطنه في زمن كان المقيمون يبحثون فيه عن الهروب. ولكن إقلاعه المعاكس هذا لم يذهب سدى.

عاد ليشيّعه أبناء وطنه ولتحتضنه أرضه. ألم يكن إلى هذا الحضن يرنو ويحنّ؟!.

يخيّل إلينا أن إملي نصرالله تحاول إفهامنا أن رضوان لم يمت لأنه عاد إلى قريته، فقتله المسلّحون. بل هو عاد ليموت في القرية. موته واقع لا محالة. وهو لم يختر الموت. وخياره ينحصر في مكان وفاته لا زمانها. لكأنه أحسّ بقرب النهاية، فأراد أن تنطفئ أيامه حيث رأى النور. أما مقتله بأيدي مسلّحين فحدث عارض. فقبل مغادرته كندا، توفّي هناك صديقه المختار سليم، ورآه رضوان في الحلم:«وتوصّل إلى إقناع نفسه بأن المختار انتقاه، ليبلّغه الرسالة. وهو لن يبقى ليموت هنا، مهما كانت الرحلة مريحة»[2].

وكأن حلم رضوان، وانتقاء الصديق الميّت له من دون الآخرين، هو نداء الآخرة. وإنذار بقرب الرحيل الأخير.

وهكذا من المحطّة الأولى: الساحة، إلى الأخيرة:

1 – م.ن، ص 367/6.

2 – م.ن، ص 344.

الأرض/المقبرة. ترتسم رحلة دائرية من التراب/الأرض وإليه. دورة الحياة، حلقة لا تنتهي. سنديانة ترفض أن تعيش، أو تموت، في غير ترابها. وترى في اندماجها الأخير في هذا التراب ليس مجرّد موت، بل عودة إلى الجذور... وانبعاث.

فؤاد سليمان ومغاور الزمرّد والياقوت

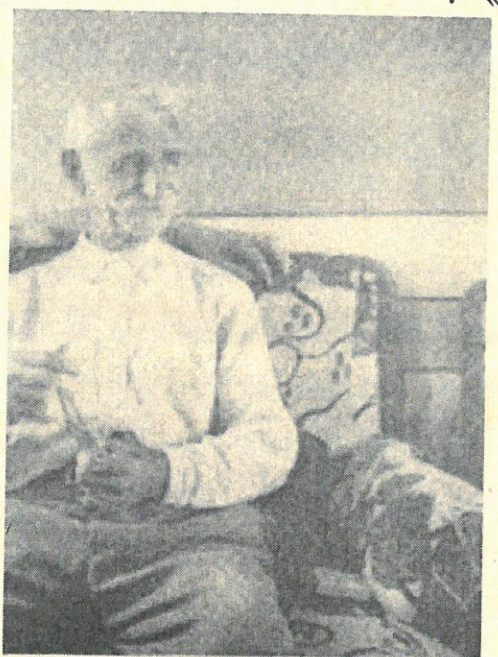
فؤاد سليمان (1912 – 1951)، أديب وصحافي لبناني، قطفه الموت وردة في عزّ تألّقها وتفتّحها. عاش وهو ابن فيع/الكورة، مأساة القرية اللبنانية، ومآسي الهجرة والبيوت التي تفرغ، والحقول التي تجدب. فسكنت كلها وجدانه، وألهبت خياله. فصوّر قلمه هذه المآسي بشاعرية جمعت اللوعة إلى الابتكار. وكان، على قلّة نتاجه، من أبرز الأدباء الذين وفّقوا في الحديث عن الهجرة، لا سيما من جوانبها السلبية، وما تسبّبه من نزفٍ بشري للوطن. ويكاد لا يخلو أي كتاب مما سطّر من شؤون الهجرة وشجونها. لقد اكتوى سليمان بنار الهجرة فعبّر عنها بفيضٍ وجداني واقعي، يجعل اللوعة والمعاناة تنزف حبراً على الورق.

نشأ فؤاد، كما نشأت جوزفين حبيبته ورفيقة صباه وابنة عمّته وزوجته فيما بعد، في ظلّ أمّين بعيدتَين عن والدَين يكدّان في المهجر بحثاً عن الرزق ومغاور الزمرّد والياقوت.

ويحكي فؤاد في أحدى مقالاته عن مأساة طفولته هذه:«لِما

لا يعود والدي يا أمي.

البحر لنا عنده ثارات يا بُنَي، أميركا قلبها من حديد، أكتب له أن يعود»[1].



والد فؤاد سليمان العائد من المهجر

وعاد والد فؤاد سليمان بعد غُربة طويلة التهمت شبابه واستنفدت قواه.

«وفي رصيف المرفأ لقيت والدي...

عاد ذات يوم مع البحر..

1 - سليمان، فؤاد، درب القمر، تقديم ميخائيل نعيمة، بيروت، دار الأحد، ط1، 1952، ص9.

أخذه البحر منا، في الفتوة العنيفة، وفي العنفوان الأشد، في الخطوة الواثقة.

وأعاده البحر، ذات يوم إلينا، على غير ما أخذه منا»[1].

عاد بعد أن فارقته نضارة الشباب وحماسته وعنفوانه، فبكى عمراً قضاه بعيداً عن أرضه وعائلته:

«وكان في عينَي والدي دمعات كبيرة، تركها تتدحرج على خدّيه المجعّدين»[2].



فؤاد سليمان وقريته/غلاف الطبعة الأولى من درب القمر

1 - م.ن، ص 9 - 10.
2 - م.ن، ص 11.

عاش فؤاد سليمان الهجرة التي كتب، وكتب ما عاش منها. فسطّر على الورق عنها فلذات من قلبه ومداداً من دمه.

«ها أنذا منذ سنوات أكتب الحروف من دمي ومن أعصابي لهيباً»[1].

ويحكي فؤاد سليمان قصّة الهجرة على لسان بلبل ذي منقاد أحمر من ضيعته:

«لِمَن تغنّي البلابل، في ضيعتكم، وما في ضيعتكم بعد غصن تحطّ عليه البلابل؟(...).

وفي غدٍ تركب البحر قافلة أخرى من شبابكم وصباياكم.. وتتقفل شبابيك بيت آخر في ضيعتكم إلى الأبد..

وتبقى عجائزكم، تشيّع عيونها على البحر... تتلمّس أيديها الأسرّة المهجورة...

بعضكم في البحار السبعة، وراء القصور المرصودة..

وبعضكم هنا عينه على البحر دائماً»[2].

ويزفر بلبل فؤاد بحسرة «وتسألني ماذا في ضيعتكم؟!

وتسألني ماذاعن ضيَع لبنان تلك الزمرّدات الغاليات المعلّقات في الأعالي؟!

وماذا غير الخراب؟!

---

1 – سليمان، فؤاد، القناديل الحمراء، قدّم له أنسي الحاج، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ط2، 1987، ط1، 1963، ص 45.

2 – سليمان، فؤاد، درب القمر، م. س، ص 25 – 27.

ولو أن للقبور أن تقول لهتفت القبور: عودوا أيها الغرباء إلى ترابي.. فلن تطمئن عظامكم في أرض غريبة»[1].

مايذكّرنا برشيد أيوب الذي يوصي بحفر قبره في كروم موطنه، وزميله ندرة حدّاد الذي يطلب من أصحابه أن يدفنوه في المرج الخصيب حيث يسمع شدو البلبل.

ويختم بلبل فؤاد سليمان قصّة الهجرة بخلاصة حزينة: «هجرَت البلابل القرية بعد أن هجرها شبابها:

ضيعتكم التي على التلّة مرآة تنطفئ...

ولِمَن تغنّي البلابل في القرى المنطفئة»[2].

وتبقى مقالته "مغاور الزمرّد والياقوت" أوفى ما كتب فؤاد في الهجرة. إنها مرثيّة للقرية، ونشيد شجي يبكيها، ويصوّر حالها. وهي في روعتها وتألّقها درّة نتاج تمّوز[3] وذروة ما سُطّر في الهجرة/المأساة.

«وفي ليلة، هبط من الجبال شبابها، خلف الحكاية الحلوة، والحكاية على البحر تمتد وتمتدّ(...).

مواقد النار في الثلوج باردة حتى الصقيع، تنطفئ الجمرات فيها على كفّ شيخة وشيخ يبست فيهما العروق... وحيدين

---

1 – م.ن، ص 27.

2 – م.ن، ص 28.

3 – تموز الاسم البابلي للإله الفينيقي أدونيس. وكان فؤاد سليمان يوقّع مقالاته في جريدة النهار بهذا الاسم.

وحيدين.. إلا من صورة معلّقة في الحيط، وهذه الرسالة تنام تحت المخدّة، فيها ريحة ولد ضاع في البحر»[1].

لم يملّ تمّوز، من إفراغ الأساطير التي تحكي عن الهجرة من مضامينها، وتبيان وهم ما يقال في حسناتها. إنها خرافة الثروة التي تنتظر مَن يقطفها.

«ولكنها في الحكايات أكذوبة رائعة، قصّها البحر مرّة لبحّارة من هنا، أكذوبة عميقة كبيرة من أكاذيب هذا البحر العميق الكبير!!» [2].

واقع الهجرة وبلاد المهجر، نقيض ما يتناقله الشبّان من أخبار وحكايات.

«قل لهم [يا بحر]: إن المغاور التي حدّثُتم عنها مغاور للثعابين والأفاعي، مرصودة من الجان والعفاريت فيها بُرَك من الدماء، وبُرَك من اللهيب»[3].

يبني ابن القرية قصوراً في الأحلام عن الهجرة. وأبراجاً من رمال الشاطئ تمسحها الأمواج. ويتحسّر تمّوز على شباب ضيعته اللاهثين وراء سراب:«ليت دربك يا بحر لم تكن علينا، فقد عمّرنا على دروبك قصوراً مذهّبة القباب، فابتعلت أمواجك قصورنا وأكواخنا... ولم يبقَ لنا إلا هذه الآفاق البعيدة، ننظر

1 – م.س، ص 29 – 31.
2 – م.ن، ص 32.
3 – م.ن، ص 33.

إليها، لعلّ فيها زورقاً يعود لنا بحبيب، من مغاور الزمرّد واليواقيت»[1].

يلحظ غسان شربل في كتابات فؤاد سليمان عن الهجرة قُطبيةً بين الجبل والبحر.«فلبنان لا يقوم على تقابل بين ريف ومدينة، مثلما نرى ذلك في غير بلد، بل على تقابل آخر، أو على صيغة مخصوصة منه، هي بين الجبل والبحر»[2].

وفي تمّوزيات يتابع سليمان حديث الهجرة. بل ويستعيد بعض ما قاله في درب القمر:«وما غصّت أمٌّ مثلما غصّت أمهات بلادي ترمي شبابها واحداً بعد واحد.

على كفّ العفاريت، على الموج خلف الشمس
وحيث لا تصل عين»[3][4].

ولكنه هنا يرى شيئاً من الحُسن في الهجرة، أو يلمّح له. وجهٌ آخر يشبه ما رآه سعيد عقل وشارل قرم:

«ولبنان حكاية حلوة، خلف البحار (...)
لعينيك يا بلادي هؤلاء الفتيان
يزرعونك فكراً وعمقاً وخيراً في المقلب الثاني من الأرض

1 – م.ن، ص 32.
2 – سليمان، فؤاد، بأقلامهم، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ط1، 2001، ص 282.
3 – سليمان، فؤاد، تموزيات، مقطّعات في الأدب والفن والاجتماع، بيروت، لجنة تخليد ذكرى فؤاد سليمان، ط1، 1953، ص39.
4 – درب القمر، م. س، ص 31.

اللهم سبحانك.
مَن قدّر لهذه النصبات الغريبة المقتلعة من هذه السفوح،
وهذه الجبال، مثل هذا الخصب وهذا الفيء.
اللهم سبحانك تحمل البلد الصغير الحلو،
يمدّ أفياءه على ناطحات القباب، وقباب السماء»[1]

وفي القناديل الحمراء، يطلق تمّوز الصرخة عالية ومدويّة، مع يقينه أنها ستكون صرخة في واد.

«كنت أخال أن صوتاً قوياً يَصرخ في هذه الأمّة، يتجمّع في ساعة من الزمن غيوماً سوداء تحمل الرجوم...

وما كنت أظنّ أن صوتي، وصوت العشرات من أمثالي سيذهب في الفضاء دخاناً...

ما أقسى أن تصرخ في الفضاء... وحدَك في بلد يسدّ أذنَيه وقلبه وعينيه، ويمشي على العمى»[2].

ويسأل بحسرة ومرارة:«متى يشبعُ البحر في لبنان؟ إن البحر يلتهم اللبنانيين عيلة بعد عيلة، وقرية بعد قرية!!! وفي البحر نهم لأن يلتهم لبنان أهلاً وصخراً وسندياناً... ويبقى لنا هذا البحر يضرب بأمواجه شواطئ مقبرة مهجورة فيها العظام بالية...» [3].

---

1 - تموزيات، م. س، ص 39 - 40.
2 - سليمان، فؤاد، القناديل الحمراء، م. س، ص 45.
3 - م.ن، ص 23.

البحر البحر، المجرم الجاني، يلتهم البشر ويفتت الحجر. إليه يَؤول بئس المصير.

ما يذكّر بمجنون بسكنتا قرية ميخائيل نعيمة. وكان، وفقاً لهذا الأخير، أوّل مَن تنبّأ بالهجرة وما ستجرّه من مآسي. يقول نعيمة:«كان القدامى يردّدون لنا حكاية مجنون يحمل قصبة ويطوف أحياء البلدة، في كل يوم، منادياً بأعلى صوته. رجالكم. نسوانكم. أولادكم. دجاجكم - عَ البحور، عَالبحور»[1].

"وأَخْوَت [مجنون] يحكي وعاقل يفهم" يقول المثل اللبناني.

ومن المفيد أن تكون لنا وقفة قصيرة هنا عند البحر والجبل، أو بالأحرى البحر وأهل الجبل. علاقة غريبة يجاور الحبّ والولع فيها الخوف والرهبة. لا شك أن الجبلي، واللبناني بشكل خاص الذي يرمق البحر وزرقته كل يوم من أعالي جبله، هو على علاقة مميّزة معه يصعب شرحها. علاقة على مستوى المشاعر feelings تعصى على الكلمات. وهذا العشق "عن بعد" للبحر، يشكّل قوّة جاذبة تنتهي بالجبلي إلى أن يغطس في البحر ويقلع عبر أمواجه. ولبنان هو أوّلاً جبل وبحر. أو وِفق تعبير ميشال شيحا (1819 - 1954) «أن فينيقيا هي البحر أوّلاً. وجبل لبنان هو الجبل، بحكم تحديده، فتمازج الجبل والبحر خلق جمهوريّتنا»[2]. لبنان الحديث الذي نعرفه خليط من جبل وبحر.

---

1 - نعيمة، سبعون، م. س، ج2، ص 96.
2 - شيحا، ميشال (1891 - 1954)، لبنان في شخصيّته وحضوره، ترجمة ←

والخليط هذا خطر بحدّ ذاته. والخطر يكمن في أن الجبلي ستنتهي به أحلامه وتأمّلاته إلى البحر، لا سيما إذا أقفرت أرضه وضاقت به، وغدت أقل خصباً من أرحام نساء الجبل، كما يقول فيليب حتّي[1].

وقد عبّر الشاعر الروسي رسول حمزاتوف عن هذه العلاقة الجدليّة بين الجبلي والبحر بطريقة رمزية غنائية رائعة، إذ قال:

سُئل الجبليّون مرّة:

ما أعذب الأصوات؟

فكّر الجبليّون قليلاً، ثم أخذوا يجيبون:

- رنين الفضّة

- صهيل الحصان

- وقع حوافر الخيل على صخور المضائق

- ضحكة الطفل

- غناء الأم عند المهد

- خرير الماء

إلاّ أن أحد الجبليين قال:

- صوت البحر، ففيه كل الأصوات التي ذكرتم.

وسُئل الجبليّون مرّة أخرى:

- ما أحلى الألوان في النفس؟...

→ فؤاد كنعان، بيروت، منشورات الندوة اللبنانية، ط1، 1962، ص158.

1 - حتي، م. س، ص 575.

فكّر الجبليّون قليلاً، ثم أخذوا يجيبون:

- السماء الصافية.

- قمّة الجبل المكلّلة بالثلوج

- عينا الأم

- شعر الإبن

- صفصاف الخريف

- ماء العين

إلاّ أن أحد الجبليين قال:

لون البحر، ففيه كل الألوان التي ذكرتم»[1]

وهكذا فالبحر، لابن الجبل، كل شيء: الثروة، والأم، والولد... مزيج من كل ما يحلم به وكل ما هو ساحر وجذّاب. ولعلّ في هذا التعبير السحري بعض ما يفسّر ولع أبناء جبل لبنان في البحر وتهافتهم عليه.

أما فؤاد سليمان فلم يرَ فيه سوى مجرم يلتهم أهل القرى ولا يشبع.

ويدقّ تموز ناقوس الخطر معلناً بجرأة ومرارة:«الهجرة اللبنانية خراب ودمار. وتكاد الهجرة اللبنانية أن تكون عاراً على

1 - صليبا، د. لويس، مقامات الصمت والمدن المقدّسة مع ملحق عن اليوغا والصمت، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2008، الباب الثالث، قصيدة يا بحر يا أبتاه.

شعبنا وحكوماتنا!» [1].

ويبدأ سليمان بتوجيه أصابع الملامة، بل والاتهام. وهو وإن جرّم البحر وادّعى عليه، فلم تفته الدوافع السياسية والاقتصادية والطائفية التي تحمل أفواج شباب لبنان على الرحيل.

وتبدأ لوائح الاتهام: الحكومات المتتالية مسؤولة ، فهي لم تفعل شيئاً للحدّ من الهجرة:«وإن حكومات تترك شعبها، وأنبل ما في شعبها من الشباب، ينقذف هكذا، على كفّ العفاريت، إنما هي حكومات كسيحة العقل»[2].

والصحافة متّهمة، بل هي مسؤولة وجريمتها موصوفة. فقد زيّنت للشباب الرحيل، وقصّت عليهم ما يستهويهم من أساطير عن مغاور الزمرّد والياقوت «إن صحافة تتغنّى بأمجاد اللبنانيين في المهجر، فيندفع الشباب على غنائها، يبحث عن "الأمجاد"، إنما هي صحافة مجرمة»[3].

والخلاصة أن الهجرة جريمة بحدّ ذاتها. ويورد فؤاد البيّنة على ذلك. فمن قريته الصغيرة وحدها ومن بين أهلها الذين لا يتجاوز تعدادهم الأربعمائة، بما فيهم العجائز والأطفال، ركب البحر في سنة واحدة خمسون شاباً. وهو رقم كبير. ويضيف تموز «وفي غد يقولون لي سيركب البحر قافلة جديدة، وتصبح

---

1 – م.ن.
2 – م.ن، ص23.
3 – م.ن، ص 23/4.

قريتي الصغيرة مقبرة لبنانية كبيرة»[1].

وفي مقالة أخرى، يضع تموز الإصبع على الجرح.

فالهجرة والمغتربون أسطورة خرافيّة. وعبثاً نحاول أن نجعل منهم غير ذلك، أو أن نعيدهم إلى لبنان. ولكن، وعلى الأقل، لنعمل شيئاً يمنع الباقين من اللحاق بهم. ولا يقع اللوم والمسؤولية على البحر وحده. الحكم والحكومات، والسياسة والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، كلّها عوامل تقذف باللبنانيين إلى البحر. لكأن فؤاد سليمان يكتب في يومنا هذا، فبعد أكثر من نصف قرن: الأسباب هي، هي. ولا شيء تغيّر في هذا الوطن التعيس:«ماذا يفعل الإنسان في وطن لا يجد فيه رغيفاً يأكله، وماءً يشربه، وقميصاً يلبسه؟!»[2]. والطائفية والعشائرية التي شكا منها تموز هي، هي. تكبّل الوطن وتشتّت أبناءه:«ماذا يفعل الإنسان في وطن تتنازعه الطوائف، والأحزاب والعائلات، فلا يبقى منه للشعب غير التراب اليابس؟؟»[3].

وأين هي البُنى التحتيّة الصحيّة والتربويّة المؤمّنة للمواطن:«ماذا يفعل الإنسان في وطن يبصق الدم فيه ليعلّم أولاده، أو ليُلبسهم حِذاءً في يوم عيد؟؟»[4].

---

1 – م.ن، ص 24.
2 – م.ن، ص 26.
3 – م.ن.
4 – م.ن.

والطامّة الكبرى، هي هي، في زمن فؤاد سليمان وفي يومنا هذا بعد ستين عاماً من زمنه. إنها البطالة:

«مآسي **البلد اللبناني** طويلة، وأفجعها وأقساها وأمرّها **مأساة البطالة**»[1].

وكما بالأمس في أواسط القرن التاسع عشر، وبعد قرن في أواسط القرن العشرين وإلى اليوم:«البطالة تنتزع شباب لبنان، من تراب لبنان، لترمي بهم على كفّ العفاريت، في أدغال أفريقيا وغابات البرازيل، وأنفاق نيويورك... ليفتّشوا عن رغيف وعن كساء، وعن حذاء»[2].

نقرأ فؤاد سليمان الآن، وكأننا نقرأ مقالاً نقدياً في جريدة اليوم. فهل هو أدبه الرؤيوي الذي يبقى طازجاً؟! أم هو وضعنا وبلدنا الذي يدور في حلقة مفرغة من المشاكل والمآسي؟! أدب فؤاد سليمان مؤشر وبوصلة، يُعلمنا أين نحن. فمنذ ستة عقود وأكثر، ومقاربتنا لحل المشاكلّ تراوح مكانها، بل وتتراجع إلى الوراء.

لقد وضع فؤاد سليمان، يده على جرح الوطن، بل جراحه، ومن دم الجراح هذه سطّر قلمه الكلمات، مشخّصاً الداء، وواصفاً الدواء.

ولكن للجدران آذان حيناً في بلدنا تتجسّس على الناس،

1 - م.ن، ص 29.

2 - م.ن، ص 29.

وللآذان جدران أحياناً، فلا مَن يسمع ولا مَن يهتمّ.

ونحن، كما يبدو، نسير إلى مزيد من المشاكل والمآسي.

فهل تصدق نبوءته المرعبة يوماً؟:«شدّ ما أخشاه أن يأتي يوم لا يبقى فيه، في لبنان، غير المقابر البيضاء، ترقد صامتة تحت أفياء أشجار السرو الرماديّة»[1].

وهل اقتربنا من ذاك اليوم الرهيب؟!

الهجرة ملحمة الإغتراب اللبناني

الهجرة عملة ذات وجهَين، وإذ كان الفريق الأول من الأدباء الذين عَرَضنا لنتاجهم لم يجد فيها غالباً إلا المأساة. فثمّة فريق آخر لم يرَ، أو لم يرد أن يبصر سوى الوجه المشرق. أهي، كما يقول المثل اللبناني، كوب من الماء، ففريق لا يرمق سوى النصف الفارغ وآخر لا يلمح سوى النصف الملآن؟!.

ليس هذا بالضبط. ففؤاد سليمان كما رأينا يذكر في تموزيات العديد من إنجازات المغتربين ويشيد بها. ولكن الفريق الثاني والذي سنعرض له هنا لم يلحظ في الهجرة سوى وجه مشرق وإنجازات. بل وأكثر من ذلك، فقد نسج خيوطاً ربطت بين الهجرة الحديثة التي بدأت في النصف الثاني من القرن

1 - القناديل الحمراء، م. س، ص 26.

التاسع عشر (عهد المتصرفية بشكل خاص) والهجرات القديمة أيام الفينيقيين والوسيطة. وأخرج من نسيجه هذا ما عُرف بِ "ملحمة الاغتراب اللبناني". وهذا المصطلح كم تكرّر في أدبيات المقيمين ومنظّري الكيان اللبناني والقومية اللبنانية. وغدا عنواناً لعدد من الكتب والملاحم الشعرية[1]. إنها محاولة تعيد ترتيب، بل وتركيب، التاريخ وتجمع بين الأسطوري (قدموس وديدون) الخ... والواقعي منه لتضع تاريخاً للبنان الكيان الناشئ يخدم استقلاليته وتميّزه في محيطه.

وأبرز ممثّلي هذا التيار في الأدب اللبناني شارل القرم (1894 – 1963) وسعيد عقل (1912 – ....).

أما أبرز منظّريه فميشال شيحا (1891 – 1954).

شيحا منظّر ملحمة الاغتراب

ميشال شيحا أحد واضعي الدستور اللبناني ومن أبرز منظّري الكيان، وشقيق زوجة الشيخ بشارة الخوري أول رئيس لبناني في عهد الاستقلال. وأحد مؤسّسي بورصة بيروت. كاتب وشاعر باللغة الفرنسية وصاحب جريدة لوجور *Le jour*.

1 – أنظر مثلاً: نجم، جميل رشيد، ملحمة المغترب اللبناني، قدّم له الخوري بطرس ضَو، بيروت، مطابع الرعيدي، لات.

ميشال شيحا

يربط شيحا الهجرة اللبنانية الحديثة بالهجرات من لبنان عبر تاريخه ومنذ أيام الفينيقيين، وهي ثابتة من ثوابت هذا التاريخ، وعبثاً نحاول وقفها. بل علينا بالأحرى الإفادة منها:«والمستقبل يتبدّى للبنانيين تحت شعار الحركة، كما لم يتبدَّ قط. ولا قبل لنا، ما لم نركب رأسنا، بمنع قومنا عنوة من الارتحال، لأنّنا إذّاك نجلب الضيق لذاتنا، ونتعمّد إثارة البلبال»[1].

وينظر شيحا إلى الهجرة من زاوية إقتصادية، فينوّه بما

1 – شيحا، ميشال (1891 – 1954)، لبنان في شخصيّته وحضوره ترجمة فؤاد كنعان، بيروت، منشورات الندوة اللبنانية، ط1، 1962، ص 150.

تدرّه على لبنان من مداخيل وعملات صعبة:«ولعمري إن شعباً يستمدّ من الخارج سبعة أثمان موارده، لا يعقل حصره ضمن سياسة إقتصادية مقفلة تتمذهب بالحماية والتفتيش»[1].

ومع ربط شيحا الهجرة بتاريخ لبنان وموقعه، فواقعيّه رجل الاقتصاد تجعله يرى فيها، في نهاية 1951، مدعاة قلق، يقول:«ولبنان في حالته الراهنة، يشقّ عليه أن يرسّخ أبناءه في أرضه. فها إن الهجرة، وهي تطرّد منذ عهد الفينيقيين، ولو أنها كُبحت إلى حين، ها إنها تعود لتصبح مدعاة قلق»[2].

والمقاربة الاقتصادية للهجرة هي ركن نظرة شيحا إليها. وهي الفيصل في حكمه الإيجابي عليها. ويستشهد بالمؤرّخ الإنكليزي الشهير أرنولد توينبي الذي يقارن بين هجرة لبنانيي اليوم وهجرة أسلافهم الفينيقيين. يقول توينبي:«قيّض لجبليي لبنان، في العصور الحديثة، أن يجاروا المآثر التاريخية التي أُثرت عن أهل صور وأرواد، فسعوا للرزق في ديار الغربة، ووجدوا سبل عيشهم في البيع والشرى، بعيداً وتحت كل سماء»[3].

ويعقّب شيحا على كلام توينبي:«الاقتصاد اللبناني كلّه يكمن، هنا، في أسطر المؤرّخ الإنكليزي الكبير» ويخطّ تعقيبه

---

1 – م.ن، ص 151.
2 – م.ن، ص 142.
3 – م.ن، ص 170.

هذا بالبنط (الحرف) العريض، تأكيداً عليه. ويكمل شيحا استشهاده بِ توينبي الذي يقارن بين اللبنانيين وجيرانهم سكّان جبال العلويين شمالاً وفلسطين جنوباً. وهي مقارنة تشمل الزمن المعاصر وعهد الفينيقيين، يقول توينبي:«ويبدو، في ضوء السوابق المحلّية، أن الذي أفضى باللبنانيين إلى مجاراة أسلافهم الفينيقيين، إنما هو القحط الذي مُنيَ به جبلهم، بينما نرى أن طيبة جبال العلويين، في الشمال، قد عوّدت النصَيْريين عيشاً متراخياً، تراخي عيش الفلسطينيين في الجنوب».

وينطلق توينبي من هذه المقارنة في العصر الحديث إلى مقارنة تاريخية مماثلة بين الفينيقيين وسكّان فلسطين تعود إلى ما قبل الألف الأول ق. م. يقول توينبي:«فيما كان الفلسطينيون يرعون ويرتمّون ارتمام الخراف في ساحل فلسطين، ويتوغّلون حذرين نحو الداخل، بحثاً عن كلأ جديد، كان الفينيقيون يتخطّون أفقهم البحري، المقتصر، حتى ذاك، على حدود التجارة الساحلية بين بيبلوس ودلتا النيل، فيمخرون عباب اليمّ وينشئون للحضارة السريانية وطناً ثانياً في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وما وراءه من شطوط المحيط»[1].

ويعقّب ميشال شيحا على مقارنة توينبي هذه، وبالقلم العريض أيضاً، مؤكّداً على أهميتها الاستثنائية، فيقول:«المصير

---

1 – م.ن، ص 170/1.

اللبناني كلّه: سياستنا، صناعتنا، تجارتنا، سياستنا النقدية والمالية، كلّها تكمن في مقارنة توينبي هذه»[1].

وينطلق شيحا من هذه المقارنة ليفلسف الهجرة اللبنانية عبر الأجيال، رابطاً بين حلقاتها التي تمتدّ عبر آلاف خمسة من السنين. يقول:«ومن هذه المقارنة أراني أمتشق محوراً لَموضوعي، لأن الحضور اللبناني الحقّ هو هنا. فابن هذي البلاد إن يهجرها دونما تردّد، فلفرط ما تشغفه التجارة والأسفار. لكنه إذ يهون عليه هجرها، كما لا يهون الهجر على أحد سواه، لا يفتأ، في الحل والترحال، يتأوّه ويحن إلى قريته، وإلى أرض له جحداء. هذه حاله منذ أربعة أو خمسة آلاف عام، أي منذ اتجه هذا الساحل بنشاطه إلى البحر وما وراءه من بلدان، ومنذ أمسى تكاثف السكّان في هذه البلاد منوطاً بخصب البحار»[2].

الهجرة في قاموس شيحا هي مورد الرزق الأساسي للبناني، فبلده خالٍ من المناجم والمواد الأوّلية. يقول«فمن الحضور اللبناني في الغربة، يستمدّ هذا البلد الخالي من المناجم والموارد الأوّلية وسائل عيش رحبة. ويستمدّها كذلك من سعي في البعيد لا يكلّ، ومن ذكاء مرن وحدّة فؤاد، ومن أهليّة للسفر وخفّة في الانتقال»[3].

1 – م.ن، ص 171.
2 – م.ن.
3 – م.ن.

ويستشهد شيحا بالموسوعة البريطانية التي تورد عن الفينيقيين:«التجّار الفينيقيون وحدهم استطاعوا أن يحافظوا على تجارة رابحة، في أزمنة الفوضى، أيام السلالتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين (825 – 650 ق. م). بينما استبدّ الخوف بالتجّار الأُخر فولّوا متوارين»[1].

ومن استشهاداته الإنكليزية هذه، يخلص شيحا إلى القول أن الهجرة في لبنان حتميّة تاريخية/اقتصادية. ومن العبث مقاومتها. فذلك يعني محو الماضي، وإقفال أبواب الرزق في الحاضر والمستقبل. يقول:«فلكي نأبى على لبنانيي عصرنا ميلاً إلى الترحال لا مثيل له، ينبغي محو الماضي برمّته، بل ينبغي أن نتخيّل سواحلنا التي نشّأت ذلك العنصر الجوّال، قد فقدت مزاياها ورياحها الدروج. وإنه لَمِن الحمق أن ندّعي حصر هذا البلد وهذا الشعب بين جذُر الاقتصاد العصري، تلك الجدر المتداعية على كل حال. إن أكثر اللبنانيين موهبة وأشدّهم مراساً يكسبون عيشهم بعيداً عن أرضهم، أو بفضل خدمات تكاد تكون غريبة عن إيراد أرضهم. فهؤلاء حضورهم عالمي، مثلما هي خدماتهم. والحكمة تقضي باحترام نمط عيشهم والعمل على تيسير سبله، فهو النمط الذي عاد عليهم بالمكانة والنفوذ في التجارة عبر

1 – م.ن، ص 172.

القارّات»[1].

ونمط العيش هذا، وإن كان محفوفاً بالأخطار، فهو ما عاد على لبنان بثرواته، وفق تحليل شيحا. أما مَن يظنّ أن لبنان يستطيع، لتأمين معيشة أبنائه، أن يعتمد على الزراعة وعلى سياحة العرب المجاورين له، فهو لم يفقه من لبنان شيئاً. يقول شيحا:«نمط العيش هذا، الذي يبرّر حب المجازفة، ويشهد بأن الشجاعة تكافئ، فات الأوان على اعتباره حافلاً بالأخطار. فالذين لم يدركوا بعد أن لبنان، إذا هو قصر عيشه على الزيتون والجبن، وعلى الزُبن [الزبائن] الذين يؤمّونه من دني جواره، ليموتنّ سياسياً واجتماعياً، هؤلاء لم يفقهوا شيئاً من لبنان. إنهم يهيمون في نظريات ما أبعدها عن نفسية هذا الشعب وتقاليده، أو لعلّهم سجناء فكرة سياسية، إن هي سيقت إلى قصدها شكّلت خطراً حتى على ذاتية لبنان»[2].

في اعتماد لبنان على الزراعة والثروة الحيوانية وسياحة عرب الجوار فقط، موت سياسي واجتماعي لهذا البلد، كما يرى شيحا.

ومقاربة شيحا للهجرة لا تقتصر فقط على العامل الاقتصادي والخلفية التاريخية. فللعامل الجغرافي، وموقع لبنان دوره الفاعل في هذه الظاهرة يقول:«إن فينيقيا هي البحر أولاً.

1 - م.ن، ص 172/3.

2 - م.ن، ص 173.

وجبل لبنان هو الجبل، بحكم تحديده، فتمازج الجبل والبحر خلق جمهوريتنا»[1] هكذا يحدّد شيحا لبنان ويراه.

أما تراجع الهجرة في عهد العثمانيين، فيعود إلى إقفالهم للبحر، نتيجة خوفهم منه:«خلال سيطرة العثمانيين، الذين كانوا يخشون البحر، فأغلقوه، تغلّب الجبل على البحر. وفي عهد خلفاء سليمان القانوني سدّت السلاسل المرافئ. فأصبح الجبل ملاذ الحرّيات، وكانت نقطة انطلاق الشعوب»[2].

وموقع لبنان، يراه شيحا مُغرٍ وخطرٍ في آنٍ معاً. ولا يتيح لأهله أن يرجوا أكثر من استقرار نسبي، يقول شيحا «فهو ملتقى قارّات ثلاث، ومركز المحور منها، ويشكّل بالتالي ممراً يسيطر على شبكة مواصلات عالمية، كان مَن هو أقوى منا، ولا يزال يطلب إلينا سلوكه، في أيام السلم، وفي أيام الحرب على السوءا»[3].

ويربط شيحا بين عاملَين متناقضَين في الظاهر: موقع لبنان ودوره كملجأ للمضطّهدين، وبين الهجرة كنتيجة لهذَين العاملَين. «ومن غريب المتناقضات، أن يغدو لبنان، مع الخطر الذي ينجم

1 - بسترس، أفلين، ميشال شيحا في محاضراته، مجلّة الحكمة، عدد خاص عن ميشال شيحا، نوار وحزيران، 195، ص 133.

2 - بسترس م، س، ص 133.

3 - كنعان، جورج، شيحا والواقع اللبناني، مجلة الحكمة، م. س، ص 137.

عن موقعه كممرّ، ملجأ لكثير من المضطهدين والمنبوذين»[1].
ويعلّل شيحا ظاهرة لبنان/الملجأ. فأسبابها عديدة وأبرزها:

1 – طبيعة لبنان الجبليّة حيث يستطيع الإنسان أن يتحصّن ويدافع عن نفسه.

2 – انفتاح لبنان على البحر.

3 – اهتمام الدول بشؤونه نظراً لموقعه.

أما نتيجة ظاهرة لبنان/الملجأ، فهي أوّلاً الهجرة كما يقول شيحا. وذلك «لضيق مساحة لبنان عن استيعاب هذا التضخّم في عدد سكّانه، بفعل اللاجئين إليه»[2]. وهذا الربط بين لبنان الجاذب للغرباء والمضطهدين، والطارد لأبنائه بفعل هذا الجذب، في نظرة شيحا إلى الهجرة، يبدو أمراً واقعياً وتحليلاً مبتكراً لظاهرة الهجرة وأسبابها. ونحن اليوم نعاني منه، كما لم نعانِ في السابق، فالوطن يضيق بالغرباء والطارئين من لاجئين فلسطينيين وغيرهم. ويدفع هذا الضيق بأبنائه إلى الخارج. ولعلّ هذا الجانب في مقاربة شيحا للهجرة هو الأكثر آنية وواقعيّة.

ويتوقّف شيحا في عرضه للهجرة وإيجابياتها عند قول للمؤرّخ جان لويس ڤودوايه عن نشاط الفينيقيين: «إن منابع ثروة صور، كانت في أقاصي المعمور»[3] ويعلّق شيحا: «إنها جملة

1 – م. ن.
2 – م.ن.
3 – بسترس م، س، ص 136.

صغيرة كبيرة يحسن بنا أن نقف معاً عندها. فهي تحدّد لبنان تحديداً رائعاً. إن الشاعر قد رأى في ومضة عين أكثر مما رآه العلاّمة الاقتصاي وأشار، بكلمة، إلى مواقع للذهب قصيّة خافية. وبيّن الوضع اللبناني، ولم يحفل بانتفاء الصادرات. فتحقّق أن بائع الأفكار إنما هو بائع كسواه، بل إنه بائع أكثر استئهالاً من سواه»[1].

"بائع أفكار" اللبناني المهاجر بائع مميّز، يبيع الفكر، يعلّم الناس. مقولة شدّد عليها سعيد عقل في نثره وشعره «نحن معلّمو معلّمي العالم يقول»، وسفن الهجرة تقلع من موانئ لبنان محمّلة الفكر إلى العالم. يقول عقل شعراً في قصيدة رجوع البحّارة:

إلى البلد الوادع الأسمر
نسيج الأساطير والذكريات
وأغنية السفن المقلعات
محمّلة الفكر للكائنات
وللأعصرِ[2]

ويختم شيحا عرضه بالتأكيد على أن موارد رزق اللبنانيين الأساسية تأتي من الخارج والهجرة، دون أن يعني ذلك إهمال الزراعة في الداخل: «أما نحن فنقول بدورنا مع عزمنا على

1 – شيحا، م. س، ص 186.
2 – بقاعي، إيمان يوسف، سعيد عقل الإبحار إلى فينيقيا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1995، ص 82.

حراثة أرضنا لجعلها أجمل حديقة في العالم "إن منابع ثروة لبنان ما تزال في أقاصي المعمور"».

وهكذا نجد ميشال شيحا منظّر الهجرة ومفلسف ظاهرتها وحسناتها بامتياز.

وثمّة العديد من الملاحظات التي يمكن أن تُساق على نظرة شيحا ومقاربته للهجرة.

لعلّ أبرزها أنه يبني مقولته عنها على أنها مصدر الرزق الأساسي للبنان وأهله. ولكنه إثباتاً لفرضيّته هذه لا يقدّم أرقاماً وإحصاءات آنية ومعاصرة غالباً، وإنما يركّز على العامل التاريخي الذي يعود إلى أيام الفينيقيين. فإن صحّ أن مستعمرات الفينيقيين وتجارتهم كانت مورد رزقهم الأساسي، فهل يكفي ذلك لإثبات أن المهاجرة والاتجار في الخارج هي ثروة لبنان المعاصر. عملية إسقاط للماضي السحيق على الحاضر والمستقبل. مع مسافة ألوف من السنين تفصل بين الزمنَين والحقبتَين.

فالناس قد اختلفوا وكذلك الظروف والزمن إلخ...، وهل يصلح آخر الأمة، بما صلح به أوّلها؟!.

وماذا لو وضعنا نظرية شيحا على محكّ الواقع، وبعد أكثر من نصف قرن من إطلاقها. فإذا كانت الهجرة قد ردّت على لبنان مبالغ من الأموال والتحويلات. فقد جرّت عليه الكثير من

الوَيلات، ليس أقلّها إفراغ الوطن من أهله وخيرة شبابه وأدمغته المفكّرة، ويده العاملة، وأمل مستقبله.

ينظر شيحا إلى الهجرة من زاوية شبه وحيدة، ألا وهي تحويلات المهاجرين إلى الوطن الأم. ولكن ما الذي يكفل دوام تدفّق هذه التحويلات؟ وبالنسب الضرورية لإثراء الوطن وتغطية حاجات المقيمين. جاء في دراسة أجرتها الجامعة اليسوعية في لبنان بإشراف د. شوجيك كسباريان على المهاجرين من لبنان منذ 1975 حتى نهاية 1999، أن 75.8% منهم لا يرسلون أية مساعدة لعيالهم في لبنان[1]. وهذا الرقم إن دلّ على شيء فعلى هشاشة الرأي المعوّل على تحويلات المغتربين كركن أساسي في الاقتصاد اللبناني. لأن هذه التحويلات، على أهمّيتها ودورها، ليست ثابتة وتتغير مع الزمن والبعد ومدى التعلّق والانتماء...إلخ.

لا شكّ أن نظرية شيحا تمزج بعض المعطيات التاريخية/الجغرافية بقراءة خاصة للتاريخ والماضي تمتزج الوقائع فيها بالأسطورة. لتخرج بفلسفة أو بالأحرى إيديولوجيا للكيان الناشئ والحديث الاستقلال. وهو ما طوّره وفصّله زملاء شيحا: شارل القرم وسعيد عقل وغيرهما في قوالب أدبية

1 – فرشخ، جورج، اقتراع المغتربين، دراسة ولوحات مهجرية، بيروت، بيسان للنشر، ط1، 2006، ص 173.

وشعرية تستلهم هذا الخط الفكري. وهذه النظرة القومية التاريخية الإيديولوجية للبنان وهذا ما سنعرض له.

شارل القرم يستلهم الجبل

شارل القرم أديب وشاعر لبناني كتب باللغة الفرنسية. ولد في بيروت، وأصدر المجلّة الفينيقية عام 1920. وكان واحداً من أربعة أصدقاء هم روّاد الحركة الشعرية بالفرنسية في لبنان: شارل القرم، إيلي تيّان، هكتور خلاط وميشال شيحا. وكان على رأسهم شارل القرم. وهو أصغرهم سناً. جمع بينهم حب لبنان حتى الهَوَس، والنضال في سبيل الحرية، والثقافة الفرنسية العميقة، والطموح الأدبي الكبير[1].

ومن مؤلّفات شارل القرم الفن الفينيقي (1938). سنفونية النور، 1944. سر الحُبّ (1948)، وهو ديوان شعر من وحي مريم المجدلية التي رأى فيها الشاعر رمز افتداء النفس البشرية الساقطة بالخطيئة. وقد أنقذت بحب الله[2]، كُتب الديوان أثناء الحرب العالمية، وكان سعيد عقل قد أصدر 1937 ديواناً في الموضوع عينه عنوانه المجدلية.

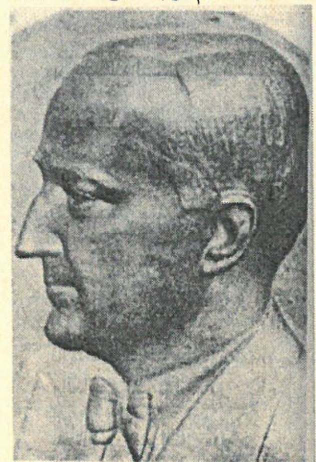
وما يهمّنا من مؤلّفات القرم الجبل الملهم الصادر عن

1 - جبر، جميل، شارل القرم، شاعر الجبل الملهم في سيرته وآثاره، بيروت، منشورات المجلة الفينيقية، ط1، 1995، ص 25.

2 - م.ن، ص 65.

المطبعة الكاثوليكية عام 1934. وقد ترجمه إلى العربية الأب أسطفان فرحات، وأضاف إليه العديد من الحواشي ووضع معجماً تاريخياً للأعلام والأماكن المذكورة فيه بإشراف المؤلّف[1].

يقول القرم عن دوافع تأليف ملحمته الشعرية الجبل الملهم:«علينا أن نغرس في قلب النشئ الجديد الأخلاق السامية، ونذكي في صدورهم جذوة الأمل والثقة. وإني لا أرى أفضل وسيلة لبلوغ هذا من بذر محبة لبنان في قلوبهم، وبالتغنّي بمحاسنه وجماله، وحضّهم على إحياء ذكرى مجد الجدود، والإشادة بأعمالهم، ليقتدوا بهم ويتمّموا العمل»[2].



شارل قرم

1 - القرم، شارل، الجبل الملهم، ترجمة الأب أسطفان فرحات، تقديم إبراهيم المنذر، بيروت، منشورات مكتبة الفويّة، ط1، 1945.

2 - م.ن، ص ب.

الجبل الملهم إذاً جزء من إعادة كتابة تاريخ لبنان ونسجه بما يتوافق مع متطلّبات الحفاظ على الكيان الناشئ.

ونال القرم على ديوانه جائزة إدغار بو الدولية للشعر الفرنسي سنة 1935، وكان بين المتبارين 128 مرشحاً من 14 بلداً. كما نال وسام الاستحقاق اللبناني المذهّب من الدرجة الأولى. وقال عنه الناقد الفرنسي م. شيڤالييه:«الجبل الملهم الرائع يبدو لي كأحد أبرز الأعمال الأدبية في عصرنا»[1].

وما يهمّنا من ملحمة القرم هنا هو تناولها للاغتراب اللبناني. وكيف فهمته وفلسفته.

تبدأ ملحمة الاغتراب عند القرم منذ العهد الفينيقي القديم:

«لم يبقَ مَن يسمع يا لغة الأجداد

حديث الأسفار عن بحّارة بيبلوس وإرواد

وأغاني الجذّافين، وأناشيد الكهنة

من حدود النهر الكبير، حتى جبل الكرمل»[2].

وفي قصيدة الرسالة اللبنانية القديمة، يبدأ القرم بذكر أوائل المهاجرين القدماء: قدموس[3] شقيق أوروبة[4] ابنة ملك صور التي خطفها جوبيتار. يقول:

1 - جبر، م. س، ص 37.

2 - م.ن، ص 14 - 15.

3 - قدموس، اسم من جذر سامي في الفينيقية والعبرية "قِدم" تعني الشرق فيكون معنى قدموس الشرقي أو القادم من الشرق، حتى ص 144.

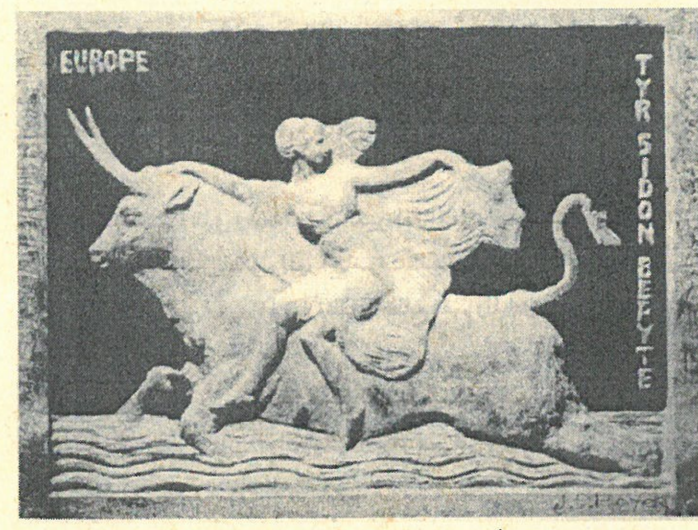
4 - أصل الاسم الفينيقي عُربا، ويعني الغرب.

وإن ابنه قدموس ذلك الشاب المغوار

قد لحق بالهاربين ولمّا يرجع

واستولى على بايوسي

وبنى طيبة مسقط رأس بندار[1][2]



أوروب راكبة الثور (الإله زفس)

ويتحدّث القرم عن البحّارة الفينيقيين بناة المستعمرات في أفريقيا وأوروبا ومعلّمي الأبجدية لشعوبها:

1 - بندار ولد 520 ق.م. في سينو سيفال من أعمال طيبة الفينيقية. من أبرز مؤلّفاته قصيدته الموجّهة إلى تيرون في كتابه الأولمبيك الثاني. ويسهب فيها الكلام عن قدموس الفينيقي مؤسس طيبة ومعلّم الأبجدية لليونان.

2 - م.ن، ص23.

«لم يرجع إلينا أحد، لا التلاميذ، ولا المعلّمون العظماء

ممّن خرقوا حرمة خطّ الاستواء

لا ولا أحد من ملاّحينا طوافي البحار المشاهير

الذين يشبهون أبطال الأساطير»[1].

والفينيقيون هم مكتشفو رأس الرجاء الصالح قبل البرتغاليين وفاسكودي غاما بألفَي عام. بل ومكتشفو أميركا أيضاً قبل كولومبس. يقول:

«وإن روّادنا – والأمر تاريخياً مقرّر

رادوا أفريقيا ذهاباً من البحر الأحمر

قبل البرتغاليين بألفين من السنين

وهم غير تعبين

واستخرجوا من جزر بريطانيا القصدير

وإن مُفتتحينا مخضوا الزبد

من شواطئ مكدور إلى شواطئ پاناما

قبل أن يذوق كولمب حنظلها الأشد

وقبل فاسكودي غاما»[2].

ويصل القرم إلى إليسار/ديدون بنت صيدا وبانية قرطاجة

---

1 – م.ن، ص 26.

2 – م.ن، ص 28/9.

التي يروي حكايتها ڤرجيل في ملحمة الإنياذه. يقول:

«حدّثنا يا ڤرجيل حدّث مشاهير المشارق والمغارب

عمّا في قرطجنّة من العجائب

وعن حب ديدون[1]

كيف أنها من أجله: نزلت عن عظمة صيدون

وكيف أن آنيه[2] الطروادي الجميل ولد من دماء أعراقنا

في البلاد اللاتينية

روميس وروميليس

فإنه كان منا لأن أمه الفينيقية

هي ڤينيس»[3].

ويمضي القرم فيتحدّث عن عظماء الفينيقيين أو المتحدّرين من أصل فينيقي: هانيبال، أباطرة الرومان الفينيقيّ الأصل.

«لقد قدّمنا لرومة قياصرة وأمهات قياصرة وزوجات

---

1 – ديدون، اسم روماني للملكة إليسار الفينيقية، وقد ورثت مع أخيها بيكماليون العرش عن أبيها. ولما تزوّجت ديدون أرسرباس قتل أخوها زوجها ليستولي على ثروته العظيمة. فاضطرت ديدون إلى الهرب بهذه الثروة إلى أفريقيا. فاشترت أرضاً في تلك البلاد وأسّست فيها قرطاجة.

2 – أمير طروادي. أمه فينيقية واسمها ڤينيس. وهو والد روميس وروميلس مؤسسا روما.

3 – م.ن، ص 29.

قياصرة ولطالما صدّرنا رجالاً عظاماً جديرين بعظمتنا»[1].

ويصل القرم إلى العصور الوسطى، فيتحدّث عن جبرائيل الصهيوني (إهدن 1577، باريس 1648) الذي نُقش اسمه على مدخل الكوليج دو فرانس *Collège de France*. وإبراهيم الحاقلاني (حاقل/جبيل 1594 – روما 1664). والموسنيور السمعاني (طرابلس 1687 – روما 1768).

يقول القرم:

«أيتها اللغة، قولي لنا: إن جبرائيل الصهيوني المتضلّع من اللاتينية، الذي علّم في اللوفر والفاتيكان

قد كان عالماً مارونياً هاجر من لبنان

وأن الأستاذ الشهير إبراهيم الحاقلاني

الذي علّم في كلية فرنسا

قد لخّص في كتابه الشهير خلاصة علم الأديار

وأن السمعاني

الذي نقل إلى اللغة اليونانية واللاتينية الفصحى

تآليف علمائنا الأقدمين

كان مدير مكتبة الأحبار الرومانيين»[2].

---

1 – م. ن، ص32.

2 – م.ن، ص 46.

EN 1642
ICI DEMEURA
LE SIEUR GABRIEL SIONITE
MARONITE DU LIBAN
PROFESSEUR D'ARABE
AU COLLÈGE DE FRANCE

لوحة وضعتها بلدية باريس، حيث كان يقيم جبرائيل الصهيوني، تكريماً لذكراه

ومن العصور الوسطى يصل القرم إلى العصر الحديث، فيذكر عظماء المهاجرين وإنجازاتهم.

خليل غانم (1846 – 1903) عضو مجلس المبعوثان الذي قاوم استبداد السلطان عبدالحميد، فنفاه. وانتقل إلى باريس، حيث أرسلته الدولة الفرنسية إلى تونس والجزائر كسفير يفضّ النزاعات بين القبائل.

وسليم نوفل الطرابلسي (1828 – 1902) ترجمان قيصر روسيا وسفيره إلى فنلندا. وجبران خليل جبران (1882 – 1931) وشكري غانم (ت 1932) ساكن باريس، كاتب المسرحيات بالفرنسية والسياسي الناشط في سبيل استقلال لبنان، وغيرهم.

وهكذا من قدموس إلى جبران، يرسم القرم معالم الهجرة

اللبنانية، خطٌّ موصول لا ينقطع من المهاجرين/المعلّمين وصنّاع الحضارة الذين نشروا الحرف والمعرفة... الخ.

ولا يكتفي القرم بهذا القدر، بل يخصّ المهاجرين بنشيد كامل يلخّص فيه نظرته وفلسفته للهجرة. هذه النظرة التي شاركه في بلورتها ميشال شيحا وأخذها عنهما سعيد عقل فتوسّع في عرضها في "قدموس".

فالمهاجر بنظر القرم هو ذاك العصامي الناجح الذي ترك جبله ولا مال في جيبه ولا معين. ومع ذلك تبوّأ أعلى المراتب في بلاد الاغتراب:

«أنتم الذين عن قرانا الهزيلة ترحلون
لا علم لكم ولا مال ولا صديق ولا معين»[1].

إنهم في مهاجرهم كتّاب ومفكّرون ورجال دين وتجّار وصناعيون وسياسيون بلغوا أسمى المراتب. ويسمّي القرم أمين الريحاني وجبرائيل طربية[2] رئيس حكومة كولومبيا وغيرهم. كما يسمّي كبار المهاجرين/المفكّرين في مصر: جرجي زيدان يعقوب صرّوف.

المهاجر اللبناني صاحب رسالة عالمية شاملة:

«الذين وسّعوا بعقلهم حدود الأكوان

1 – م.ن، ص 50.
2 – سنعرض نبذة عن حياته في الملحق.

ولم يقوَ على إذلالهم إنسان»[1].

المهاجر في عُرف القرم مرادف للإنسان المكافح الناجح الذي بلغ في كل مجال طَرَقه أعلى مراتب الفلاح. وليس في قاموس القرم مهاجر فاشل، أو لم يحالفه الحظ.

«وأنتم يا جميع المهاجرين من بفضيلتهم ينازعون
لأجل مقامنا في الدنيا سائر العالم
فإنكم تدّخرون الجرأة الجبّارة في الفؤاد
والخمير الشديد البأس، الموروث عن الأجداد»[2].

بديهي أن في هذه النظرة تلميع لصورة الهجرة والمهاجرين. إنها مقاربة أحادية الجانب، تسقط، أو تتغاضى، عن الوجه الآخر للحقيقة:

مآسي الهجرة.. ألخ. ما عرض له فؤاد سليمان وغيره. وينهي القرم نشيده بدعوة المهاجرين إلى العودة، مذكّراً إيّاهم بلوعة الأهل على الفراق:

«هلمّ عيشوا وموتوا بين صخوركم الخوالد
عودوا إلينا..
لا تمزّقوا أحشاءنا بمناحات تنقضي بين العويل والأنين»[3].

وبدعوة العودة يُسدل القرم الستار على لوحة الهجرة التي

1 – م.ن، ص 51.
2 – م.ن.
3 – م.ن، ص 52.

لم يرسم فيها سوى النجاح المتواصل منذ أيام قدموس إلى جبران مروراً بالسمعاني والحاقلاني وغيرهم.

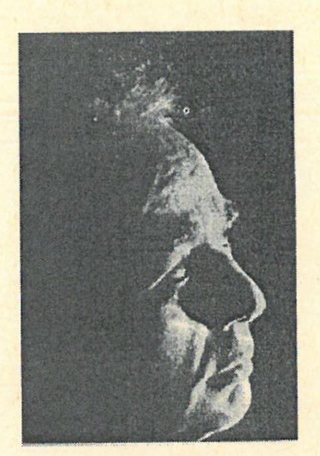
سعيد عقل وقدموس المعلّم

شارل القرم مهّد بجبله الملهم لسعيد عقل في قدموس. وعقل لم يكتفِ بقراءة رائعة القرم، بل نقلها شعراً إلى العربية. ونشر ترجمة لها، على حلقات، في مجلة المشرق.

وفي ذلك دليل على مدى اهتمامه بهذه الملحمة واحتفاله بها. فجبل القرم الملهم، لم يكن حدثاً أدبياً وحسب، بل حدثاً وطنياً أيضاً، وكان سعيد عقل في طليعة من تأثّروا بهذا الحدث. يقول د. جميل جبر في ذلك: «لم يكن ظهور الجبل الملهم حدثاً أدبياً حفّز الكتّاب اللبنانيين على التأليف فقط، بل حدثاً وطنياً كذلك، خلق تياراً سياسياً مناهضاً، وفي المقابل تياراً لبنانياً فكرياً وقومياً. فإذا الحركات والأحزاب التي نشأت ما بين الحربين تسير في هذا التيار أو ذاك. وإذا بعض الكتب كقدموس سعيد عقل يصدر متأثراً بشارل القرم. فيما بعضها الآخر مجّد العروبة وتراثها من قبيل ردّة الفعل»[1].

---

1 - جبر، م. س، ص 52/3.



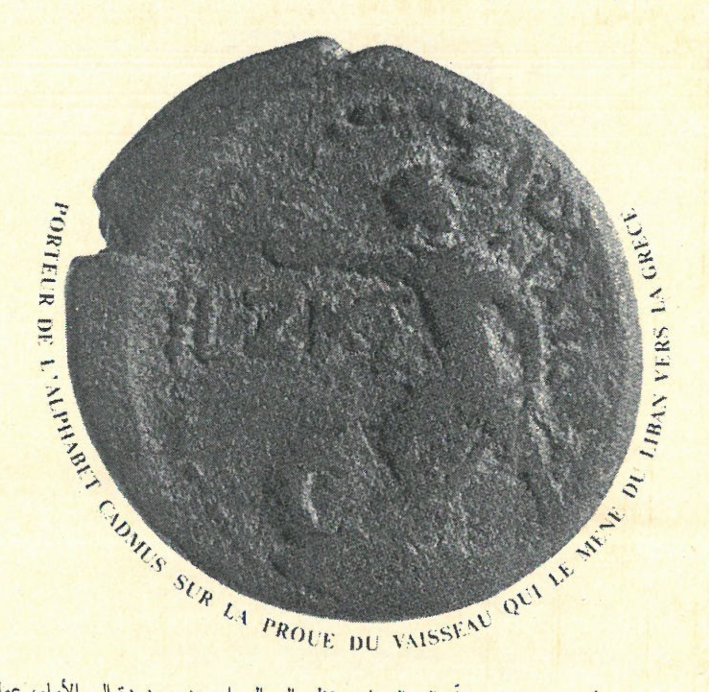
سعيد عقل

و "قدموس"[1]، سعيد عقل ، ملحمة الهجرة بالعربية، تناول فيها، في قالب مسرحي شعري، حكاية المهاجر الفينيقي الأول، معلّم الأبجدية لليونان. إنه المهاجر صاحب الرسالة العالمية في نشر المعرفة وتعليم الشعوب. والخارج من موطنه الصغير ليجعل هذا اللبنان بوسع الكَون، مالئاً بحضوره المشارق والمغارب، وناشراً قراه وحواضره في كل زاوية من الأرض:

ومن الموطن الصغير نرود الأرض   نذري في كل شط قرانا
نتحدّى الدنيا شعوباً وأمصارا   ونبني أنّى نشأ لبنانا[2]

---

1 - صدرت الطبعة الأولى من قدموس عن دار الفكر 1944.
2 - عقل، سعيد، شعره والنثر، ج1، بثت يفتاح، المجدلية، قدموس، بيروت، دار نوبليس، 1991، ص 171/2.



قدموس على رأس السفينة التي تقلّه إلى اليونان، ينظر إلى الوراء ويده ممدودة إلى الأمام، عملة يونانية نقش عليها: من صيدون سيدة البحار

ينطلق سعيد عقل، في قدموس، من مفهوم خاص بلبنـــان. ورؤيا معينة له. فهو ليس مجرّد وطن، إنه رسالة. وهذا ما قاله بعده البابا يوحنا بولس الثاني. وأية رسالة: رسالة حب وســـلام. وانفتاح على العالم. يقول في مقدّمة قدموس:«لا يتنازل لبنان عن رعاية العقل. وعلّة وجوده الوحيدة أنه عقل. ولا يستجيز لنفسه أن يبغض. وأجمل ما في تراثه أنه حبّ. ولا يقبل أن ينكفئ على ذاته. واتجاه فعله هو انفتاح على العلم وما فوق العالم. ويستحيل

أن تُستغل على لبنان نورانيته هذه وحُبّه وانفتاحه. وهي جميعـاً حق. والحق قدرة فوق كل قوّة»[1].

الاغتراب في المفهوم السعقلي[2] نشر لرسالة الحُبّ والسلام التي عرف بها لبنان منذ أقدم العصور. وهو لا يتعب من تكرار قول إيل إله جبيل:«الحرب ليست مـن مـشيئتي، ضـعوا فـي الأرض الصلح، ابذروا في التراب الحب، وصبّوا السلام في كبد الأرض».

وإلى هذا القول يشير في إحدى قصائده:

الحبُّ نحن شرعنا، الحُسنُ نحن بدَعنا

البُغضُ نحـن قطعنـا أنـه العـدَمُ

جبيلُ قالت بقـاءَ الـنفس واكتـشفت

ربّا أبى لقـضاء الـسيف يُحـتكمُ

الليـلُ لـولا سـراها غربـةٌ قتلـت

والشمسُ لولا هواها وهمُ من وَهِموا[3]

1 - الحاج، د. جورج زكي، الفرح في شعر سعيد عقل، المجدلية، قدموس، رندلي، بيروت، بيسان للنشر، ط2، 2000، ص 164.

2 - "سعقل" لفظة اختصر سعيد عقل بها اسمه. واشتهر عنه قوله: أريد أن أسعقل زحلة وأزحلن لبنان وألبنن العالم.

3 - عقل، سعيد، كما الأعمدة، بيروت، دار الكتاب اللبنـــاني، ط1، 1974، ص 174.

وأورب، شقيقة قدموس التي خطفها الإلـه زوش، والتـي أعطت اسمها لقارة أوروبا هي أولاً رسالة حـبّ بعثتهـا أرض لبنان إلى الغرب والعالم. تقول أورب سعيد عقل:

إبعثوني غداً رسالة حـبّ   من بلادي تفجّر الأرض رفقا[1]



لوحة (القرن 19)، تصوّر خطف أوروب

لبنان والحُبّ مترادفان في رؤيا سعيد عقل. لـيس لبنـان مجرّد وطن تحدّه الجغرافيا. إنه رسالة حب حملها بنوه. تقـول مِرى مربّية قدموس وأورب:

لم نودّع ما باتَ في الصدرِ حبّاً

حيثما الحبُّ كـان لبنـان كانـا[2]

1 – عقل، قدموس، م. س، ص 145.

2 – م. ن، ص 206.

ويعودُ سعيد عقل فيؤكّد مفهومه هذا للبنـان علـى لـسان أورب: هو العقل والحب:

بلادي أنا ولبنانُ عهدُ

ليس أرزاً، ولا جبالاً، ومـاءً،

وطني الحبُّ، ليس في الحبِّ حِقـدُ

وهو نورٌ فـلا يُـضلُّ: فكـدٌّ

ويـد تبـدع الجمـال، وعقـلُ

ثنائي الحب ممثلاً بأورب والعقل ممثلاً بِ قدموس. ورسالة قدموس إلى العالم المعرفة والعلم. فقد علّم الإغريق الحرف، لذا يردّد سعيد عقل «نحن معلّمو معلّمي العالم».

جاء قدموس بالكتابة بـالعلم

إلـيهم إلـى الأواتـي العـصورِ

وغداً يعرفون أنّا على الـسفن

حملنـا الهـدى إلـى المعمـورِ[1]

قدموس فاتح للعالم القديم:

قلتُ أنا سنقحم البحـر والبـرّ

نجـرُّ الفتـوحَ تلـو الفتـوحِ[2]

1 – عقل،م. س، ص 146.

2 – م.ن، ص 171.

ولكنه فاتح من نوع آخر، وليس غازياً بالسيف

نحن غيرُ الغزاةِ ننزل قفراً   فنخليه أنهراً وجنائن[1]

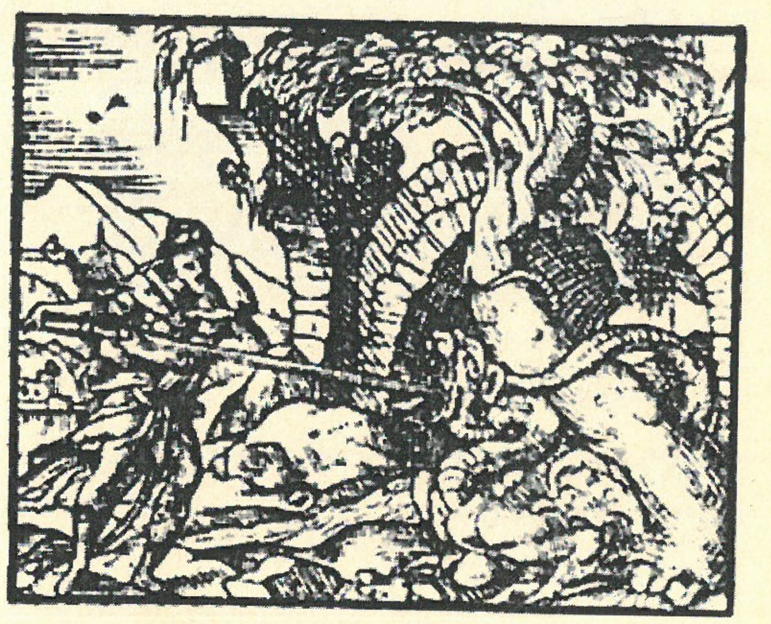
إنه زارعٌ للفكر، للحضارة والمدنية في أصقاع الأرض:

نزرعُ المدن، نزرعُ الفكرَ في الأرضِ

ونمضي في الفاتحين مثالا

وغداً تعرف الحضارةُ في صيدون

أمّاً فتنحني إجلالا



قدموس يقتل التنين لوحة تزيّن كتاب التحوّلات لأوفيد بريشة Ian de Tournes– 1564

1 – م.ن، ص 165.

ويصدح سعيد عقل، على لسان قدموس، بنشيد الفينيقيين البحّارة المهاجرين ومكتشفي العالم القديم وفاتحيه، معمّري المدن والمستعمرات في كل صقع:

نحن للظواهر؟ نحن الكاتبو

صفحةِ الحقيقة شعرا

سفننا الألف ما تني هيبة الأعصرِ

تفري المجهول بحراً فبحرا

عمرت جزرَكم عمائر غنّاء

وفضّت غنى ثراكم مناجم[1]

ويبدأ تعداد مستعمرات الفينيقيين وما استخرجوا منها من مواد وكنوز: وما بنوا فيها من صروح ومآثر.

في كريتَ النحاس، في قبرص الصبغ

وفي رودس القلاع الجواثم

واسرأبت إلى جزيرة تاسو

تتملاّه تبرها إبريزا[2]

قل! مَن الضاربون عبر الألشبون[3]

يفلّون في البحار الكنوزا

1 – م.ن، ص 166.
2 – الإبريز: الذهب الخالص.
3 – الألشبون: دردنيل الأقدمين.

يقحمون البسفور حيث الصخور السنبليات[1]

جُــــوّع الغــــور، فُجّـــعْ

مطبقــاتٌ علــى المغــامر، يــسحقن

فعــزُّ يطــوى ويُنــدف مطمَــعْ

بُسُلٌ يمرحــون فــي بــنط آكــسين[2]

علــى رحمــة الريــاح النــواهم

لا يــشدّون قبــل عجرفــة القوقــاز

سُــفْناً، ولا يَهُــون عــزائم

قــل! مــن النــازلون قَيثيــرةً بعــدُ

وإيطاليـــا وجـــزراً وجـــزرا

يوقظون الدنيا على ضــربة المِعــول

مــستعمراً فتــنهض سـكرى

سفُنهم في الجنوب تهمي علــى النيــل

اختراعـــاً وفكـــرة وصـــناعة

فإذا الطــرف جــاب منفيسَ مــصر

خِلْــتَ لبنــان مــستقلاً شــراعه!

---

1 – اسم لصخور زعم الأقدمون أنها تنطبق علــى الــذي يتوغـل فـي البوسفور.

2 – أكسين: البحر الأسود.

قــل! مــن الفــاتحون إفريقيــا بِكــراً

يــشيدون قمبــةً فــي المغــارب

درّة البحــر قيــل تــصميم فــتحٍ

باسم قرطاجةِ على الكون ضارب!

إنه نشيد الهجرة اللبنانية القديمة بامتياز، يغنّي فيــه ســعيد عقل إنجازات بحّارة فينيقيا ويسمّي مستعمراتهم.

عمّروا جزر الإغريق، استخرجوا مــن جزيــرة كريــت النحاس ومن قبــرص الــصباغ. وبنــوا فــي رودس القــلاع. واستقدموا من جزيرة تاسو الذهب الخالص. اقتحموا البوســفور والدردنيل ووصلوا إلى البحر الأسود. كما بلغت سفنهم القوقــاز وضربت أشرعتهم في قيثرية وإيطاليا. ومــن الجانــب الآخــر للمتوسط جابت سفنهم النيل وشادوا على شاطئ أفريقيا قرطاجة درّة المستعمرات.

فتحوا العالم القديم من أقصاه إلى أقصاه. وغــدت الأرض، بأسرها، موطناً لهم. ولا يقبلون بأقل منها داراً.

نحن صيدونيون موطننــا الأرضُ

ونــأبى أقــلَّ ســاح الحيــاة[1]

---

1 – م.ن، ص 252/3.

وبحّارة صيدا، في آخر الأرض لهم موطئ وموطن.

نشيدهم:

غرّبي يا بحار

شرّداً بالأمل الغضّ

ههنا في آخر الأرضِ

كرمةُ لي، ودار[1]

قدموس رمزٌ لفاتحي العالم القديم. فتحٌ بالمعرفة.

يوم تجني صيدوننا الزرقةَ الرحبة

مجداً مهابةً وحضاره

ويرى الفتحَ فتحه كلُّ قبرٍ

فوق لبنان والبحارَ بحارَه[2]

قدموس (واللبناني عامة)، الأرض بأسرها موطنه. والرسالة التي يحملها هي لبننة العالم. يقول سعيد عقل خاتماً مقدّمته لقدموس:

«رسالة هدتنا إليها ستة آلاف سنة من الصبر والفكر وامتهان المادة والكفران بالذات والتطلّع إلى فوق، والتريّث

1 – م.ن، ص 252/3.
2 – م.ن، ص 172.

بالبادرة قبل وعي الكل. رسالة فذّة في العالم تخوّلنا لبننة العالم»[1].

وخاتمة ملحمة قدموس تأتي في السياق عينه:

نحملُ الأرض إن نشأُ فوق كفّين

ونمضي كريشةٍ في الريحِ[2]

ولكن هل لبننة العالم مجرّد شطحة سعقلية؟!

ربّما. أعذب الشعر أكذبه يقول البعض. ولكن اللبننة، بما حمّلها سعيد عقل من معاني الحبّ الشامل والانفتاح والمعرفة، هي تحديداً نقيض اللبننة بمفهوم علم السياسة المعاصر الذي استخدم هذه العبارة كمرادف للتقسيم والحرب الأهلية *Libanisation*. فهل لبننة سعيد عقل لا تعني لنا اليوم سوى مجرّد هروب من اللبننة بالمعنى الآخر؟!.

يبقى في الشطحة السعقلية وتعبيرها شيء من حقيقة تاريخية تدين لبنانيي اليوم قائلة أين صرتم، وماذا فعلتم بلبنان؟.

وفيها أيضاً شيء من حلاوة التعبير وعملقة الطموح والخيال.

وبعد 55 سنة من صدور قدموس يعاود سعيد عقل إنشاد ملحمة الهجرة والمهاجرين. من ساموا البحار وارتقوا قبّة السماء

1 – الحاج، م. س، ص 168.
2 – عقل، م. س، ص 254.

وعرفوا سرّ الإله:

قصيدةُ العصرِ تلك العلم ردُّهـــم ... من البحار بهم ساحت وهم ساحوا

خالوهُمُ ما سوى جنّ البِحار ألا ... اقرأهم.. بما لم يبح عقلٌ به باحوا

جابوا كذلك أبعاد الـــسما ولَهُـــمْ ... ربُّ السما قال ها سرّي به ارتاحوا[1]

الهجرة بين الملحمة والمأساة

وهكذا نجد أن الأدب اللبناني عكس تضادّاً وتناقـضاً فـي النظرة إلى الهجرة. وتحدّث عن الشيء ونقيضه. فالهجرة ملحمة من ملاحم التاريخ اللبناني المجيـد. وذروة مـن ذراه. وثابتـة مستمرّة من ثوابت تاريخه. بها، ومن خلالهـا، نـشر اللبنـاني رسالته الإنسانية الشاملة. تلك هي نظرة شارل القرم وسعيد عقل وغيرهما.

والهجرة مأساة إنسانية أفرغت القـرى مـن أهلهـا. وإذا استمرّت بهذه الوتيرة فستحوّل لبنان إلى مقبرة كبرى وفق فـؤاد سليمان وغيره.

وبين هاتَين النظرتَين المتناقضتَين، أين تكمن الحقيقة؟!.

لا يمكن أن نقيّد الأدب ونكبّله ضمن حـدود الواقـع مـن ناحية. ولا يمكننا بالمقابل أن نمنعه من التعبير عن الواقع المرير

1 – جريدة السفير عدد 1999/06/02، ص1.

من ناحية أخرى.

فشطحات سعيد عقل، بل وعنترياته أحيانـاً، لا يمكـن أن ننكر ما تحوي من إبداع وابتكار.

وكلمات فؤاد سليمان المسطّرة بدم القلب ومرارة المأساة لا يعوزها الإبداع كذلك.

ولكلّ أن يتذوّق ما يشاء.

وهل يطلب من الأديب أن يحمل عدّاداً وميزاناً ويقيس مـا للهجرة من نتائج إيجابية وأخرى سلبية؟!

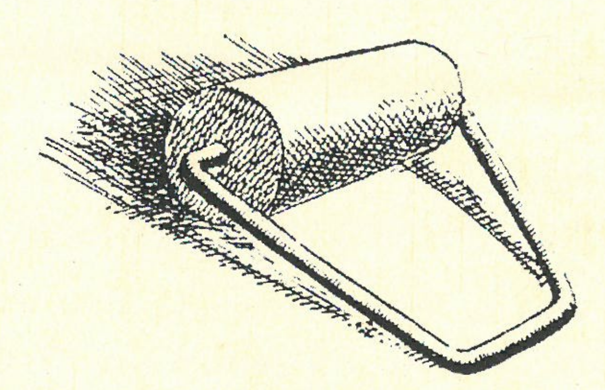
للعلوم مجالاتهـا ومقارباتهـا. وللعمـل الإبـداعي دوره وميزاته، ويكمن، برأينا وبشكل رئيسي، فيما تعجز العلوم عـن وصفه ودراسته بالأرقام وغيرها. إنه ملامسة ما يفلت *Echappe* من العلوم ويفوتها. وفي الهجرة، كما ذكرنا، أبعاد وخفايا تتّصل بالإنسان كياناً وكينونة ومصيراً وتحار العلـوم فـي دراسـتها وتوصيفها.

ففؤاد سليمان محقٌّ وواقعي في وصفه للهجرة وموقفه منها. والقرم وعقل وغيرهما غير مخطئين كذلك في رؤيـتهم الوجـه الآخر لها. كل رأى وجهاً من وجوه هذه الظـاهرة الإنـسانية: الهجرة التي لا تقلّ عمقاً وتعقيداً عن عمق فاعلها ومفتعلهـا أي الإنسان وتعقيداته.

وكما قلنا وكرّرنا مراراً.

Toute théorie est juste dans ce qu'elle affirme et fausse dans ce qu'elle renie.

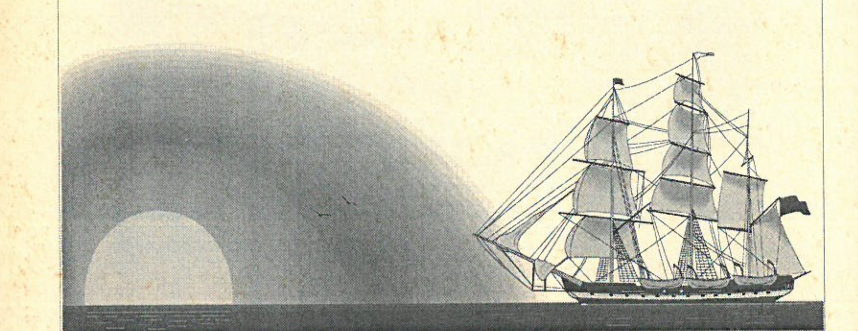
كل نظرية مصيبة هي فيما تؤكّد، ومخطئة فيما تُنكر.

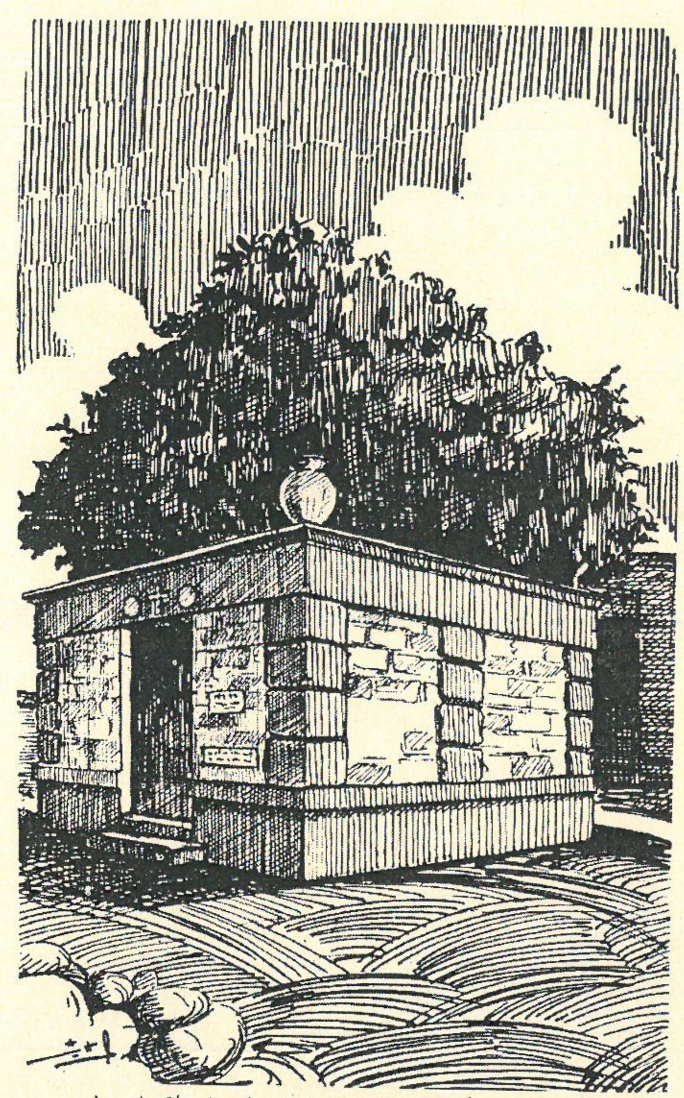


محدلة السطح

الفصل السابع

أوضاع المسيحيين في الولايات العثمانية





ضريح هنريت شقيقة أرنست رينان في جوار كنيسة عمشيت/قضاء جبيل

لعلّ الفصل الذي يتناول الخوري خرباوي فيه أسباب الهجرة من لبنان وسوريا وعنوانه "مسبّبات الهجرة، أبرز فصول الكتاب، إن لم يكن أهمّها على الإطلاق. وهو الفصل المخصّص عملياً لأوضاع المسيحيين في بلاد الشام في القرن التاسع عشر. فأسباب الهجرة تكاد تنحصر عند خرباوي في عنوان واحد: أوضاع المسيحيين المزرية، وما يتعرّضون له من اضطهاد في ظل الحكم التركي.

فالمسيحي لا يشعر أن البلاد التي ولد فيها هي وطنه: "إنها محل ولادته ولا نقول وطنه"، (ص 743). وفق تعبير خرباوي ويضيف «لما يفتح النصراني عينيه يرى حواجز حصينة تحول دونه ودون الوطنية التي لا يفقه لها معنى. فينتمي إلى مذهبه، لا إلى وطنه»، (ص743). ويشير خرباوي إلى تمييز الدولة العثمانية بين المسلمين والمسيحيين من رعاياها:«أما النصراني فأول ما يجعله يشعر بكونه غريباً وليس وطنياً، تذكرة النفوس التي تعطيه إياها حكومة الأتراك، فتذكرة المسلم تنطق بأن جنسيّته عثماني. وأما تذكرة المسيحي فتصرّح بأن تابعيّته عثماني. فهو ليس عثماني الجنس، بل عثماني التبعة»، (ص 744).

ويعزو خرباوي هذا الاضطهاد والتمييز الديني والطائفي إلى «التعصّب الديني الممقوت وتفسير الآيات القرآنية على غير المقصود منها لأغراض نفسية»، (ص745). وهكذا، يتابع خرباوي، فكل النصارى يَعدّونهم كفرة ومشركين بالله، ويجوز بل يجب الاعتداء عليهم(...) ولا لقب للنصراني عند الإسلام الناطقين بالضاد سوى المشرك والخنزير والكافر والذمّي وما شاكل. وعند الأتراك الكافر والهواجا، وغيرهما. وألطف لغة يخاطبونه بها شتم دينه وصليبه»، (ص 745).

وبعد هذه المقدّمة يمضي خرباوي في تعداد الأمثلة ورواية الكثير من أخبار اضطهاد المسيحيين في الدولة العثمانية، ولا سيما بلاد الشام.

وأبرز مصادره في هذه الروايات اثنين:

1 – ما يعرفه من أخبار رويت له. فخرباوي، كما ذكرنا، بيروتي عايش ما تلا مذبحة الجبل ودمشق 1860 من تشنّج وأحداث طائفية في بيروت وسائر ولايات الشام العثمانية. وهو كاهناً أرثوذكسياً، على علاقة واتصال بالكثير من الكهنة والعلمانيين من أبناء كنيسته الذين يروون له ما يحصل في مدنهم وقراهم، وما يقاسيه المسيحيّون من جور واضطهاد. وسبق وذكرنا أن هذا الاضطهاد كان دافعه الأساسي للهجرة ودافع أقربائه أمثال جورج باسط الذي رثاه عام 1932.

والاضطهاد هذا كان عدد من أحبّاء خرباوي ضحية له. ومنهم الكاهن الشهيد نقولا خشّة الذي أبّنه عام 1917.

الخوري خرباوي هو إذاً شاهد عيان عاصر الأحداث ورويت له فنقلها ودوّنها. ومن هنا أهميّة كتابه كمصدر لتاريخ لبنان وسوريا في القرن التاسع عشر. وسنتناول لاحقاً طريقته وأسلوبه في سرد هذه الأحداث.

2 – المصدر الثاني، والذي لا يسمّيه خرباوي، هو كتاب حسر اللثام عن نكبات الشام[1]. صدر في مصر 1895 دون ذكر اسم مؤلّفه. وفي دراستنا لكتاب "مشهد العيان"[2]. تناولنا بالتفصيل "حسر اللثام" ومؤلّفه وظروف كتابته. كما أجرينا مقارنة بين الكتب الثلاثة "مشهد العيان"، وحسر اللثام. وكتاب الخوري خرباوي الذي نحن بصدده. فالأول هو الأقدم وعنه أخذ التاليان. ولكن الخوري خرباوي لم يكن، مجرّد ناقل، كما "مشهد العيان"، بل أضاف الكثير من الوقائع التي شهدها وعاصرها أو نقلت له. ولن نستفيض أكثر في المقارنة. بل نحيل القارئ إلى كتابنا المذكور.

---

1 – حسر اللثام عن نكبات الشام، وفيه مجمل أخبار الحرب الأهلية المعروفة بحوادث سنة 1860، مع تمهيد في وصف البلاد الجغرافي والسياسي، ط1، القاهرة، 1895.

2 – صليبا، د. لويس، صدام الأديان والمذاهب في لبنان، دراسة وتحقيق لكتاب مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان، بيبلوس/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2007، 690 ص.

كيف نستنتج أن خرباوي ينقل عن حسر اللثام؟! الأحداث والتعابير عينها: الطاروق (حسر اللثام ص 637، تاريخ المهاجرة ص 746)، تسخير المسيحي واللعب بعمامته، كيس السخرة (حسر اللثام ص 37/9 وتاريخ المهاجرة 746/8). والأمثلة تكثر وتتعدّد. ومن الوثائق التي ينقلها خرباوي عن حسر اللثام منشور درويش باشا (حسر اللثام ص 44، وخرباوي ص 749). ونجد التعليق عينه في كلا الكتابين.

ولكن، وكما ألمعنا، فالخوري خرباوي لا يكتفي بمجرّد النقل. فهو يضيف الكثير من الأحداث والوثائق التي لا نجدها في حسر اللثام، أو في غيره من المصادر.

ومن الوثائق التي ينفرد بها خرباوي، رخصة دفن جثّة مسيحي في ديار بكر (ص 748). وفرمان السلطان محمود للمرحوم عبود بحري، والذي يسمح له فيه بانتعال خفّ أصفر، (ص 752/3).

أما الوقائع والأحداث التي ينفرد خرباوي بروايتها فعديدة. منها:

- لم يكن مسموحاً لشاب مسيحي أن يخطب عذراء إلا بإذن من شيخ البلدة أو الذي تحت حمايته، (ص 750/1).
- دعاء أئمّة المساجد على المسيحيين، (ص 751).
- معاناة المسيحيين في دفن موتاهم (ص 751).

- إلزام المسيحي بتعليق جرس في عنقه عند دخوله إلى الحمّام (ص 751).

وأبرز ما يسرد خرباوي من وقائع وأحداث، ما وقع في بيروت أواخر القرن التاسع عشر. وأهميّة رواياته أنها تأتي من شاهد عيان عاش في بيروت وعايش هذه الأحداث، وربما كانت أبرز أسباب هجرته، فرواها بكثير من المرارة. وأبرز هذه الأحداث:

- رامز بك قاضي بيروت وظلمه للمسيحيين. (ص 754/5).
- حادثة المزرعة/بيروت وزحف الجيش العثماني عليها وهجومه على الكنائس. (ص 755).
- زعران بيروت وتعدّيهم على المسيحيين. (ص 755).
- حادثة المسيحي المعتدى عليه والذي استنجد بأحد الشيوخ. (ص 756).
- إنزال جرس كنيسة القديس جاورجيوس في بيروت.
- الشيخ النبهاني وتحذيره من مدارس النصارى. (ص 759).

وغيرها من الوقائع والأحداث.

ويروي خرباوي أن أي حرب تقوم بين الدولة العثمانية ودولة أوربية يعتبرها المسلمون حرباً بين الهلال والصليب. فيمارسون شتّى أنواع المضايقات على مواطنيهم المسيحيين، إذ يعتبرونهم خونة ومناصرين للدولة الأوروبية.

ويذكر هنا الحرب التي قامت بين روسيا واليابان، وكيف طَرِب مصطفى كامل الزعيم المصري لانتصار اليابان على روسيا في كتابه الشمس الشارقة. لأن هذه الأخيرة عدوّة للإسلام والمسلمين وفق تعبيره. (ص763).

وهنا يدافع خرباوي، الأرثوذكسي، عن روسيا، وهو، كما سبق وأشرنا، مؤلّف كتاب عن تاريخ روسيا. وقد أبدى تمسّكاً بتبعية كنيسته في بروكلن للبطريركية الروسية. فيقول أن روسيا كانت هي المنتصرة (ص764). ويعدّد مزايا هذه الدولة، لينتبه بعدها أنه أطال الاستطراد وخرج عن موضوعه فيقول: «ليعذرنا القارئ الكريم على ذكر ما تقدّم. فليس هو من موضوعنا..»، (ص 764).

ولكن ثمّة سؤال يطرح هنا: إلى أي مدى كان الخوري خرباوي أميناً في عرضه وموضوعياً؟!.

لا شكّ أنه يقابل تعصّب الأتراك ومسلمي بلاد الشام بتعصّب مضاد. ونلمح تعصّبه هذا في الكثير من تعابيره. يقول في ردّه على مقولة حرب الصليب على الهلال السابقة الذكر: «وحرب تركيا مع غيرها من الدول المتمدّنة ليست حرباً بين الصليب والهلال كما يزعمون. بل هي حرب بين النور والظلام»، (ص 761). فإذا كانت المقولة الأولى ناتجة عن تعصّب وقصر نظر، فردّ خرباوي عليها أشدّ تعصّباً ومحدودية

منها. إنها حرب مصالح ومطالب، لا حرب بين «المدنية والهمجية، بين العلم والجهل بين النافع والضار»، كما يقول (ص761). فلا شكّ أنه هنا يفجّر حقده على الدولة العثمانية ومرارته من سوء حكمها وجورها على رعاياها، وكان واحداً منهم. ويمضي خرباوي قدماً في المقارنة بين الهلال والصليب فيقول، «فالصليب كان ولا يزال شعار المحبة والرحمة والشفقة والحنان والرفق بالإنسان والحيوان. وأما الهلال الأحمر فهو رمز الدم المطلوب والحق المسلوب والغدر بالآمنين والظلم والقسوة والجور والبربرية والهمجية والجهل. وهل من حسنة يذكرها له التاريخ لكي ندوّنها بمداد الافتخار»، (ص 761).

وبديهي أن في قوله الكثير من التجنّي المبني على التعصّب المضاد. ومن شأنه إثارة النعرات، لا سيما إذا فُهم من كلامه أن الهلال الأحمر رمز للإسلام، كما الصليب رمز للمسيحية. والأمر ليس كذلك. فالهلال بمفهومه هو، والمفهوم العام رمزٌ للدولة العثمانية التركية، أكثر مما هو رمز للإسلام كدين. فهو يتابع ويستخدم تعبير «دولة الهلال»، (ص 762). أي الدولة التركية. ونراه يتمادى في المقارنة، وعن غير حق، فيقول «وهل من ميزة للهلال على الصليب أو حسنة تذكر فتشكر لهلالهم الذي مرّت عليه السنون وكرّت الأعوام، فلم يصر بدراً»، (ص 762). وفي هذا القول الكثير من التعميم والتجنّي. وهو منطق مقابلة

التعصّب بأشد منه. وكما ذكرنا في كتابنا من تاريخ الصهيونية:

فإن النار بالعودين تذكى   وإن الحرب أولها كلامُ[3]

«لكأنه يعمل بموجب شريعة موسى القائلة: العين بالعين والسن بالسن. وليس بقول المسيح: أحبّوا أعداءكم، باركوا مَن يلعنكم».

وصورة الهلال الذي لم يصر بدراً، مع تقادم السنين، نجدها أيضاً في شعر إيليا أبي ماضي. والهلال يعني عنده أيضاً رمز الدولة العثمانية وليس شعار الإسلام. يقول:

جريتم بالهلال إلى مَحَاقٍ   ولولا جهلكم بَلَغَ التمامَا[4]

وفي خاتمة كتابه، يتنبّه خرباوي لخطورة ما قد يُستنتج من كلامه، أو لتأويل هذا الكلام في غير مقصده، فيقول:

«ولا يتبادر لذهن القارئ أننا بذكرنا معاملة المسلمين السيّئة للمسيحيين نتعرّض لمسّ كرامة الدين الإسلامي، بوجه ما، حاشا. بل إن تلك حقائق تاريخية أوردناها لأجل بيان سبب مهم لغرس فكر المهاجرة في عقول المسيحيين. فالدين الإسلامي يُجَلّ عن أن يأمر بمثل تلك المظالم. بل بالعكس إنه يأمر بالحسنى

3 – صليبا، د. لويس، من تاريخ الصهيونية في أرض الإسلام، دراسة لجذورها في المشرق وتلفيقاتها لتاريخه، بيبلوس/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2007، ص 18.

4 – أبو ماضي، الديوان، م. س، ص 665.

وعمل المعروف مع المسيحيين وغيرهم. وإنما جهل البعض، ومآرب غيرهم ألبست تلك الأمور صبغة دينية. فأجروا ما أجروا باسم الدين، والدين منهم براء»، (ص 910).

والخاتمة هذه تصحّح ما قد يتبادر إلى الذهن عن تعصّب الكاتب. ولكنها لا تبرّئه تماماً من هذه التهمة. فبعض عباراته أتت فجّة ثقيلة وإن كانت تقصد، على الأرجح، دولة الأتراك وليس دينهم. أياً يكن، فلا يغربنّ عن البال أنها تصدر عن مهاجر عانى الأمرَّين من جور دولة تعامل رعاياها بمقياسَين، وتميّز بينهم ولا تعدل.

والخوري خرباوي ليس المهجري الوحيد الذي نظر إلى الدولة العثمانية بهذه الطريقة. بل يكاد يجمع سائر المهجريين على هذا الموقف منها. فرشيد أيوب يقول عنها أنها نهبت رعاياها وقمعت حريّاتهم، فهاجروا فراراً من جورها:

مشى العلم في شرق البلاد وغربها   ولكن بتركيا لقد ضيّع الدربا

فما هو إلا الجهلُ مدّ بساطه   عليها وأرخى من عياهبه حجبا

ألا لا أرانا الله عَوداً لدولةٍ   نكون لها أسرى وأموالُنا نهبى

ألسنا الألى عـافوا الحيـاةَ بظلّهـا
وجابوا بلادَ الله واستوطنوا الغربـا[5]

وإيليا أبو ماضي لا يقلّ عن الخوري خرباوي قسوة، وحتى تعصّباً في نظرته إلى الأتراك، يقول:

حملنا نيـرَ ظُلمكم قرونـاً   فأبلاهـا وأبلانـا وداما
رعيتم أرضَـنا فتركتموهـا   إذا وقع الجرادُ رعى الرغاما
خَفِ التركي يحلف بالمثـاني   وخَفْهُ كلّما صلّى وصـاما[6]

ويرفض أبو ماضي ادّعاءات الأتراك حماية الإسلام. كما يرفض ظلم المسيحيين واضطهادهم باسم الشريعة:

وقالوا نحـن للإسـلام سـورٌ   وإن بنـا الخلافَـةَ والإمامـا
فهل في دين أحمد أن يجـوروا   وهل في دين أحمد أن نُضاما[7]

كما يرفض أبو ماضي حصر الحكم بالعثمانيين والمسلمين

إلى كم يحصرون الحُكمَ فيهم   وكم ذا يبتغون بنا احتكاما
ألسنا نحن أكثرَهم رجالاً   إذ عُدّوا وأرفعُهم مُقاما[8]

وبالعودة إلى مؤلّفنا، يصعب أن نطلب من كاهن،

---

5 - بلبع، د. عبدالحكيم، حركة التجديد الشعري في المهجر بين النظرية والتطبيق، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1980، ص 240.

6 - أبو ماضي، الديوان، م. س، ص 665.

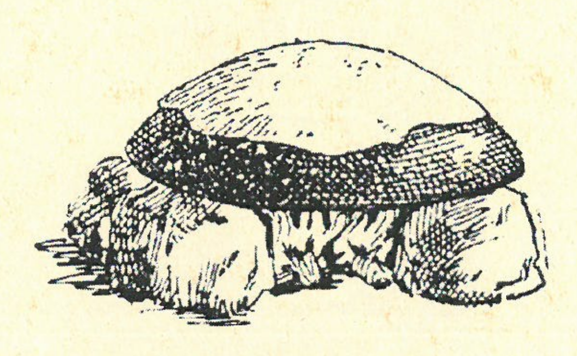
7 - م.ن.

8 - م.ن، ص 665/6.

كباسيليوس خرباوي، الحياد في عرض لمآسي وظلم عانى هو منها، كما عانت رعيّته، وكانت سبباً في هجرته. ولكننا نطرح السؤال:

إلى أي مدى يمكن الأخذ بشهادته؟!.

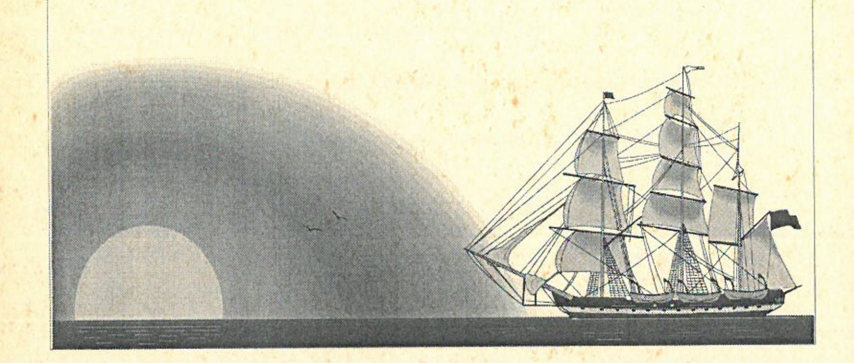
من المؤكّد أن خرباوي معاصر وشاهد لكثير من الأحداث التي روى. فلا يمكن التغاضي عن شهادته هذه. ولكن ذلك لا يمنع الباحث الموضوعي من مقارنة الشهادة هذه بغيرها من شهادات المعاصرين الآخرين، ووضعها على محكّ النقد والغربلة، وتمييز السرد الواقعي عن التأويل والتعليق، إنها مصدر مهم، ولكن شأنها سائر المصادر، تتطلّب قراءة نقدية واعية وموضوعية.

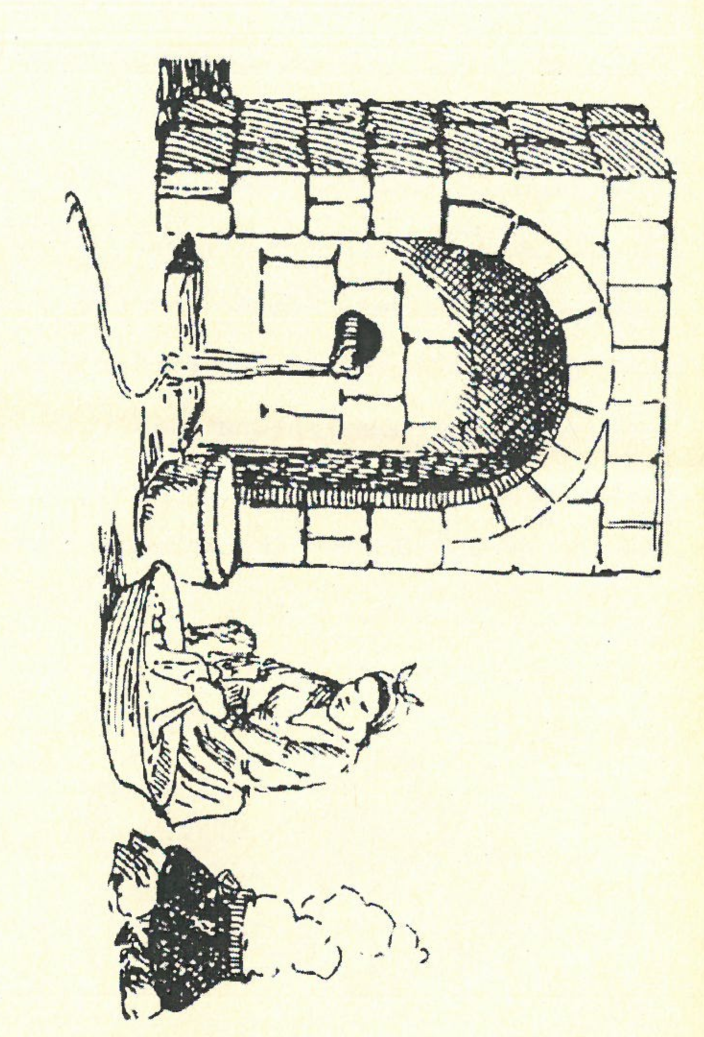


صاج ومَوقد ورغيف

الفصل الثامن

بعض ميزات كتاب خرباوي





امرأة تغسل الثياب عند عين الضيعة

مواضيع الفصل الثامن:

- الأسباب الأخرى للهجرة
- أوضاع المهاجرين في أميركا

الأسباب الأخرى للهجرة

إذا كانت أوضاع المسيحيين في الدولة العثمانية واضطهادهم أولى أسباب الهجرة، وفق خرباوي، فهي ليست السبب الوحيد. إذ يضيف إليها أسباباً أخرى.

فالعوامل الاقتصادية لها ثقلها: الضرائب الفاحشة على الزراعة، وطريقة جباية هذه الضرائب. (ص764/5).

ضعف التجارة في الدولة العثمانية، بسب غياب المصارف وضعف وسائل النقل... (ص765).

تخلّف الصناعة وبدائيتها، مقابل التطوّر الصناعي في الغرب. ويعطي خرباوي مثلاً معبّراً على ذلك: الطربوش الذي يلبسه السلطان والوزراء والقضاة...الخ. يصنع خارج البلاد. (ص 765).

- لا مكان ولا احترام للمخترعين والمبتكرين في دولة الأتراك. ويسرد خرباوي أمثلة عديدة على ذلك، (ص 766/7).

- إهمال الدولة العثمانية، كلياً، المسألة التربوية والمدارس. فما توفّر منها أسّسه الأجانب.

- خنق الحريات والرقابة على المطبوعات (المكتوبجي) ومضايقة حتى قرّاء الصحف.

- طبيعة البلاد وضيقها.

وهكذا وإن ركّز خرباوي على واحد من أسباب الهجرة وتوسّع في عرضه، فلم تفته الأسباب الأخرى. ويخلص في المحصّلة. إلى:«فينتج مما تقدّم أن الضغط الديني والسياسي وفقر البلاد بموت التجارة والصناعة والزراعة، وميل الإنسان الفطري إلى التمتّع بالحريّة وظلم الحكومة وعدم نزاهة الحكّام وسوء الجوار وبخس الحقوق. وتثقيف الناشئة في مدارس الأجانب. وغير ذلك كانت الحامل على المهاجرة والدافع إليها». (ص768).

وهي خاتمة تكثّف وتلخّص وتشمل أبرز أسباب الهجرة في زمنه. وينهي خرباوي فصل أسباب الهجرة بكلمة مُرّة.«ومن الضمين بعودتهم (المهاجرين) إلى وطن أشبه بالسفرجل كل عضّة بغصّة»،(ص 768).

أوضاع المهاجرين في أميركا

وعن أوضاع المهاجرين في الولايات المتحدة، يفيدنا خرباوي الكثير. فيحاول أن يعرف مَن كان أوّل المهاجرين. ويعترف بصعوبة معرفة مَن كان "كولمبس السوريين"، (ص 770). وهو يجهل تماماً أنطون البشعلاني (1827 – 1856). الذي تتّفق المصادر على أنه كان أول مغترب لبناني. إذ هاجر إلى

الولايات المتحدة عام 1854. ولا نعجب من جهل خرباوي للبشعلاني. فأوّل مَن تحدّث عنه، بل اكتشفه هو د. فيليب حتّي (1886 – 1976) [1][2]، يقول الخوري البشعلاني:«وقد بقي أمر هذا الفتى منسياً، وبقي ضريحه منسياً حتى اكتشفه الدكتور حتّي، وعثر على كتاب سيرته الذي نشره أصدقاؤه إكراماً لذكراه»[3]، وقد احتفلت الجمهورية اللبنانية بالذكرى المئوية الأولى لوفاته عام 1955 وأعلنت تلك السنة، سنة عودة المهاجرين[4]. لذا، وإتماماً للفائدة، فسننشر في ملحق هذا الكتاب نبذة عن أول مغترب من بلاد الشام في أميركا، وأول مهاجر لبناني في الزمن الحديث.

وقبل أن نترك الحديث عن روّاد الهجرة نشير إلى أن المؤرّخ محمد كرد علي له رأي مخالف للدكتور حتّي. فهو يذكر في كتابه غرائب الغرب، في الفصل المخصّص للهجرة من لبنان أن أول مَن دخل أميركا من السوريين الخوري إلياس بن القسيس

1 - فيليب حتّي (1886 – 1978)، مؤرّخ لبناني بارز، هاجر إلى أميركا وعلّم في جامعاتها، من أبرز مؤلّفاته تاريخ العرب، وتاريخ لبنان، وتاريخ سورية.

2 - حتي، م. س، ص517.

3 - البشعلاني، الخوري أسطفان، تاريخ بشعلي وصليما، بيروت، دار صادر، ط2، 2003، ط1، 1947، ص 338.

4 - حتّي، م. ن.

حنّا الموصلي الكلداني (1668 – 1683). وأن أول مَن دخل أميركا الشمالية في القرن 19 الخوري فلاميانوس الكفوري مصطحباً معه ناصيف الشدودي عام 1848. وإن أوّل مَن دخل أميركا الجنوبية المطران باسيليوس حجّار عام 1874[5]. ولكن المرجّح أن المذكورين لم يكونوا مهاجرين بالمعنى الفعلي، بل رحّالة وزوّار لأميركا، أقاموا فيها فترة، ثم عادوا أدراجهم. أما البشعلاني فأوّل مقيم وأوّل مَن توفّي في المهجر في غالب الظن.

ويورد خرباوي، أرقاماً إحصائية لأعداد المهاجرين في الولايات المتحدة. فيقدّرهم في زمنه (1913)، بِ 200 ألف مهاجر في جميع الولايات، ونصف هذا العدد متمتّع بالجنسية الأميركية. (ص 789).

كما يروي قصّة بدايات الهجرة ونشاط المهاجرين في تجارة الكشّة وما لاقوا من مصاعب (ص 780 وغيرها). ويذكر أحوالهم ومعيشتهم وأملاكهم ومناقبهم ومثالبهم وجرائدهم وكنائسهم.

وإذا كان لنا من مأخذ على طريقة خرباوي. فهو الجانب النفعي، إذ نراه يُكثر من إيراد صور تجّار الجاليات مع تعليقات

5 – السرّاج، د. نادرة جميل، شعراء الرابطة القلمية، دراسات في شعر المهجر، القاهرة، دار المعارف، ط3، 1989، ص 51/2.

تمتدحهم، استدراراً لعطفهم. وخرباوي معذور، بعض الشيء، في ذلك، فنشر كتابٍ بضخامة مؤلّفه البالغ 930 ص يتطلّب ميزانية ضخمة تفوق إمكانيات المؤلّف. ولنا في شهادة ميخائيل نعيمة الأديب المهجري الشهير خير دليل على ذلك. يقول:«لقد كان نشر الكتب العربية في المهجر عملية من أشقّ العمليات في حياة الأدباء. فإذا تجمّعت لأحدهم المواد الكافية لكتاب راح يبحث عن المال الضروري لطبعه. فتارة يستجديهُ بالتزلّف والتملّق إلى تاجر، كما فعل أبو ماضي في نشر الجزء الثاني من ديوانه. وطوراً يلجأ إلى الاكتتاب فيعلن في الصحف أن كتاب كيت وكيت سيصدر في التاريخ كذا وكذا، فعلى مَن شاء اقتناءه أن يبعث بالثمن سلفاً إلى صاحبه»[6].

وغالب الظن أن الخوري خرباوي قد عمد إلى الأسلوبَين معاً. فتملّق إلى التجّار، وخصّص الإهداء لعدد منهم. وأثقل الكتاب بصورَ آخرين. كما استخدم الاكتتاب أيضاً. وفي آخر الكتاب ثبت بأسماء المكتتبين وأمكنتهم وعدد النسخ. بل وأضاف إلى هاتَين الطريقتَين ثالثة إذ وضع في آخر الكتاب مجموعة من الإعلانات لمتاجر المهاجرين وهو أمرٌ غير مألوف في الكتب. وأشار إلى مجموعة الدعايات هذه في مقدمة الكتاب، ناصحاً

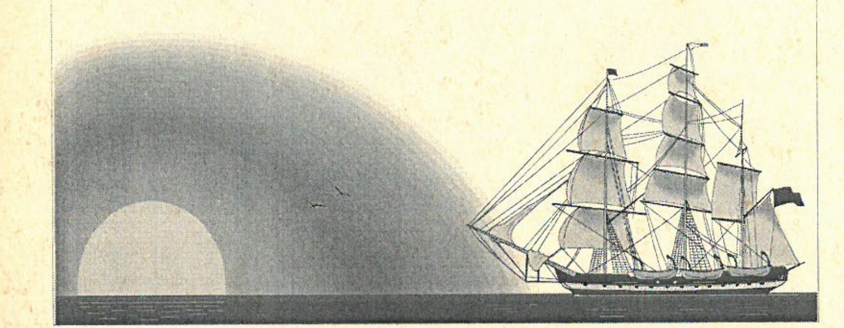
6 – نعيمة، سبعون، ج2، ص 175.

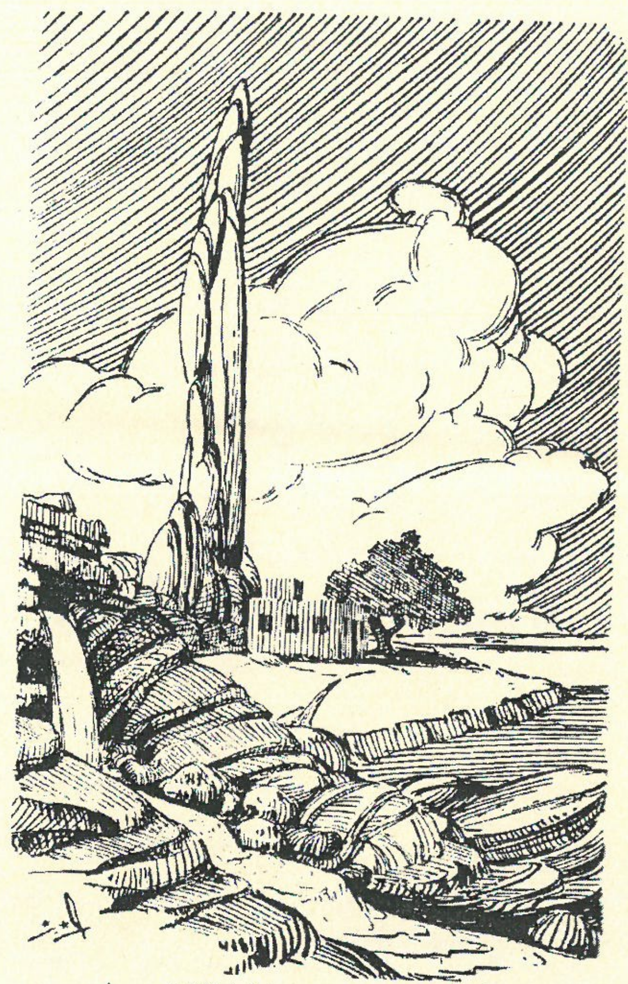
باعتمادها ضامناً جودتها. واعداً بحسومات خاصة للقرّاء، (ص729)، وهو أسلوب أقلّ ما يُقال فيه أنه تجاري نفعي.

يبقى أن أبرز محتويات كتاب خرباوي بشأن المهاجرين التقارير التي يورد عن طوائفهم والكنائس التي ينتمون إليها وتاريخها وتنظيمها. وكذلك عن أبرز جمعياتهم التجارية والسياسية. ويخصّص فصلاً مهمّاً عن الجاليات وأوضاعها ورجال دينها وأطبائها وتجّارها وأدبائها وسائر مشاهيرها في نيويورك وأوهايو وبنسلفانيا وشيكاغو وجورجيا وسائر الولايات. ويذكر نبذة تاريخية عن نشأة هذه الجاليات وأرقاماً عن عدد أفرادها وتوزيعهم الجغرافي والمهني والطائفي. كما يؤرّخ للجالية في كندا. ومعلوماته عن هذه الجاليات مستقاة من مراسلات مع أفراد منها. وتقارير طلبها، هو شخصياً، من كهنتها أو وجهائها، لنشرها في كتابه. وهذه التقارير والمعطيات تجعل من كتاب خرباوي وثيقة، ومصدراً أساسياً لدراسة الهجرة اللبنانية/السورية إلى أميركا منذ بدايتها في منتصف القرن التاسع عشر وحتى تاريخ صدور الكتاب 1913. ولا نغالي إذا قلنا أنها المصدر شبه الوحيد عن هذه الهجرة الذي يأتي من داخل بلاد الاغتراب، ويضم معلومات وإحصاءات قيّمة ودقيقة تدلّ على جهد جدّي لا يكتفي بكلام عام ومرسل.

الفصل التاسع

الإكليروس والهجرة





مسلّة طبيعيّة من الصخر عين البطرك/اللقلوق - جبيل

أسباب الهجرة كثيرة، وقد أحاط الخوري خرباوي بعدد كبير منها في زمنه كما رأينا.

وتناول فؤاد سليمان، كما ورد معنا، أسباباً عديدة معاصرة له. ولكننا هنا، وقبل أن نختم بحثنا نودّ أن نلمّح إلى واحد من الأسباب قلّ مَن تناوله. إنه انعدام التضامن داخل المجتمع لا سيما المسيحي منه. وعدم اهتمام المسؤولين الروحيين بهذا الأمر والعمل على مداواته والحد منه. وإلى ذلك يشير د. عبدالله الملاّح في دراسته للهجرة في عهد المتصرّفية حيث يقول:«لم تشغل الهجرة الماهدة والمبكّرة بال المسؤولين اللبنانيين المدنيين أو الروحيين. ولم يروا فيها خطراً داهماً، على ما يبدو. لهذا لم تقم المراجع الدينية بإحصائها»[1].

ويعطي الملاّح مثلاً على عدم اهتمام السلطات الدينية المسيحية بأمر الهجرة:«عدم تخصيص المهاجرين بحيّز خاص في الفحص الذي أمر به البطريرك بولس مسعد (1854 - 1890). وحقّقه الخوري بطرس أبي صعب والخوري بطرس

1 - الملاّح، م. س، ص 22.

الحويك في بلاد جبيل بين 1884/09/10 و 1887/12/23»[1].

وقد استفاقت الكنيسة المارونية متأخرة جدّاً على مخاطر الهجرة. فجاء في نصوص المجمع البطريركي الماروني ما يلي:

«ولكنه أمر غير طبيعي أن يغادر البلاد أهلها بصورة كثيفة مخلّفين وراءهم نقصاً في السكان، وبخاصة في المهارات والكفاءات العالية. وهذه هي اليوم حال لبنان. فإن أبناءه يغادرونه بأعداد مذهلة. ولا سيما شبابه المثقّف والقادرعلى النهوض وإعادة بنائه»[2].

ويلاحظ هذا المجمع ما يلي:«لم يعطِ الانتشار الماروني إلى اليوم من قبل القيّمين الأهمية التي يستحقّ. فهو طاقة كبيرة بشرية وروحية هائلة يمكن أن يفيد منها لبنان والكنيسة المارونية معاً»[3]. إنه نقد ذاتي، واعتراف بالمسؤولية، لا بأس به كمقدّمة للإصلاح وتقويم الاعوِجاج.

وتورد نصوص المجمع الإحصائيات الأوّلية التالية:

«إن هذا الانتشار يشكّل ما يزيد على سبعة ملايين ماروني توزّعوا في أربعة أقطار الأرض. وتشير الإحصائيات إلى أن حوالي المليون واحد منهم يرتبط ارتباطاً قانونياً بالكنيسة

---

1 – م.ن.

2 – المجمع البطريركي الماروني (2003 – 2006)، النصوص والتوصيات، قدّم له البطريرك نصرالله صفير، ط1، 2006، ص 118.

3 – م.ن، ص 128.

الأم»[1].

وبشأن الهجرة في الحرب اللبنانية التي اندلعت ابتداءً من 1975/04/13 تورد نصوص المجمع الإحصاءات التالية:«من جرّائها [الحرب] بلغ عدد اللبنانيين المهاجرين ما يقارب المليون نسمة، وأكثر من نصفهم موارنة»[2].

فالموارنة هم أكثر المعنيين بالهجرة، لأن هذا النزف البشري يطالهم هم بالدرجة الأولى.

وهذا ما تؤكّده الإحصاءات الأخيرة في العام 2007. إذ تشير إلى أن 70% من الشباب الموارنة المقيمين في لبنان يفكّرون بالهجرة، ويعملون جدّياً في هذا السبيل. في حين يكتفي البطريرك، لمعالجة ذلك، بالطلب من السفارات الغربية عرقلة إعطاء التأشيرات (ڤيزا) للشباب اللبناني. دور سلبي وفي أحسن الحالات دور المتفرّج يتكرّر.

وحبّذا لو قال لنا المجمع الماروني ما الذي فعلته الكنيسة المارونية وبمختلف مؤسّساتها ورهبناتها الضخمة طيلة قرن ونصف لمعالجة مسألة الهجرة. والحدّ بالتالي من تداعياتها على المجتمع؟!.

لا شيء سِوى المواعظ. ووعيها لخطورة هذه الظاهرة جاء

---

1 – م.ن، ص 128.

2 – م.ن، ص 117.

متأخّراً جدّاً. ويصحّ فيه المثل القائل: صحّ النوم.

الإمكانات ضخمة جدّاً. والرهبنات تمتلك أموال قارون. فإذا كانت الدولة غائبة، بصورة مستمرّة، فأين دور هذه المؤسسات الدينية لدعم التماسك والتضامن ومستلزمات الصمود داخل هذا المجتمع.

يقول القديس نيقولاي فليميرفيتش:«ليست مهمة الكنيسة كمؤسسة أن تحكم، بل أن تخدم شعب الله حتى إلى الشهادة، تبعاً لما فعله المسيح»[1].

ذهنية الخدمة هذه غائبة، مع الأسف، عن كنائس لبنان ومؤسّساتها.

فهذه الأخيرة تدار بذهنية تجارية بحته. ولا همَّ، في الجملة، لها سوى الربح. فلننظر إلى كل المؤسسات التربوية والصحية التي تملكها الرهبانيات وغيرها من المؤسسات الروحية: المدارس، الجامعات، المستشفيات... إلخ. إنها تدار كما أية مؤسسة أخرى، يملكها علمانيون غير معنيين بالشأن الروحي، وتبتغي الربح. وغالباً ما تفوق أسعار خدماتها ما يُطلب في المؤسسات الأخرى.

أين المؤسسات التربوية التي لا تستهدف الربح؟ أين

---

1 – بيطار، الأرشمندريت توما، سِيَر القدّيسين وسائر الأعياد في الكنيسة الأرثوذكسية، دوما/ لبنان، دير القدّيس سلوان، ط1، 2005، ص الغلاف.

المصحّات والمستوصفات التي تستقبل المعوزين. إنها شبه معدومة. فالدولار وحده يتكلّم في مدارس الرهبانيات وجامعاتها ومستشفياتها. لكأن الرهبان في لبنان قد حذفوا من إنجيلهم عبارة المسيح الشهيرة. «مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا»، (متّى 8/10).

وكأن دأبهم أبداً تكديس الأموال، وفق ما قال عنهم أبو العلاء المعرّي (ت 1057 م).

إذا كشفْتَ عن الرهبانِ حالَهم

فكلّهم يتوخّى التبرَ والورق[1]

ومع ذلك يتكلّمون عن نذر الفقر أحد النذور الرهبانية الثلاثة. يقول الراهب الأب جوزف قزّي شارحاً ومقيّماً هذا النذر في ضوء متطلّبات الحياة الراهنة والمستقبلية:«الفقر إنما يكون في حياتنا ومسلكنا ومظهرنا، يكون أيضاً في إغداق خيرات الرهبانية كلّها على المحتاجين. ولن تنمو الرهبانية، عدداً وفضيلة، إلا بهذا»[2].

كلام جميل، ومقاصد مسيحية/رهبانية سامية. ولكن أين الواقع من هذه المُثُل. إقرأ تفرح، جرّب تحزن. وفي مقال آخر

---

1 – عبود، مارون، زوبعة الدهور، أبو العلاء المعرّي، المجموعة الكاملة، ج9، بيروت، دار مارون عبود، 1975، ص 349.

2 – قزّي، الأب جوزف، الرهبانية اللبنانية المارونية بعد ثلاثمائة سنة أيضاً، ضمن اليوبيل المئوي الثالث للرهبانية، الكسليك/ لبنان، جامعة الروح القدس، ط1، 1996، ص 303.

يتوجّه الأب قزّي إلى إخوته الرهبان، فيعدّد نشاطاتهم التعليمية والتجارية ويسألهم هل هذه هي الحياة الرهبانية. يقول: أريد أن أعرف منكم أمراً واحداً فقط: أبأعمال الرسالة والتبشير والتعليم وفتح المدارس والجامعات وإنشاء المستوصفات والمستشفيات وخدمة الرعايا وكثرة المواعظ، وأعمال التجارة وعمار أبنية للإيجار (...) أنتم رهبان؟![1].

وهي إشارة واضحة إلى ما في الرهبنات من مؤسسات ضخمة تجني الأرباح الطائلة. ولكن، مع الأسف، وما من فلس ينفق لدعم البُنى التحتية للمجتمع وصمود أبنائه وبقائهم في أرضهم. بل على العكس تماماً، فالمؤسسات هذه تغتني على حساب فقر الناس. فتنزع المال من جيوبهم. وفي القيّمين عليها ينطبق قول الذكر الحكيم:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، (التوبة 34/9).

لكأن هذه الآية تتحدّث عن هؤلاء بالذات تحديداً وتخصيصاً.

وأبو العلاء المعرّي (ت449 هـ)، يوجّه إلى الرهبان التهمة

1 - قزّي، جوزف، مقدّمة كشف الخفاء عن محابس لبنان والحبساء، الكسليك/لبنان، ط2، 1988، ص5.

عينها: أكل أموال الفقراء، يقول:

ويعجبني دأب الذين ترهّبوا

سوى أكلهم كدَّ النفوسِ الشحائحِ[1]

لكأنّهم عُرفوا عبر العصور بالمزية هذه.

ولا يزال أهالي الجبل يردّدون، إلى اليوم، كلمة تنسب إلى متصرّف جبل لبنان (داود باشا)، غدت مثلاً:

«أسودان
خرّبا جبل لبنان...
الماعز والرهبان».

ولو اكتفوا بتكديس أموال الناس لهان الأمر، ولكنهم أيضاً يجمعون الأموال على اسمهم وبحجّة مساعدتهم، ولا ينفقونها إلا على أنفسهم ومشاريعهم. ويذكر "حسر اللثام" مثلاً تاريخياً بيّناً على ذلك. يقول:«وجاءت في تلك الأثناء [1845]، أموال وافرة إلى بطريرك الموارنة إعانة للذين نُكبوا في الحرب الأخيرة. فبدل أن يعطيها هذا الرئيس إلى الذين نهبت أموالهم وقتلت رجالهم. وزّعها على قسسه وعمّاله ليستعملوها آلة لإضرام نار الحرب الثانية» [2].

وفي حرب 1975 – 1990، أعاد التاريخ نفسه. فالأموال

1 - مسعود، د. ميخائل، أدباء فلاسفة، بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1993، ص 233.

2 - حسر اللثام، م. س، ص 118.

والمساعدات التي أُرسلت أو استعطيت من الخارج ابتلعتها، في الغالب، المؤسسات الدينية والرهبنات. أو وزّعت في أحسن الحالات على المحاسيب والأقرباء. وكيف يراد لهذا المواطن البقاء في أرضه. و "دود الخل منه وفيه" كما يقول المثل اللبناني.

وجاءت حرب تمّوز – آب 2006، بالمثل المعاكس والذي يدين الرهبنات والتنظيمات والأحزاب في المجتمع المسيحي. فقد قامت المقاومة بتوزيع ما وصلها من إعانات وأموال على المتضرّرين بهذه الحرب ومن كل الطوائف. أياً يكُن مصدر هذه المساعدات، فهي على الأقل قد صُرفت ووُزّعت حيث يجب، وحيث شاء لها واهبوها أن تُصرف. أما المساعدات التي أتت خلال فترة الحرب الطويلة (1975 – 1990)، فلا نعرف كيف دُرّبت وصرفت. ولا مَن يجيبنا على سؤال كهذا.

أثناء إقامتي في الهند، رأيت مرّة على باب أحد الأديار الهندوسية *Ashram* طابوراً هائلاً من المعوزين يقفون منتظرين، فسألت راهباً هندوسياً بجانبي: ماذا تنتظر هذه المئات على باب الدير. فأجاب إنهم ينتظرون وجبة الطعام التي نوزّعها عليهم مجّاناً مرّات ثلاث في كل يوم، هذا ما تعلّمناه من الرهبان والإرساليات المسيحية. ولا نزال نقوم به بانتظام إلى اليوم. فكان جوابي أيا ليتكم تعيدون اليوم تعليم هؤلاء ما تعلّمتم أنتم منهم بالأمس.

وغالباً ما يكون كل دير هندوسي في الهند مقروناً بمصحّ

وعيادات تُجرى المعاينات فيها وتوزّع الأدوية مجّاناً ولِمَن يشأ. وإلى جانب الدير مدرسة مجّانية يتعلّم فيها أهل الجوار. ويتولّى الدير تمويلها والإنفاق عليها.

بل وفي أحياء الضاحية الجنوبية لِبيروت، وقرى الجنوب اللبناني أمور مماثلة: عيادات مجّانية، مدارس، تأمين مياه وبنى تحتية للصمود تتولاّه المقاومة.

فأين نحن من كل ذلك وفي أديارنا المال الداخل مفقود، لا يعرف أين ينفق وكيف.

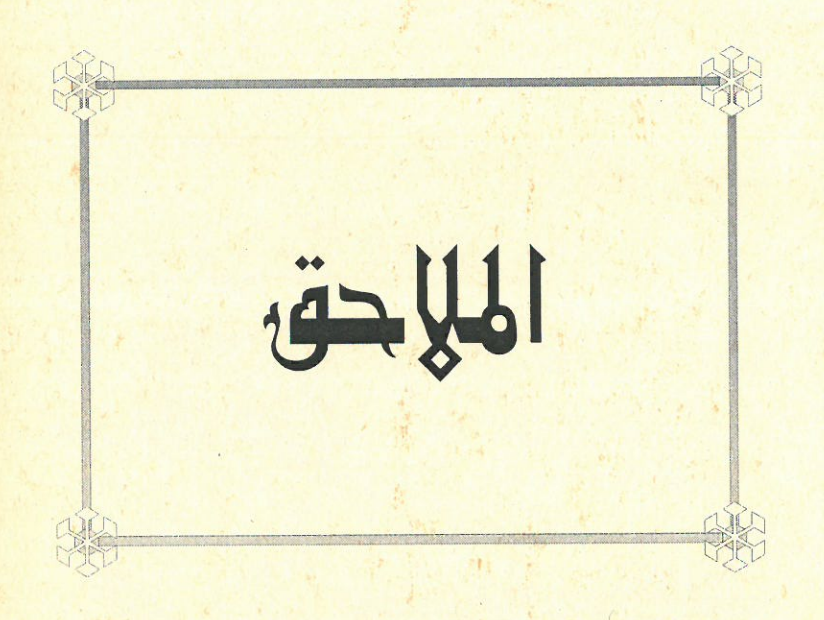
إن المسيحيين في الشرق صنف من البشر على طريق الانقراض بسبب الهجرة والتهجير وغيرها.

لننظر أوضاعهم في العراق. لقد شكّل الاحتلال الأميركي كارثة على الحضور المسيحي فيه. فبفعل اضطهاد الأصوليين والتكفيريين لم يعد عدد المسيحيين المقيمين في العراق يتجاوز الثلاثين ألفاً. وكان تعدادهم قبل الاحتلال بالملايين.

وفي فلسطين المحتلّة، تمارس حركة حماس سياسة تهجيرية مماثلة بحق المسيحيين. وفي لبنان، سبعون بالمئة من شباب الموارنة المقيمين يفكّرون بالهجرة، كما سبق.

كل هذه الكوارث، والمسؤولون الروحيّون يكتفون بدور المتفرّج أو الواعظ في أحسن الأحوال. إنّهم شهود زور على هذه الفواجع.

وقد يأتي يوم يصحون فيه، مع مَن تبقّى من مسيحيين، وهُم أهل ذمّة من جديد. فهل مَن يستفيق قبل وقوع الواقعة؟!.



الملاحق



منظر من القرية

مدخل

تأتي هذه الملاحق لترفد دراستنا، وتقدّم بالتالي صورة متكاملة تاريخية أخرى ومعاصرة عن الهجرة مدعومة بالوثائق والنصوص .

الملحق الأول:

يتناول روّاد الهجرة اللبنانية في العصر الحديث. فيعرض لسيرة أنطون البشعلاني أوّل مهاجر لبناني. كما يروي حكاية الهجرة إلى البرازيل وأفريقيا السوداء في مراحلها الأولى وأبرز روّادها. وفي قسمه الثالث يعرض أسماء أبرز روّاد الهجرة اللبنانية إلى مختلف البلدان في الأميركيتين وأستراليا وسنوات هجراتهم. ليختتم بصور لبعض قدامى المهاجرين.

الملحق الثاني:

مجموعة من الوثائق المختصّة بالهجرة الحديثة في مراحلها الأولى، لا سيما منذ عهد المتصرّفية وحتى نهاية الحرب العاليمة الأولى. وقد جمعت من مصادر متعدّدة أشير إليها. والوثائق، كما هو معروف، هي المادة الأولى والأساسية لكتابة التاريخ. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن عملية جمع الوثائق



المتعلّقة بالهجرة اللبنانية لا تزال في طور البداية. ولما تزل تحتاج إلى الكثير من الجهد والتنقيب.

الملحق الثالث:

تناول الصحافة اللبنانية في المهجر. صحافة عربية رائدة استفادت من جو الحرّية في الأميركيتَين والذي حرمت منه الولايالت العثمانية. فعبّرت عن أماني اللبنانيين وطموحاتهم وما يخطّطون لبلادهم. وحفظت الكثير من إبداعاتهم الأدبية والفكرية. وهذا الملحق يلقي نظرة بانورامية على غالبية الصحف والمجلاّت المهجرية ومؤسسيها وحقبات نشاطها. كما يعرض صور الصفحات الأولى لعدد منها.

الملحق الرابع:

كانت للهجرة أصداء مختلفة في الصحف اللبنانية الصادرة في بيروت وسائر المناطق. تراوحت بين مؤيد متحمّس ومعارض محذّر. وهذا الملحق ينقل بعض المقالات المعاصرة للهجرة في أواخر عهد المتصرفية (بدايات القرن 20). ويضيء على ردّات الفعل الأولى على هذه الظاهرة.

الملحق الخامس:

يروي سيَر حياة كبار المهاجرين في العصور القديمة

والوسيطة والحديثة. فمن العصر الفينيقي انتقى قدموس (معلّم معلّمي العالم) وأليسار مؤسسة قرطاجة.

ومن العصر الوسيط ثلاثة من جهابذة العلماء الصهيوني والحاقلاني والسمعاني. وهم تلامذة المدرسة المارونية في روما ولهم دور في نهضة العلوم في فرنسا، ولا يزال المثل الفرنسي القائل *Savant comme un maronite*: عالم مثل الموارنة يعبّر عن نظرة الفرنسيين في بداية عصر النهضة إلى اللبناني/الماروني كمثال للعلاّمة المتبحّر.

ومن العصر الحديث اختار جبرائيل طربية رئيس حكومة كولومبيا والمؤرّخ فيليب حتي.

نماذج من المغتربين الناجحين في مختلف العصور. أما الاقتصار على هذه الأسماء فحتّمه ضيق المجال.

الملحق السادس:

الهجرة بأقلام المهاجرين. اخترنا أديباً مهجرياً ميخائيل نعيمة، وشاعراً مبدعاً فوزي المعلوف (1899 – 1930). فنعيمة يروي في مذكّراته سبعون عودة أبيه من المهجر. كما يسرد قصة سفر أخيه إلى أميركا. يعرض نعيمة أسباب الهجرة وخلفياتها وظروفها ودوافع الاغتراب بأسلوب يجمع بين الواقعية والدقة والإبداع الأدبي. فنصوصه هي وثائق وشهادات تاريخية وتُحفة فنية في آن.

أما فوزي المعلوف فنقلنا له قصيدة كتبها وهو على الباخرة في الطريق إلى المهجر، يحكي فيها لوعته وأسباب هجرته. وهي نموذج لهجرة كُثُر غيره من الشباب.

الملحق السابع:

الهجرة في أدب المقيمين بتيّارَيه المتغنّي بالهجرة والناعي لها.

فمن التيار الأول نشيد المهاجرين لشارل القرم، ومن التيار الثاني أبرز ما كتب فؤاد سليمان في الهجرة، ونصوصه أدب إنساني خالد أبدع في التعبير عن المعاناة.

الملحق الثامن:

طرائف ونوادر من المهجر. الهجرة بوجهها الضاحك والمبتسم. وأحياناً كما يقول المثل: شرّ البلية ما يضحك. وقد اخترنا اثنين من فكاهيي لبنان عرفا الهجرة، وأقاما في بلاد الاغتراب ردحاً من الزمن ثم عادا إلى لبنان، فكتبا عن مغامراتهما ومغامرات زملائهما في المهجر. والإثنان من زحلة. ومن أقدر من الزحلاويين في الأدب الضاحك.

الأول إبراهيم الراعي، والد الأديب المعروف راجي الراعي، مؤلف قطرات ندى، وقد هاجر في بداية القرن العشرين إلى الولايات المتحدة، ثم عاد إلى لبنان. ويروي طرائف مما

جرى له ولأصدقائه في المهجر.

والثاني نجيب حنكش (1899 – 1979) ظريف لبنان هاجر إلى البرازيل. ولكن حبّه لوطنه دفعه إلى ترك مصانعه هناك والعودة إلى لبنان. اشتهر بالنكتة واستخلاص العبر منها. وننقل له هنا بضعة طرائف من المهجر.

وقد حرصنا في هذه الملاحق، كالعادة، على ذكر المصادر والمراجع التي عنها ننقل.

تبقى كلمة عن الرسوم واللوحات التي تزيّن مختلف فصول الدراسة وهذه الملاحق. لقد جهدنا أن تعرض لتراث لبنان وجمالاته، لاسيما مناظره الطبيعية وحضارة قريته. هذه الحضارة التي قال عنها أنيس فريحة منذ عقود أنها في طريق الزوال. وقد اندثرت عملياً اليوم فلوحات القرية تذكّر بالزمن الذي كان، والوطن الذي هجره أبناؤه، وتُرك تراثه عرضة للضياع.

أملنا أن تكون دراستنا وملاحقها سَفرة شيقة ومفيدة في دنيا الهجرة والمهجر تحفز على سَفر، وإن مؤقت، إلى الوطن.

Q.J.C.S.T.B.

2007/10/15

مجموعة الملاحق

1 - روّاد الهجرة اللبنانية الحديثة.

2 - الهجرة اللبنانية في وثائق.

3 - الصحافة اللبنانية في المهجر.

4 - الهجرة في مقالات صحفية.

5 - مشاهير المهاجرين قديماً وحديثاً.

6 - الهجرة بأقلام المهاجرين.

7 - الهجرة في أدب المقيمين

8 - طرائف ونوادر من المهجر

ملحق أول

روّاد الهجرة اللبنانية الحديثة

فصول الملحق الأوّل:

- بداية الهجرة.
- سيرة أنطون البشعلاني.
- طلائع المهاجرين اللبنانيين إلى البرازيل.
- أوائل المهاجرين اللبنانيين إلى أفريقيا السوداء.
- بعض روّاد المهاجرين
- صور لأوائل المهاجرين

بداية الهجرة

الهجرة مثل الحياة، لم يخترعها أحد. نبتت فجأة في رأس فلاح متني، كما تنبت زهرة برية في "أرض صلبة ومرتفعة". سمع، بالغلط، رذاذ حديث مبهم عن بلدان بعيدة، خلف البحر، فيها هدوء وسلام ومناجم من ذهب. ونمت الزهرة وكبرت، ولم يعد يتّسع لها رأسه. وفي يوم، نهض مطانيوس البشعلاني مخضوضاً. وبدلاً من أن يتّجه صوب الحقل، فوق، كما يفعل كل يوم، ما عدا أيام الآحاد والأعياد المأمورة، يمّم وجهه شطر البحر. نزل ولم يعد.

كل الجبل سمع بأن واحداً من صليما هجر. كل الجبل حبس أنفاسه وأرهف الأذن. لم يستغرب أحد. لم يسأل أحد: لماذا؟ ولا إلى أين؟ لم يسمع أحد عنه شيئاً بعد ذلك. لا خيراً ولا شراً. ولم ينسه أحد. هل يمكن أن ينسوا؟

من يومها، تكاثرت الأزهار في الرؤوس. تسلّلوا واحداً تلو

الآخر. لا يدرون إلى أين ولا ماذا ينتظرهم. المهم أن يبتعدوا عن هذه الأرض. أن يخرجوا من تحت عباءة السلطنة العليّة. شعروا بأن السلطان بدأ يقلّصها، وأن دولاً غربية تتربّص به وتتحيّن الفرص كي تجرّده منها، فيبرد ويمرض، في أربعينيات القرن التاسع عشر. وخافوا بالغريزة أن يدفعوا الثمن.

هكذا بدأت الهجرة. بإرادة فردية. وتحوّلت إلى موجة تبعتها أمواج، تغذّيها ديناميكيتها. وظلّت تكبر دون أن يعيرها أحد اهتماماً، لا لوقفها ولا لتشجيعها. حتى كاد عدد المهاجرين يفوق عدد المقيمين، تتجاذبهم "العواطف الجيّاشة... فوق الجبال الشاهقة والبحار الشاسعة..."، وصاروا كتلة من البشر وكومة من المساعدات وبحراً من الأشواق والذكريات. وصاروا سنداً اقتصادياً واجتماعياً يوضع في مقدّمة الأسباب الخفيّة للمعجزة اللبنانية الأولى[1].

1 - فرشخ، جورج، اقتراع المغتربين، م. س.



المغترب اللبناني الأول أنطون البشعلاني

سيرة أنطون البشعلاني

هو أنطون بن يوسف ضاهر صافي أبي عطاالله، ولد في صليما في 22 آب 1827 ونشأ كسائر أبناء قريته بين الصخور وفي ظلال الأشجار، وعلى ضفاف السواقي، فاستمدّ من صخور لبنان صلابته واستقلاله الفكري، ومن نسيم صليما العليل رقّة شعوره ولطف معشره، وفاح كعطر بنفسجها وأزاهرها أريج

شمائله وطيب أخلاقه. وقد ترعرع وتربّى في بيت فضل وتقوى ومعرفة. وكان والده يعيش مع عائلته من تربية دود الحرير والعناية بالتوت والزيتون وكروم العنب وأشجار الصنوبر. وقد تلقّن مبادئ الدين والعلم عند الآباء الكبوشيين بديرهم في صليما، وأخذ عنهم مبادئ اللغة الإيطاليّة. وفي 5 آب 1839، توفّى ربّ هذه العائلة التي أصيبت أيضاً باحتراق بيتها وتعطيل أملاكها، بسبب الفتن الأهلية التي وقعت بعد خروج إبراهيم باشا المصري والأمير بشير الكبير من لبنان. وكان على أنطون، بصفته البكر، أن يقوم مقام والده بحمل أعباء العائلة، وهو لمّا يتجاوز الاثنتي عشرة سنة.

ولذلك فإنه اضطر أن يرحل بعائلته إلى قرية بجوار بيروت، وما لبث أن اتصل بقنصل إيطالية، فاتخذه من بعض تراجمته لمعرفته الإيطاليّة. وبعد غيبة سنوات رجعت العائلة إلى صليما. واتفق أن اجتمع أنطون بمبشّر إنكليزي من دعاة الأبروتستان في بيروت فأهداه نسخة من التوراة. وجرى بشأنها جدال أدّى إلى خصام بينه وبين رفاقه مما سبّب اعتقاله. وبعد الإفراج عنه عاد إلى صليما، فوجد خبر هرطقته قد بلغ أهله وقابلوه بالجفاء والقطيعة. ثم أن أنطون طلب يد شمونة ابنة يوسف نصر الله أبي عطاالله، وهي من أنسبائه. فأبى أهلها أن يعطوه إياها. إذ لم يغتفروا له هذا الانحراف عن معتقدات آبائه

وجدوده. فتزوّجت شمونه بيوسف غناطيوس البشعلاني. وترك أنطون صليما وأقاربه غاضباً. وقد انقسموا فريقَين فريق معه وفريق ضده.

وعاد إلى بيروت يواصل خدمته عند القنصل حتى سنة 1850. ثم جعل مهنته مرافقة السيّاح الأوروبيين والأميركيين إلى سوريا ولبنان والأراضي المقدسة ووادي النيل بصفة ترجمان. مما قوّى فيه المَيل إلى زيارة بلاد الغرب واكتساب المعارف والعلوم. وقد كان له بينهم أصدقاء ومن جملتهم تاجر من كرام أهل نيويورك عرفه سنة 1852 في بيروت، وأعجب بمناقب أنطون وأخلاقه العالية، وشهد له بالذكاء والنبل واللطف والتفاني في سبيل الواجب. وفي شهر آب سنة 1854 أبحر من بيروت ومعه 300 ريال إلى لندن. ومنها إلى الولايات المتحدة، فنزل مدينة بوسطن في شهر تشرين الأول من هذه السنة. دخل مكتب صديقه التاجر المذكور، وهو بالطربوش المغربي والكبران اللبناني، ووجهه وضّاح وثغره باسم. فدهش التاجر لمرآه، وتفرّس به فعرفه، ورحّب به أجمل ترحيب. وما لبث أنطون أن جدّد علاقات الصداقة مع أصحابه الذين بالغوا في الحفاوة به وإكرام وفادته ودعوته إلى منازلهم. فكان يتنقل في قصور الأسر النبيلة دون تلبّك ولا استغراب كأنه في بيته وبلاده. وقد فتحت له أبواب القلوب قبل أبواب البيوت.

وعكف الفتى اللبناني على الدرس والتحصيل، فكان يدرس الإنكليزية تارةً بنفسه، وطوراً بواسطة معلم أميركي، ويعلّم العربية لِمَن يطلب ذلك، ليمكنه القيام بنفقات معاشه وتعلّمه. وقد عني، في هذه المدّة، بتأليف جمعية للعمّال من المغتربين الإيطاليين الذين كان يعرف لغتهم. وتمكّن بمساعدة أصدقائه من دخول إحدى المدارس العالية، وما لبث أن أصبح بطل المدرسة، محبوباً من الطلبة والأساتذة الذين أعجبوا به لما رزقه الله من توقّد الذهن وعلوّ الهمّة. على أن هذا الإجهاد أثّر جداً في صحته، وأصابه رشح وسعال بسبب اختلاف المناخ. فأخذت قواه الجسدية تنحطّ، وتولّى جسمه النحول والاصفرار، ولا سيما لأنه زاد على دروسه درس اللغتين اللاتينية واليونانية.

وقد طالما حاول أصحابه أن يظهروا له صدق مودّتهم ومحبّتهم بأخذه إلى المصايف، فكانت صحته تتحسّن قليلاً، فيعود إلى الدرس ويعاوده الداء. وأشار عليه بعضهم أن يرجع إلى وطنه. إلا أن الوقت كان قد فات. لأن الداء تملّكه، واضطر أن يدخل المستشفى تاركاً الدرس والتعليم. فأقبل عليه أصحابه يجدّدون شعائر عطفهم. مما أثار فيه ذكريات وطنه وأهله، وبخاصّة والدته التي كانت عوامل الشوق إليها تهيّج فيه الحنين إلى رؤيتها. وخصوصاً لأنه فارقها وهي غير راضية عنه لخوفها عليه من مخاطر الغربة وسفر البحر، ومن خطر فقدان

مبادئ إيمانه وعقائده المارونية بمعاشرته للأبروتستان. ومَن يدري إذا كان قد شعر إذ ذاك بالأسف، وندم على مغامرته هذه وسفره دون رضى والدته.

وأخيراً رأى أن لا أمل بشفائه فأخذ يستعدّ للموت. فكتب وصيّته التي ذكر فيها: «إنه لا مال لديه يورثه لأهله إذ أنفق ما حصّله على الأطبّاء، وإن كتبه وهي بالإنكليزية قد أوصى بها لأصحابه الأميركيين. أما ملابسه الشرقية فأوصى بأن ترسل إلى أهله في صليما حيث يمكن استعمالها. ثم كتب رسالة باسم شقيقه إبراهيم وحنّا ابن عمه سعدالله وذلك، "على همة المستر هرتر في بيروت مع الشكر سلفاً من المخلص أنطون" وكتب عليها هذه الكلمة "لا يجوز إرسالها إلاّ بعد الوفاة". وهذا نصّ رسالة أنطون تحصيلاً واقتضاباً:

حكم الزمان بشملنا فتفرّقا والقلب من جوا الحشا متحرّقا
والعين تبكي على فراق حبيبها طال الزمان متى يكون الملتقى

أخويّ: حنّا ابن العم سعدالله والشقيق إبراهيم المحترمين. غب إهدائكم الأشواق القلبية، والسؤال عن غالي سلامتكم، عساكم بأحسن عافية وتوفيق. وإن جزتم بالسؤال عن حالة أخيكم، فإنه حين تاريخه في أسوأ حال وتحت رحمة الله. ذلك أنني في شهر نيسان سنة 1855 رشحت رشحاً قوياً، ورفض الأطبّاء أن يفصدوني، لأنهم لا يعالجون بالفصد في هذه البلاد.

وتجدّدت النزلة ورافقها سعال، فتناولت الأدوية التي وصفها الأطبّاء، وقد كلّفتني مبلغ 800 قرش، وكنت مع هذا لا أنقطع عن الدرس والتعليم. وفي حزيران 1856، عاد إليّ الرشح فأيقنت أن الموت قريب مني. وكتبت إليكم هذا التحرير حتى إذا انتهى أجلي يرسل إليكم على همّة صديق لي. ولما كان الموت نهاية كل مخلوق، فإني أرقد على رجاء القيامة والاجتماع بكم في حالة الطهارة والبر عند الديّان الجالس على عرش المجد في عالم الخلود. ولا تظنّوا أن ما حلّ بي كان عن إهمال أو قلّة عناية، فقد عوملت أحسن معاملة. ولست آسفاً على ترك هذه الدنيا الفانية. فقد شبعَت عيناي منها، وكم من يوم هنيء قضيته هنا مع أخواني المسيحيين وأصدقائي الأوفياء، حتى ولا سليمان في كل مجده لم يكن بأهنأ عيش مني. وأما أنت يا شقيق الروح إبراهيم فقبّل عني يدَي سيدتي الوالدة، واعتني بها وبأمر الشقيق داود. والله أسال أن يوفّقك في أعمالك، راجياً منكم، يا أخوتي، أن تهدوا لجميع الأقارب والأصحاب سلام الوداع الأخير، خاتماً تحريري بإهدائكم أشواقي للمرة الأخيرة قائلاً: السلام لكم، لا تندبوني بل افرحوا معي واطمئنوا بالاً، والرب الإله يحفظكم ويطيل بقاءكم. أخوكم.

أنطون يوسف ضاهر البشعلاني

صح كتبت تحريري دون تاريخ لأني لا أعلم متى ألفظ

أنفاسي الأخيرة».

وقد تناقلت أخبار بطلنا البشعلاني معظم الجرائد والمجلاّت العربية في المهجر والوطن، بعد أن نشر صديقنا العلاّمة الحتّي نبذته عنه. ومما جاء في جريدة مرآة الغرب بقلم رئيس تحريرها الأديب الكبير نسيب عريضة بشأن أنطون البشعلاني قال: «..وفي السبيل الذي سار عليه أسلافه الفينيقيون سار ذلك الفتى، لا يملك من سلاح الفتح إلا أمله الوثيق، ومن عدة النجاح إلا حلمه الرائع، ومن حطام الدنيا إلا 300 ريال جمعها بعرق الجبين. وسار يطلب أميركا التي سمع بها ولم يعرفها، ولم يكن يدري ولا الذين غادرهم في وطنه دروا، بأنه طليعة جيش عظيم، لا يلبث أن يسير في أثره إلى أرض كولمبس. وأن هناك مجالاً لفتوحات جديدة، لا بالسلاح والكتائب بل بقوة العزيمة والعمل المجدي.. أن هذا الفتى حمله الطموح إلى أرض أميركا المجهولة لينضمَّ إلى جيش المجاهدين الذين تألّفت منهم الأمّة الأميركية.. إنه بقيّة أجيال مغامرين فتحوا العالم وثقّفوه قديماً، فجاء يطلب ما وزّعه جدوده في العالم من كنوز العلم والعرفان. وقد بقيَ أمر هذا الفتى منسياً، وبقي ضريحه منسياً حتى اكتشفه الدكتور حتّي، وعثر على كتاب سيرته الذي نشره أصدقاؤه إكراماً لذكراه واعترافاً بفضله. فما أجمل هذا الإكرام، وأجمل

منه أن نقتدي نحن بعارفي فضله، ونجدّد ذكراه بتجديد ضريحه المنسي، ونغرس أرزة من أرز لبنان عند ضريح الغريب المنسي أنطونيوس البشعلاني أول مهاجر لبناني»[1].

طلائع المهاجرين اللبنانيين إلى البرازيل

بعد زيارة الأمبراطور [دون بدرو الثاني] إلى لبنان سنة 1876 زادت الهجرة نحو البرازيل بنسب كبيرة. وحصلت الموجة الكبرى عام 1880. وقد تميّزت الهجرة العربية إلى البرازيل بكونها تألّفت ليس فقط من المزارعين بل أيضاً من أفراد النخبة السياسية والثقافية، إذ إن هدف الهجرة كان أيضاً ضمان الحياة الحرّة في المهجر ثم العودة للعيش حياة أفضل في الوطن. وكانت النيّة في البداية أن تكون الهجرة لوقت معيّن ثم العودة الظافرة بعد ذلك إلى الوطن... وتوجد خلافات حول أوّل لبناني هاجر إلى البرازيل. إلا أن العديد من الاستقصاءات تشير إلى أن المواطن يوسف موسى، من مواليد مزيارة في لبنان الشمالي الذي وصل إلى البرازيل عام 1880، كان أوّل لبناني خرج من لبنان متّجهاً رأساً إلى البرازيل، بخلاف غيره الذين

---

1 - البشعلاني، الخوري أسطفان، تاريخ بشعلي وصليما، بيروت، دار صادر، ط2، 2003، ص 334 - 338.

ذهبوا أوّلاً إلى مصر وأوروبا ثم اتّجهوا شطر البرازيل. وفي نفس الوقت وصلت أيضاً إلى البرازيل أوّل مجموعة من المهاجرين من بلدة السلطان يعقوب في سهل البقاع، وبعد تلك المجموعة الرائدة جاءت مجموعات أخرى وابتدأت قصّة الهجرة اللبنانية إلى البرازيل.

وكان المهاجرون اللبنانيون سواء منهم المزارعون أو المثقّفون يصلون إلى البرازيل، وذلك بصورة خاصّة من خلال مرفأي سانتوس وريو دي جانيرو، وهم صفر اليدَين. فكان عليهم أن يبدأوا من حيث وصلوا... غير أن روح الشجاعة التي كانوا يتحلّون بها كانت تدفع بهم إلى التفتيش عن لقمة العيش في إطار الحرّية وذلك في مناطق برازيلية رئيسيّة ثلاث. المنطقة الشماليّة حيث إنتاج المطّاط (الكاوتشوك)، والوسطى حيث المناجم، والجنوب حيث إنتاج البن. وهناك كانوا يناضلون في سبيل أيام أفضل. وأصبحوا، جنباً إلى جنب مع البرازيليين والإيطاليين والألمان مكتشفي ومعمّري هذه المناطق. وقد انطلق اللبنانيون بصورة خاصة في التجارة المتجوّلة يبيعون الخرضوات، فكانوا يحملون صناديق يعرضون فيها الأمشاط، والمرايا، والعطورات الخ... وبما أنّهم كانوا يعرفون أن الشعب البرازيلي هو شعب متديّن، فقد كانوا يعرضون أشياء جاءوا بها من بلادهم، وقيل عنها أنها "مقدّسة" لكونها قادمة من الأراضي المقدّسة، كصوَر

القديسين، وذخائر، وقناني معبّأة بِـ "مياه نهر الأردن" (في فلسطين). يبيعون كل ذلك في الشوارع والقرى والدساكر. فأطلق عليهم في البداية اسم "كاشيروس" وباللغة العربية "أهل الكشّة" (أهل الصندوق). وبعد فترة كانوا يزيدون من كميّات البضاعة ويسافرون بين المدن المتجاورة فيصبحون "تجّار شنطة" مسافرين على غرار المهاجرين الأوروبيين الذين امتهنوا أيضاً نفس المهنة التي تركت أثراً عميقاً في تاريخ البرازيل وفقاً لقول الدبلوماسي والمؤرّخ دولفو مينازس القائل بأن «تاجر الشنطة كان ينتسب بنسب إلى الغزاة المستكشفين الأوائل (البانديرانتس)». وبالواقع فإن تجّار الكشّة هؤلاء قد لعبوا دوراً تاريخياً في تطوّر مناطق الداخل في البرازيل، إذ أنهم كانوا يصلون إلى حيث لا يصل حتى البريد في ذلك الوقت، وينقلون إلى تلك الأماكن أحداث وأخبار المدن الكبرى مساعدين في ذلك على توثيق الصلة بين الأرياف والدساكر والمدن. وما يدعو إلى الدهشة في تاريخ مسيرة اللبنانيين داخل البرازيل أن نجد مثلاً في شمال شرقي البرازيل، في منطقة "الكاتينغا"، المهاجر جميل إبراهيم مثلاً الذي يعود أصله إلى زحلة في هضبة البقاع، الذي وصل إلى البرازيل عام 1910 ثم طوّر حاله عام 1930 في مدينة برنامبوك حيث تعرّف على الأب سيسرو روما وباتيستا وخرج معه، وهو الزعيم الديني الذي كان يقدّسه الملايين من الفلاّحين

في فيافي كاريري، ومع الخارج على القانون فيرغولينو فيريرا لامبياو زعيم جماعة قطّاع الطرق الذين كانوا يأخذون الحقوق بأيديهم، تلك الجماعة التي سجّلت لنفسها تاريخاً من العنف، والملاحقات، والسرقات والموت... ولقد عرف الناس اللبنانيين في تلك المنطقة من خلال جميل إبراهيم (بنجامين أبراو) المصوّر الفوتوغرافي الذي قرّر في وقت من الأوقات أن يصوّر فيلماً عن لامبياو، فكان الوحيد الذي وافق قاطع الطريق على إعطائه الإذن بذلك. وفي ذلك الوقت قامت السلطات بمنع عرض الفيلم. وكانت هذه المرّة الأولى التي مورست فيها الرقابة السياسية على الأفلام في البرازيل. وإذ أصيب بالإحباط، عاد جميل إبراهيم إلى الداخل ووجد مقتولاً عام 1938، وذلك قبل إبادة لامبياو ورفاقه بمدّة شهرين. وهي تلك الإبادة التي وضعت حدّاً نهائياً للحركة التي أطلق عليها اسم الـ "كانغاسو". غير أن الأفلام والصور التي أخذها جميل إبراهيم تحوّلت إلى أرشيف تاريخي تشكّل اليوم مرجعاً موثوقاً حول تلك الحركة.

وعديدة أيضاً هي الأخبار التي تروى عن عرب عاشوا في الأدغال مع الهنود الحمر وغيرهم. نذكر منهم إبراهيم فرحات الذي هاجر عام 1910 إلى البرازيل ووصل إلى ريو برانكو في ما كان يسمّى آنذاك "مقاطعة اكري" في أعالي الأمازون على الحدود مع بوليفيا. وبدأ يعمل "تاجر كشّة" في الأدغال بين

مزارعي المطّاط والهنود الحمر، وأصبح ابنه سعيد إبراهيم فرحات وزيراً اتحادياً للإعلام عام 1980، كما أن ابنه جوزيه الذي عاش ودرس فترة في لبنان قد عاد إلى البرازيل، وشغل لفترة مركز سكرتير في اتّحاد التجارة لولاية سان باولو، وأصبح ابنه الأصغر المحامي ألبير فرحات الذي عاد إلى لبنان أوّل برازيلي عضو مجلس بلدي في لبنان.

نذكر من بينهم نصري رشيد الهبر الذي هاجر إلى البرازيل عام 1912 حيث مارس التجارة الجوّالة على مركب نهري بائعاً ومقايضاً البضاعة فكان أوّل رجل أبيض وصل إلى منطقة "التا تابا جوس" الخاصّة بالسكان الأصليين... كما أن آخرين قد تزوّجوا هنديات بحيث نجد اليوم هنوداً يحملون أسماء عربية.

وعندما كان الماريشال روندوف يقوم بتركيب شبكة التلغراف في ولاية ماتو غروسو (في القرن التاسع عشر) فإنه قد وجد جريدة عربية في الأدغال مما يؤكّد الوجود العربي في المنطقة (الوثائق حول هذا الموضوع موجودة في متحف الماريشال روندوف وفي معهد التاريخ والجغرافيا).



الأخوة يافت 1893 (من أوائل المهاجرين إلى البرازيل)

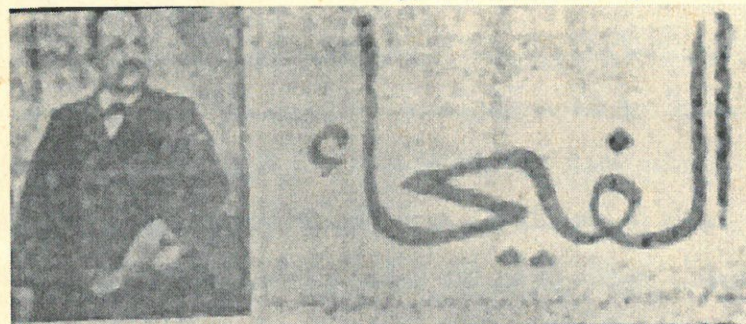
أما البعض الآخر فقد برزوا منذ البداية في المدن الكبرى، نذكر من بينهم المهاجر نعمة يافت (1860 – 1923) الذي وصل إلى سان باولو عام 1893. وإذ كان نعمة يافت أستاذاً كبيراً في المدرسة السورية (التي أطلق عليها فيما بعد اسم جامعة بيروت الأميركية)، كما كان مؤرّخاً، وعالماً اجتماعياً وشاعراً (التقى بدون بدرو الثاني في لبنان عام 1876) فإنه قد غادر لبنان بسبب المضايقات التي تعرّض لها. ولقد أصبح يافت في البرازيل زعيماً حقيقياً للجالية اللبنانية، وأسّس في سان باولو "ديوان المعرّي" وهو مكان كان يجتمع إليه الشعراء والأدباء العرب. ولقد صدر عن هذه اللقاءات الكتاب الذي ألّفه قيصر معلوف بعنوان "ذكرى المهاجر" والذي أصبح أوّل ديوان شعر عربي

صدر في البرازيل. ولقد كان يافت أيضاً رائداً لصناعة النسيج البرازيلية مسهماً بذلك في تطوّر البرازيل الصناعي.

ونذكر أيضاً جوزف سركيس الذي هاجر إلى البرازيل عام 1895، وأقام في مدينة سانتا ماريا بولاية ريو غراندي دوسول، وكان أحد الروّاد في منطقة جنوبي البرازيل، وأصبح حفيده اليوم باولو جورج سركيس عميد جامعة الدولة (الاتحادية) في مدينة سانتا ماريا.

وشيئاً بعد شيء أخذ اللبنانيون يستقرّون ويغادرون فكرة الهجرة المؤقّتة كلّما شعروا بالراحة في البرازيل. وهم قد مرّوا بالمرحلة الابتدائية مرحلة تاجر الكشّة التي جعلت منهم رواداً حقيقيين للتجارة. ثم انتقلوا إلى مرحلة أعلى اجتماعياً عندما أخذوا يتطوّرون مع الدساكر الصغيرة والمدن الصغيرة حيث كان يمكن للمرء أن يجد، دوماً، كنيسة وصيدليّة و "دكّان سليم". ومع ازدياد حجم تلك المدن كان اللبنانيون يشاركون في جميع النشاطات التي تهدف إلى تقدّمها وخصوصاً أن العديد منهم كانوا قد أصبحوا آباء لأولاد برازيليين. وهكذا، انطلاقاً من تجارة الكشّة التي كانوا يحملونها على ظهورهم، فإنّهم فتحوا دكاكين صغيرة تحوّلت مع الوقت إلى محلاّت تجارية كبيرة. ثم، عندما شعروا بالاستقرار الاقتصادي والاندماج الاجتماعي، أخذوا يتعاطون بأمور الثقافة والعلم والسياسة. وأخذوا يؤسّسون النوادي والجمعيات والمدارس ودور الأيتام والمستشفيات والصحف. وقد

صدرت أوّل صحيفة عربيّة في البرازيل في مدينة كامبيناس عام 1895 على يد سليم باليش، اللبناني الذي يعود بأصله إلى زحلة، والتي أخذت اسم "الفيحاء" مدللاً بذلك على أن فكرة البقاء نهائياً في البرازيل، تلك الأرض التي حضنتهم واستقبلتهم بترحاب، كانت قد رسخت منذ ذلك الحين[1].



الفيحاء أوّل جريدة عربية في البرازيل سان باولو 1895

أوائل المهاجرين اللبنانيين إلى أفريقيا السوداء[2]

يقول المسنّون من المغتربين في نيجيريا أن أوّل مَن وصل من اللبنانيين إلى لاغوس هو شخص من مزيارة، وكان ذلك عام

1 – خطلب، روبرتو، البرازيل – لبنان صداقة تتحدّى المسافات، ذاكرة واستعراض تاريخي 1876 – 2000، ترجمة ألبير فرحات، بيروت دار الفارابي، ط1، 2000.

2 – خالد، عبدالله، الشرق الأوسط وهموم المغتربين، طرابلس، دار جرّوس، ط1، 1994، ص 114 – 116.

1885. وأن قصّته بدأت مع "بقِجة" حملها معه من قريته ووقف على الرصيف ينتظر الباخرة التي سوف تشحنه إلى أمريكا. وأمريكا يومها كانت العالم المليء بالذهب. وأتت الباخرة التي كانت تابعة لشركة تمارس السرقة وتقود المهاجرين إلى مرسيليا ومنها إلى العالم الجديد.

ويعتبر سمعان نعوم أوّل مهاجر وصل إلى مدينة "كانو" عام 1905. وحكاية سمعان تشبه القصص التي نراها في أفلام السينما التي تصوّر حياة الهنود الحمر. ففي تلك السنة وصلت قافلة من النيجيريين عبر الأدغال قادمة من لاغوس. وكانت الخيول محمّلة بالبضائع ليتاجروا بها. سلاحهم في ذلك الوقت، القوس والنشّاب والسيوف والساطور، للدفاع عن النفس ومواجهة الحيوانات الكاسرة.

ويُروى أن سمعان نعوم افتتح مدينة "كانو" قبل الإنكليز. وأنه عندما عاد إلى لاغوس أعلم السلطات الإنجليزية بتلك المقاطعة التي كانت تجهلها. وأن سمعان سكن بيتاً من القشّ داخل سور المدينة كالنيجيريين. يدعى البيت "موكابا". وهو مأواه ومركز عمله معاً. وبعد سمعان وصل مخايل بولس. وحكاية مخايل تستحقّ أن تُروى. فقد كان أوّل "كاوبوي" في أفريقيا، وليس في هذا القول أي مبالغة. كان عمل مخايل بولس تربية الخيول في لاغوس، ومن ثم سوقها عبر الأدغال

والطرقات الوعرة إلى مدينة "كانو" وهي تبعد عن العاصمة حوالي 1200 كلم. كان يأتيها راكباً على ظهر فرسه. وغالباً ما كان يعود ماشياً.

وإذا كان البحر هو الطريق الذي أقلّ المهاجرين إلى أفريقيا، فإنه لم يكن الطريق الوحيد. فهناك طريق آخر كان يسلكه بعض المهاجرين، هو طريق السودان وصحراء التشاد وصولاً إلى شمال نيجيريا، وإما عبر ليبيا التي جاء منها رجل على ظهر جمل عرفه اللبنانيون آنذاك في نيجيريا وهو بن علّوه، وقد قدم إليها عام 1915... وكل ذلك من أجل الوصول إلى أرض كانت تعرف في ذلك الوقت باسم "مقبرة الرجل الأبيض".

لقد سلك الروّاد الأوائل إذن طريقَين. وإذا كانوا نجحوا وعبّدوا الطريق أمام مَن تبعهم، فمردّ ذلك أنهم عرفوا أن أبجدية النجاح تتطلّب منهم، الصبر والعمل من دون تذمّر أو شكوى والاستقامة. فمنازلهم لم تكُن كالمنازل التي تركوها في قُراهم ومُدنهم، بل كانوا يسكنون في بيوت من القش أو القصب. كما كانوا يأكلون من ثمر الأشجار وأعشاب الأرض. وهذا ما أكّدته السيدة فضل الله التي قالت أن والدها علي محي الدين الطاهر قد عاش هذه التجربة عندما كان في "تامبول" يتاجر بالفستق.

"الموكابا" إذن كان أوّل ما سكنه اللبنانيون أمثال سمعان نعوم. وبيته ما زالت آثاره قائمة حتى اليوم. إلا أن المغتربين

الذين جاؤوا من جويا من جنوبنا الصامد، سكنوا خارج أسوار مدينة "كانو" في مكان يسمّى "الجورة" بسبب انخفاضه. وما زال هذا الاسم يُطلق على تلك المنطقة. وقد اعتمد في "الجورة" نظام يقوم على بناء المتجر، على أن يُبنى فوقه المنزل، ليبقى المغترب أغلب الوقت في المكان نفسه.

والواقع أن المهاجرين اللبنانيين لم يقيموا في بيوتهم طوال العام. فقد كتب عليهم، بسبب تنوّع عملهم وتعدّد نشاطهم، أن ينتقلوا إلى البر في مواسم الفستق حيث يقيمون في أكواخ أو شبه منازل في البراري مع مكاييلهم لمدة ثلاثة أشهر تقريباً، ليعودوا بعدها وقد أصابهم الهزال. وقد قيل أن الرواد الأوائل في تجارة الفستق، كان يصعب التعرّف عليهم، حتى من أقرب المقرّبين إليهم، نظراً للضعف الذي يصيبهم لاستمرار عيشهم في جحيم البر.

والواقع أنه ليس سهلاً، على الإطلاق، أن نعدّ ونحصي ما قام به المغتربون من أعمال. لكن الروّاد الأوائل الذين ما زالوا على قيد الحياة يعدّون أنواع الأعمال التي تدرّج فيها المغتربون.

في البداية عمل اللبنانيون والسوريون في بيع الخرز. ولذلك أسموهم "الكابورا" الذي منح لهم بسبب تعاطيهم العمل بالخرز.

بعد تلك المرحلة عرف المغتربون نوعاً آخر من العمل هو تجارة الفستق. وعندما نقول تجارة يجب أن لا نتصوّر الأمور

كما هي اليوم. فالتجارة آنذاك تعني الانتقال من حقل إلى حقل، ومن مكان إلى مكان آخر، في ظروف مناخية مأساوية، بدءاً من الشهر العاشر من كل سنة حتى نهاية الشهر الثاني من السنة التالية.

وقد عمل كثيرون في هذا الحقل قبل أن يتم الانتقال إلى المرحلة الثالثة، وهي الإتجار بالأقمشة عبر مانشستر. وعلى فكرة فإن مانشستر بالنسبة للمغتربين هي أشهر من باريس ولندن ونيويورك(...).

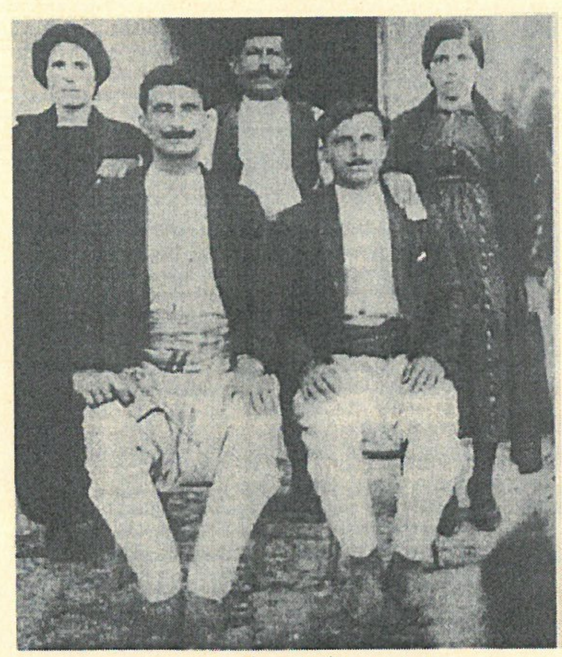
بعض روّاد المهاجرين

من هؤلاء الروّاد:

- **في الأرجنتين:** الياس المعلم من عشقوت (1856) وحبيب النشابي من بشري (1868) وأنطونيو عوّاد وميخائيل ملحم السمعاني واسكندر كرم ويوسف رفول (1880).
- **في البرازيل:** أخوان من عائلة زخريا (1878)، ثم يوسف موسى من مزيارة (1880)، وكان منصور عبدالسلام أول لبناني يتوفّى في البرازيل سنة 1887.
- **في التشيلي:** نقولا سرور (طرابلس) وميشال شيخاني (بكفيا).
- **في السنغال:** علي عكر (1870).
- **في المكسيك:** رشيد كامل من بكفيا ويعقوب صوما عوّاد من حصرون (1882).

- **في الولايات المتحدة الأميركية:** فهيم نوح الخوري باسيل وابن عمه سمعان من قرية الحدث في جبة بشري سنة 1870.
- **في أوستراليا:** نخله ناصيف ومسعود النشبي الفخري وميشال يزبك ورشيد عريضة ورفول واكيم.... من شمالي لبنان، وحنّا عبود من راشيا الوادي، وطانيوس أبو خطار من زحله وحنّا الديك وجورج سكان (1867).
- **في بريطانيا:** سمعان أدلبي وزوجته رفقا (1855) وعبدَالله طراد (1862).
- **في كندا:** إبراهيم أبو نادر من زحلة، وسليم الياس الأشقر، وجوزيف جباوي (1881).
- **في كوبا:** أنطون فرح من عابا الكورة (1879) وابنه نسيم (1884)، وردان كرم أبو حمد المعروف باسم فيليب إيليا (1885) وسليمان ميلان عازار (1885) من علماء (قضاء زغرتا).
- **في كولومبيا:** عقل سكر، فريد شاكر (1880) [1].

1 - الملاّح، الهجرة، م. س، ص 249.



المهاجرون الأوائل إلى أميركا الجنوبية



مهاجرون إلى أميركا 1898 بلباس أميركي



فريق من المغتربين في أولفايرا / البرازيل 1900 معظمهم من قرية صليما



مرفأ سانتوس/البرازيل حيث كان يصل المهاجرون اللبنانيون

دون بدرو الثاني: أمبراطور البرازيل

دون بدرو الثاني: أمبراطـور البرازيـل (1825 - 1891). زار لبنان 1876. وكان لزيارته أثر كبير في تشجيع اللبنانيين على الهجرة إلى البرازيل.

ملحق ثاني

الهجرة اللبنانية في وثائق



راعي يعزف على الناي

وثائق الملحق 2:

1 – رسالة من مهاجري كوبا إلى البطريرك الحاج 1894.

2 – رسالة من مهاجري البرازيل إلى البطريرك الحاج 1897.

3 – خطاب المتصرّف مظفّر باشا في العاقورة 1902.

4 – رسالة المتصرّف مظفّر باشا إلى البطريرك الحويك 1902.

5 – رسالة البطريرك الحويك إلى الكهنة 1902.

6 – رسالة من المطران عوّاد إلى البطريرك الحويك 1903.

7 – رسالة البطريرك الحويك إلى الصدر الأعظم 1903.

8 – رسالة من المطران عوّاد إلى البطريك الحويك.

9 – رسالة ثالثة من المطران عوّاد إلى البطريرك الحويك 1911.

10 – تكليف من المطران عوّاد 1911.

11 – عريضة من المهاجرين في مصر إلى السلطان عبدالحميد.

12 – عريضة من جمعية لبنانية في كوبا إلى مؤتمر الصلح.

13 – رسالة الجمعية السورية – اللبنانية إلى وزير الخارجية الأميركي 1918.

14 – رسالة ثانية للجمعية السورية – اللبنانية 1920.

I- رسالة من مهاجري كوبا إلى البطريرك يوحنا الحاج

1894/02/15

[illegible]

ونحن اولاد غبطتكم الذين واضعين اسمائنا ادناه اننا مقيمين في سانتياغو كوبا التابعة اسبانيا حررنا لغبطتكم

في ٢ ك سنة ٩٦

١٥

II – رسالة من مهاجري البرازيل إلى البطريرك الحاج

1897/04/01

«برازيل» سان باولو في ١ نيسان سنة ١٨٩٧

«مار بطرس يوحنا الحاج»

حضرة صاحب الغبطة والسيادة الحبر المفضال بطريرك انطاكية وسائر المشرق

بعد التيمن بلثم ارجليكم الطاهرة والتماس بركة ادعيتكم المقدسة وجب علينا نحن اولاد غبطتكم ابناء الطائفة المارونية القاطنين موقتاً في هذه الحضرة من اعمال البرازيل التشرف بتقديم هذه العريضة لنادي غبطتكم لننوب عنا باداء فروض الطاعة والديانة وصدق العواطف التي ما برحت ظاهرة في كل فرد منا لنحو كرسيكم البطريركية الموقرة. وجل القصد ان نلقي على مسامعكم الشريفة بعض الامور التي يهمكم الاسراع في اجرائها والتمسك باذيالها وهي محافظتنا على اداء فروضنا الدينية بكل ما تأمرنا به الكنيسة البطرسية حسب مرغوب غبطتكم. ولا غرو فان الشيء بالشيء يذكر والحقيقة لا تسمح لنا ان نتوقف عن اهداء الشكر والثناء العاطر بواسطة غبطتكم لحضرة الاب الغيور والشهم الهمام الفاضل الخوري يعقوب حليبا المقيم معنا في هذه الاقطار البعيدة الذي له علينا الايادي البيضاء بواسطة سعيه الدائم لتثقيفنا وترويض افكارنا ديناً وادباً ولا يغره شيء سوى الاستقامة وصدق الخدمة بوظيفته المهمة التي عهدت اليه من غبطتكم متقاعساً عن كل ما يخل بحقوق الانسانية وشرف الطائفة المارونية الى انه بهذه المدة الاخيرة قد سنحت لنا الفرصة بمساعيه الخيرية بالنظر لما فطر عليه المشار اليه من الرقة ودماثة الاخلاق بتشكيل جمعية خيرية من شأنها الاسعاف للعموم السوريين تنتسب للطائفة المارونية وقد تم عقدها

والحمد لله بمحبة اخوية واصبحت في هذه الاقطار امثولة لغيرها من الجمعيات من حيث الابهة والبهاء مستوفية لكل
الشروط اللازمة وجميع اعضاءها وموظفيها من ابناء الطائفة المشار اليها وقد انتخبنا بالصوت الحي لمنصة
رياستها من كان سبباً لهبوب هذه الغيرة الحميدة نائب غبطتكم حضرة الاب الفاضل المشار اليه الخوري يعقوب
حليبا . فبناءً عليه نرجو من حنوكم الابوي تثبيت مشروعنا هذا الخيري ملتمسين ارسال الاجازة التي
تشملنا برضاكم ودعاكم وعلى كل الاحوال نحن جميعنا لغبطتكم من الشاكرين والله تعالى لا يحرمنا وجودكم

الداعين



مظفّر باشا متصرّف جبل لبنان (1902 – 1907) من أوائل الذين تنبّهوا لمخاطر الهجرة وعملوا للحدّ منها

III – خطاب المتصرّف مظفر باشا في العاقورة.

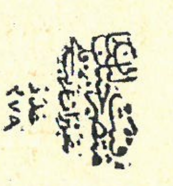
زار مظفّر باشا متصرف جبل لبنان بلدة العاقورا/جبيل وألقى كلمة ضمّنها رؤيته لواقع الهجرة في جبل لبنان 1902/11/03.

«والحالة أنه بالنظر إلى الامتيازات الممنوحة للبنان، كان الأحرى به أن يكون قد سار مراحل في سبيل التقدّم والفرح. أما شواهد الحال فتشهد بالعكس على تقهقره يوماً بعد يوم، حتى لم يعد في وسعه القيام بعيالة بنيه فيهجرونه زِرافات ووحداناً، وهذا مما يزيده افتقاراً وسوء حال. نعم إننا قد رأينا في لبنان دُوراً أشبه بالقصور، وبذخاً طافحاً في كل مكان، لكننا لم نرَ ينبوع الثروة المستفيض منه ذلك البذخ، إلا فضلة من فضلات المال. نرى الفضلة ولا نرى الأصل. نرى الوجه السلبي للاقتصاد، فأين وجهه الإيجابي. على أن المال الذي يكتسبه بعض اللبنانيين من الخارج لا يصدق عليه القول بأنه مورد ثروة حقيقية للبنان. لأنه وقتي عرضي ومحصور في بعض الأفراد، فلا يجعل البلد غنية في ذاتها»[1].

1 – جمعة، م. س، ص 44 – 45.

IV ـ رسالة من المتصرّف إلى البطريرك

رسالة مظفّر باشا متصرّف جبل لبنان إلى البطريرك الماروني الياس الحويك 1902.



قُدْس السيد الكلي الطوبى والوقار البطريرك الياس بطرس الحويك بطريرك الطائفة المارونيّة الجزيل الطوبى دامت قداسته

... وردتنا تحريرات من نظارة الداخلية الجليلة مفادها أن سفارة باريس السنية أبلغت نظارة الخارجية الجليلة أن مأموري الدولة العليّة الموجودين في مواني الممالك المحروسة التي تمرّ فيها بواخر قومبانية سير السفاين قبل وصولها لـ "مرسيليا" يسهّلون للعثمانيين السفر والمهاجرة لأميركا وأكثرهم يأتون لـ "مرسيليا"، وبسبب عدم تداركهم أسباب معيشتهم يمنعون من الخروج إلى البرّ. ومَن يتوفّق منهم بالخروج إلى البرّ يتعذّر عليه الوصول لأميركا. وأن الحكومة الفرنساوية آخذة بطرد وإبعاد المهاجرين المذكورين الموجودين بدرجة الفقر والفاقة من أراضيها. وتطلب السفارة المشار إليها عدم إعطاء التسهيلات بالمهاجرة لأميركا لِمَن لا يمكنه إثبات أسباب معيشته.

بناءً عليه، وحيث كان من الضروري إبلاغ أهالي جبل لبنان هذه الأحوال والمحذورات، فقد تحرّر بالكيفيّة لعموم القائمقامين ليعلنوا ذلك على جميع أهالي المتصرّفية، ليعلم كل منهم أن مَن يقدم على السفر، بدون أن يكون لديه ما يقوم

بأسباب معيشته، يصادف ما ذكر من الصعوبات والإهانات، فضلاً عمّا يتحمّله من مشقّة السفر ومصاريفه بدون فائدة. حيث يصير طرده وإبعاده. كما أفادت النظارة المشار إليها. واقتضى إبلاغ ذلك لغبطتكم، بغية أن تُصدروا الأوامر اللازمة بهذا الشأن لِمَن يقتضي من الإكليروس، لبثّ النصائح المقتضاة للأهالي، وتلاوة تحريراتنا هذه عليهم في الكنائس. ونحن أيضاً قد حرّرنا بذلك لسيادة المطارِين راجين دوام إتحافنا ببشائر انشراحكم السارّة...

18 رمضان سنة 1321 (1902) [1].

متصرّف جبل لبنان

مشير

1 – الملاّح، م. س، ص 257.

V – رسالة البطريرك الحويك إلى الكهنة

إعلام خاص بالكهنة من البطريرك الياس الحويك يبسط فيه التحذير الوارد من متصرّف جبل لبنان مظفر باشا. 1902/12/23.

«... قد رغب إلينا دولته أن نعلن ذلك على الأهالي من أبناء طائفتنا بواسطة مَن يقتضي من الإكليروس، ليعلم كلاًّ منهم أن مَن يقدم على السفر بدون أن يكون لديه ما يقوم بأسباب معيشته يصادف ما ذكر من الصعوبات والإهانات، فضلاً عمّا يتحمّله من مشقّة السفر ومصاريفه، بدون فائدة. حيث يصير طرده وإيعاده، كما أفادت النظارة المشار إليها. فبناء على ذلك، وإجابة لرغبة دولته، وجب تحريره لحضرتكم، لتعلنوا مآل ما تقدّم على عموم أبناء طائفتنا الموجودين في جهتكم، حتّى في الكنائس أيضاً ليكونوا على بصيرة (من أمرهم)....

23 كانون الأول 1902[1].

الحقير الياس بطرس البطريرك الأنطاكي

---

1 – الملاّح، م. س، 258 – 259.

VI – رسالة من المطران بولس عوّاد إلى البطريرك الحويك، 1903/01/28

«... منذ ثلاثة أيام حضر لدي عزتلو فتح الله بك (منصور) وحدّثني طويلاً في ما هو جار بين دولة مخدومه ووالي بيروت من الخلاف الجسيم، ومسألة تسفير اللبنانيين من بيروت تحت حماية حكومة لبنان. وأخذ يوضح لي، بإسهاب، الفائدة العظيمة التي تحصل من نفوذ أفكار ومساعي دولته في ذلك للبنانيين، ومنع الاعتداء المتواصل عليهم وسلبهم وإهانتهم، ووفرة المتاعب والضحايا التي يتحمّلها دولته في هذا السبيل. ثم تطرّق من ذلك إلى بيان أنه من الواجب مساعدة اللبنانيين له، وخصوصاً رؤسائهم، بأن يعرضوا واقع حالهم لجلالة السلطان ويلتمسوا إما تخويلهم فرضة لبنانية مخصوصة، أو الإذن لحكومة الجبل بحماية المسافرين منهم على مينا بيروت، منعاً للاعتداءات الفظيعة التي تحصل لهم.

ثم طلب إلينا أن نسعى لدى غبطتكم بأن توجّهوا نظركم نحو هذه المسألة التي فيها منافع عظيمة للبنان وحفظ كرامة لأهله. فضلاً عما وراءها من الفوائد السياسية. وأن تحرّروا على

الأقل عريضة لجلالة السلطان بذلك، إما ممضاة من غبطتكم وسائر الأساقفة، أو منكم وحدكم، وترفعوها لجلالته ضمن تحرير منكم لنجيب أفندي ملحمه. فيقدّمها بصورة مخصوصة لجلالته. بحيث تبقى مكتومة إذا لم تشاؤوا اشتهارها. وهو يعتقد أنها تأخذ مفعولها. وتكونوا بذلك أدّيتم خدمة جليلة للبنان، وساعدتم دولته على هذه المصلحة...

وبعد البحث الطويل معه في فوائد هذه المداخلة... وعدناه بأن نبسط الأمر لغبطتكم. وقد عرض أن يعمل صورة العريضة التي يُراد رفعها بالتركيّة حتّى لا نحتاج إلى ترجمان، وأرسلها إلينا أمس مع ترجمتها الحرفية إلى الإفرنسيّة. وطلب إلينا أن نرجو غبطتكم بعمل هذه المساعدة لصوالح لبنان لأنكم ألزم بها، وأن نعيد إليه الصورة المذكورة بعد أن تستنسخوها...

الذي لحظناه أن فتح الله بك مرسل إلينا من قبل دولته، لأنّا قابلنا دولته بعد ذلك وحدّثنا ملياً في هذه المسألة. ولمّح لنا إلى مناسبة عرض ذلك لجلالته من قبل غبطتكم...»[1].

---

1 – الملاّح، م. س، ص 49 – 50.

VII – رسالة البطريرك الحويك إلى الصدر الأعظم

نزولاً عند رغبة المتصرّف مظفر باشا بعث البطريرك حويك برسالة إلى الصدر الأعظم لمنع الاعتداءات الفظيعة التي كان يتعرّض لها المسافرون(أواخر كانون الثاني 1903)

لجانب باشكتابة المابين الهمايونية الفخيمة

منذ عدة سنين اخذ كثير من اهالي لبنان يهاجرون الى الديار
الاجنبية لغير سبب من جهة حكومة دولتنا العلية بل لمجرد ضيق
المعاش وعدم وجود اراضي كافية في لبنان للارتزاق منها مع ازدياد
نموهم . وجميعهم يهاجرون بقصد الرجوع الى وطنهم لشدة تعلقهم بدولتنا
العلية التي يتباهون بها في الممالك الاجنبية غير ان ما حصل
لهم من مدة من الصعوبات وما يقع عليهم غالب من الاعتداء
والمضار في المواني العثمانية التي يمرون فيها بذهابهم وايابهم
جعل كثيراً منهم يعدلون او يترددون عن الرجوع لوطنهم .
واذ كنا على يقين من شمول جميع العثمانيين بعواطف جلالة
متبوعنا الاعظم فنرجو ان ترفعوا لعرشه الاسنى عرض
عبوديتنا هذا ليتنازل بحلمه العالي ويأمر بمداواة هذا
الامر بما يراه ملائماً بحكمته السامية والله نسأل ان يحفظ
ذاتكم الخاقانية بجليل عنايته ويؤيد اريكة شاهانية مدى
الدوران افندم

عبده
الياس الحويك
بطريرك الطائفة
المارونية

«من عدّة سنين أخذ كثير من أهالي لبنان يهاجرون إلى الديار الأجنبية، لا لسبب من جهة حكومة دولتنا العليّة، بل لضيق المعاش، وعدم وجود أراضٍ كافية في لبنان للارتزاق منها، مع ازدياد نموّهم، وجميعهم يهاجرون بقصد الرجوع إلى وطنهم، لشدّة تعلّقهم بدولتنا العليّة، التي يتباهون بها في الممالك الأجنبية.

غير أنّ ما حصل لهم من الصعوبات، وما ينالهم من الاعتداء والمضار في المواني العثمانية، التي يمرّون بها بذهابهم وإيابهم، جعل كثيراً منهم يعدلون، أو يتردّدون، عن الرجوع لأوطانهم. وإذا كنّا على يقين من شمول جميع العثمانيين بعطف جلالة متبوعنا الأعظم، فنرجو أن ترفعوا لعرشه الأسنى عرض عبوديتنا هذا ليتنازل بحلمه العالي ويأمر بمداواة هذه المسألة بما يراه ملائماً بحكمته السامية..» [1].

إلياس الحويك

بطريرك الطائفة المارونية

1 – جمعة، م. س، ص 47.

VIII – رسالة ثانية من المطران عوّاد إلى البطريرك الحويك دون تاريخ.

ان دولته مرّ صباح اليوم في جونيه فاعلمته بحسن استعداد غبطته وكيف
انه لما بلغه اهتمام دولته بامر المراكب التجارية شرع ان يعضده في مشروعه
العائد على اللبنانيين بزيادة النجاح والرفاهية فطيّر التلغرافات البرقية الى المابين
والباب العالي في الشأن المذكور. فاجاب انه كان يود ان تكون الرسائل
المذكورة منطوية على تعداد المشاق التي يلاقيها اللبنانيون عن طريق بيروت
فقلت لدولته ان طلب غبطته استخدام المراكب الى فرض لبنان فيه
الماع خفي الى سوء حالة المهاجرين و[illegible] وبينت له عدم اقتدار
غبطته نظراً لكونه رئيس طائفة على التظاهر باكثر مما فعل وزدت ان غبطته
راغب مثله في عمل عرائض يسترحم فيها اللبنانيون عدم منع البواخر
التجارية من طرق فرض لبنان و[illegible]. فقال يجب ان تتضمن
العرائض المذكورة الماع الى ما يقاسيه المهاجرون من ضروب الاهانات
بمرورهم على طريق بيروت وياحبذا لو كانت مقتصرة على ذكر
تلك الاهانات دون التصريح بطلب المراكب اذ اثبات الاهانات السابق
الايماء اليها [illegible] ان ينيل اللبنانيين بغيتهم ويحقق امنيتهم من
طريق عرضية ومن ذلك يعجب [illegible] الدولة لو طلب البوسطة
بالقضية بالحاح

٨

حرفياً وهذا ما وجب عرضه وابقاكم الله لنا سنداً وذخراً.

ح: ان الامير فيصل لم يتمكن من الاتصال من افندي طريق حلب لانشغالها بالمخابرة
مع بيروت ورفضها قبول رسائل منه وسيادة الحكومة ويبقى
منتظراً حتى الساعة العاشرة ونصف فاذا تعذر عليه ارسال التلغرافات
عن الطريق المذكورة يعمد الى ارسالها عن طريق بيروت اذ يكون المدير
العام قد غادر ادارة التلغراف في تلك الساعة فيأمن عدم اطلاعه
عليها الا بعد مدة (1)

1 – الملاّح، م. س، ص 264 – 265.

IX – رسالة ثالثة من المطران إلى البطريرك. 1911/11/04

X- تكليف من المطران بولس عوّاد 1911/04/25.

XI – عريضة من مهاجري مصر إلى السلطان عبدالحميد

بدون تاريخ ولا توقيع

لجانب معالي أعتاب ذي الشوكة المؤيدة سيدنا ومولانا السلطان الغازي عبدالحميد خان الأعظم أعلى الله في الخافقين منارهُ وعظّم في الدارين آثارهُ.

يتجاسر مقدّمو هذه العريضة من عبيد جلالتكم اللبنانيين والسوريين المقيمين في القطر المصري أن يعرضوا على أعتابكم السنيّة الشاهانيّة بكمال الخضوع والاحترام أن أسلاف جلالتكم العظام خصّوا جبل لبنان الذي أسعدهُ الله بأن يكون من ضمن أملاك جلالتكم المحروسة بامتيازات أنعمت بها عليه عائلتكم العثمانية الشريفة رأفةً بأهلهِ وإتماماً لأسباب راحتهم ورفاهتهم، حتى انطلقت ألسنتهم بالدعاء للسدّة الملوكانية وتعلّقت قلوبهم بصدق الولاء للعرش العثماني. فلم يحدث من عهد الإنعام بتلك الامتيازات على لبنان أقل أمر يدل على فساد أو عصيان. بل إن أهله كلهم مقيمون على عهد الإخلاص وصدق الطاعة والولاء لسلاطينهم العظام. غير أن الفائدة التي كانت تقصدها النيّات الملوكانية الشريفة من هذه الامتيازات لم تحصل بسبب ما قارنها من وسائل التضييق، حتى أصبحت البلاد ممتازة اسماً ومحرومة فعلاً من المزايا العادية الممنوحة لسائر البلاد

الشاهانية. ومن ضمن تلك الوسائل اختصار مساحة الجبل وسلخ ما كان يتبعهُ من جهة البقاع عنهُ وحرمان أهله من المواصلات البحرية على السواحل اللبنانية. وإلزامهم باتخاذ الثغور الخارجة عن متصرّفيتهم تسهيلاً لتلك المواصلات. كأن جبل لبنان منفصلاً عن سائر الممالك المحروسة. فترتّب على الأمر الأول تضييق نطاق الأعمال الزراعيّة. وعلى الأمر الثاني إلزام الأهالي بغرامات هم في غنى عنها. فأدّت إلى كساد بضائعهم والعطل على تجارتهم.

وعدا عن ذلك فإن المادة التاسعة من النظام اللبناني قضت بأن تكون المحاكمة في الدعاوى التجارية في مجلس تجارة بيروت. والظاهر من نصّها أن الغرض من ذلك كان تسهيل النظر في قضايا الأجانب مع الأهالي. ولكن التوسّع في هذا الأمر، وإطلاقهُ على الدعاوى التي بين الأهالي بعضهم مع بعض، أوجب عرقلة المعاملات التجاريّة المحليّة، بسبب الصعوبات والمشقّات التي يعانيها أهل الجبل في انتقالهم من بلادهم إلى خارجها.

فكانت نتيجة تلك الأمور كلّها أن أبواب المعيشة ضاقت عليهم. فجعلوا يرحلون عن وطنهم ويهاجرون إلى البلدان الأجنبية ألوفاً ألوفاً. فانعكس المقصود من نظامات الدولة العليّة. واستبدل نظام البلاد وعمرانها وسعادتها بالفقر والخراب

والتقهقر. وعلت شكوى الذين لم يهاجروا، وكثر تذمّرهم من تلك الأمور المغايرة. حتى رمقتم البلاد بعين عنايتكم السنيّة، واخترتم لإدارتها دولتلو مظفّر باشا متصرّفها الحالي. وزوّدتموهُ بما رأتهُ حكمتكم السامية مزيلاً للشكوى ومفيداً للراَحة والرفاهية من الأوامر الشريفة والإرادات السنية، فدعا أهل لبنان لجلالتكم بطول العمر ودوام العز، واستبشروا بمستقبل سعيد حين رأوا الشروع في تنفيذ أوامركم السامية وأخصّها جعل فرضة جونية ميناء للبنان. ولكن أصحاب المطامع والأغراض الذاتية من أهل بيروت وغيرهم خافوا أن تفلت فريستهم اللبنانية من مخالبهم. فقاموا يُحبطون سعي الساعين في هذا المشروع الحميد، ويموّهون بأمور باطلة من شأنها تغيير خاطر جلالتكم على اللبنانيين وحرمانهم من النِعَم التي تفيض بها مكارمكم الشاهانية على التبعة العثمانية. وهذا ما ألجأنا إلى رفع عريضتنا هذه إلى الأعتاب السنية مسترحمين ومحوّلين الأنظارالسامية إلى الحالة السيئة التي بات لبنان فيها، بسبب تلك المساعي العدوانية، راجين أن مكارمكم الشاملة تشمل لبنان:

أولاً: بتوسيع حدودهِ من جهة سهل البقاع إلى حدّ نهر الليطاني، مع تكليف المتصرّفية اللبنانية بتحصيل الأموال المقرّرة للدولة العليّة وتوريدها إلى خزينتها العامرة كما هو جارٍ الآن.

ثانياً: بمساواة السواحل اللبنانية بباقي السواحل العثمانية من حيث مرسى المراكب البخارية وغيرها فيها. وأن تؤدّى فيها الرسوم الجمركية المقرّرة للدولة العليّة كما تؤدّى في سائر المواني العثمانية.

ثالثاً: بتوسيع نطاق اختصاص المحاكم اللبنانية بحيث أنها تنظر في المسائل التجارية بدايةً واستئنافاً.

وليس في هذه الأمور الثلاثة أقل امتياز. بل إن هي عين ما هو جارٍ في سائر الممالك المحروسة. وحرمان لبنان منها يجعله ممتازاً عنها ليس في الفائدة بل في الخسارة. وهذا ما لا ترضاهُ عدالة جلالتكم، ولا يوافق شريف مقاصدكم. ورفْعُنا هذه العريضة إلى الأعتاب السنيّة وعرْضُنا استرحامنا على جلالتكم أقطع دليل على صدق عبودية اللبنانيين وتعلّقهم بالعرش الحميدي السامي، وعلى كذب الذين يتّهمونهم بالميل إلى سواكم. فإننا مع وجودنا نحن الموقّعين عريضة الاسترحام هذه خارج وطننا الأصلي لا ننسى مما علينا من واجب العبودية لجلالتكم، ولا نفتر، نحن وسائر إخواننا الباقين في لبنان، عن الدعاء لشوكتكم بالعمر المديد ودوام العزّ والتأييد لدولتنا العليّة بالرفعة وعلو الشأن والأمر لِمَن له الأمر[1].

---

1 – الملاّح، ص 247/8.

XII – عريضة من جمعية لبنانية في كوبا إلى مؤتمر ڤرساي 1919.

جمعية النهضة اللبنانية في بوارتو بادري/كوبا إلى مؤتمر الصلح في ڤرساي تطالب باستقلال لبنان تحت وصاية فرنسا[1].

جمعية النهضة اللبنانية

LEBANON LEAGUE OF PROGRESS

1 - كرم، جورج أديب، أحزاب اللبنانيين وجمعيّاتهم في الربع الأول من القرن العشرين، بيروت، دار النهار، ط1، 2003، ص 206.

XIII – رسالة الجمعية السورية – اللبنانية إلى وزير الخارجية الأميركي 1918.

رسالة حول عدد من الأمور المتعلّقة بوضع سوريا ولبنان وتبرز الوثيقة الهيئة التنفيذية للجمعية. د. أيوب ثابت رئيس، أمين الريحاني نائب رئيس. جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة أمينَي سر[1].

"NO PEOPLE MUST BE FORCED UNDER SOVEREIGNTY"
"UNDER WHICH IT DOES NOT WISH TO LIVE"
PRESIDENT WILSON

LEAGUE'S PROGRAM

"TO SEEK THROUGH FRANCE AND HER ALLIES THE LIBERATION OF SYRIA AND LEBANON FROM TURKISH RULE AND TURKISH SOVEREIGNTY, REAL OR NOMINAL."

DUPLICATE

New York City, May. 10 1918

Honorable Robert Lansing,
Secretary of State,
State Department,
Washington, D.C.

Honorable Sir:

We beg to inclose herewith a duplicate of a memorial which we have the honor to submit to His Excellency President Wilson.

In addition thereto we beg to submit to your Honor what follows:

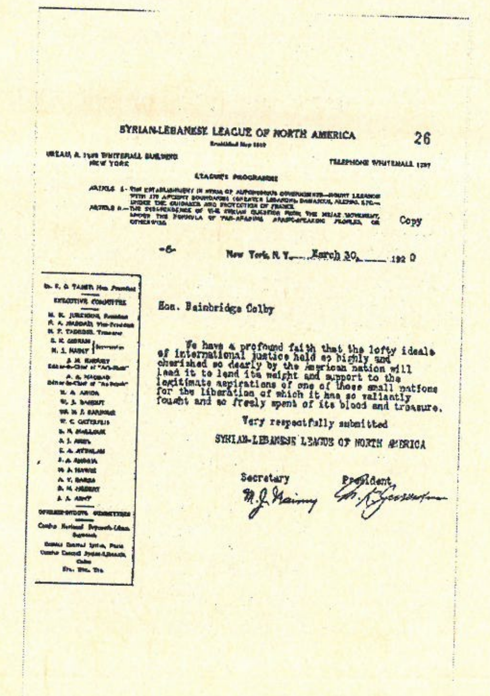
First- In the early part of the Spring of 1913, after the conclusion of the Turkish-Balkan War, a wide spread movement of reform was inaugurated in Syria. The Vilayet of Beirut, consisting of nearly 800,000 inhabitants and by far the leading section in Syria, established its movement on a representative basis. Each of the regional districts elected its own delegates through the sectarian boards of the various communities, and the delegates were constituted as respective local organizations. The Beirut organization became the central body, and it was called The Beirut Reform League. That was during the Ministry of Kiamel Pasha.

Second- When the Young Turk Government returned to power, the project for reforms which the above central League had drawn up was submitted in the regular way to the Vali, then Hazim Bey. The Government in Constantinople alleged that the action of the League was revolutionary, and the League was summarily suppressed and several of its leading members were court-martialed and imprisoned. The commercial concerns of the city of Beirut, a town of more than 150,000 inhabitants, closed their doors to all transaction of business in sympathy with the League, and refused to reopen until the imprisoned members had been set free.

1 - كرم، م. س، ص 203.

XIV – رسالة ثانية للجمعية - السورية اللبنانية 1920.

تدعو الرسالة إلى دعم مطالب الشعوب الصغيرة. وتبرز أسماء أعضاء الهيئة التنفيذية الجديدة (1918/05/12): د. أيوب تابت رئيس فخري. ندرة حدّاد نائب رئيس - جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة أمينَي سر[1].



SYRIAN-LEBANESE LEAGUE OF NORTH AMERICA 26

NEW YORK TELEPHONE WHITEHALL

LEAGUE'S PROGRAMME

Copy

-6- New York, N. Y. March 30, 1920

EXECUTIVE COMMITTEE

Hon. Bainbridge Colby

We have a profound faith that the lofty ideals of international justice held so highly and cherished so dearly by the American nation will lead it to lend its weight and support to the legitimate aspirations of one of those small nations for the liberation of which it has so valiantly fought and so freely spent of its blood and treasure.

Very respectfully submitted

SYRIAN-LEBANESE LEAGUE OF NORTH AMERICA

Secretary President

M. J. Naimy

1 - كرم، م. س، ص 204.

ملحق ثالث

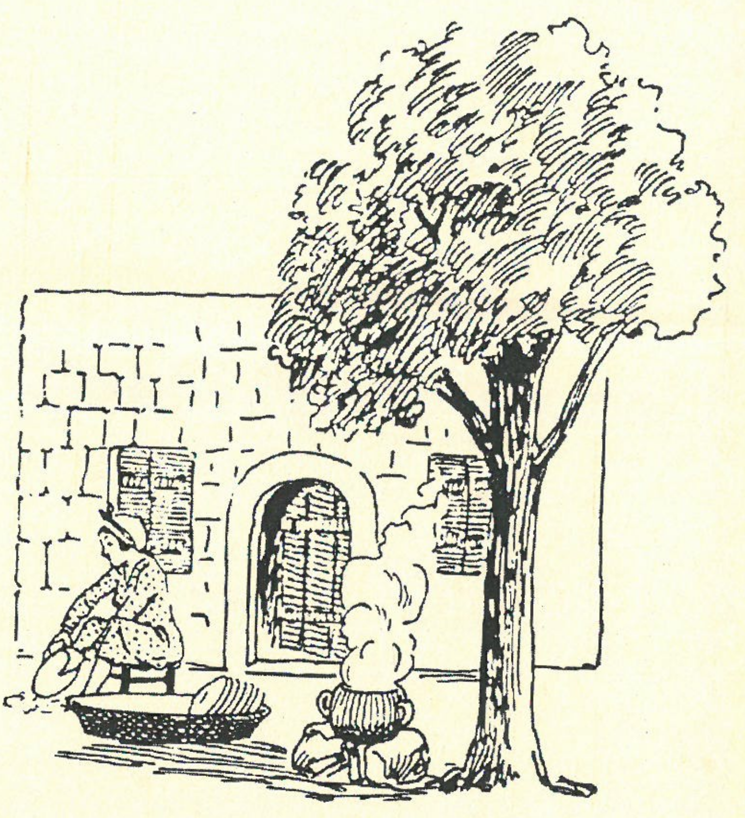
الصحافة اللبنانية في المهجر

كانت أولى الصحف العربية في الولايات المتحدة "كوكب أميركا" التي أصدرها نجيب عربيلي وإخوته عام 1888، وبعد هؤلاء أصدر نعوم مكرزل "العصر" سنة 1894 في فيلادلفيا، ثم انتقل إلى نيويورك ليصدر "الهدى" عام 1898، وكان قد سبقه إلى إصدار "الأيام" فيها يوسف نعمان المعلوف، وتبعه سلوم مكرزل وأصدر "العالم السوري"

وصدرت فيما بعد جرائد ومجلّات عدّة لأدباء وكتّاب معروفين، ومنها: "الحارس" لأمين الغريّب، و "النسر" لنجيب بدران، و "مرآة الغرب" لنجيب دياب، و"الشعب" ليوسف مراد الخوري، و"الأخلاق" ليعقوب روفائيل، و "الفنون" لنسيب عريضة، و "السمير" لإيليا أبي ماضي، و "السائح" لعبدالمسيح حدّاد، وكانت هذه لسان حال الرابطة القلمية.

وكان نعوم لبكي أول مَن مارس الصحافة في البرازيل إذ أصدر في ريو دي جانيرو "الرقيب" بشراكة أسعد خالد عام 1896، وتوالى بعدئذ صدور الصحف حتى بلغ عدد ما ظهر منها في العاصمة وحدها نحواً من أربعين بين جريدة ومجلّة.

وانتقل نعوم لبكي عام 1899 من العاصمة الشاملة إلى سان



مطبخ في ظل شجرة

باولو، وأصدر فيها بشراكة فارس نجم "المناظر" وكان شكري الخوري قد سبقه إلى إصدار " الأصمعي" بشراكة خليل ملوك، وأصدر بعدها عام 1906 "أبو الهول".

وتدفق من ثم سيل الصحف... فكانت "الأفكار" للدكتور سعيد أبو جمرة، و "البرازيل" لقيصر وجميل المعلوف، و "الميزان" لأسطفان غلبوني، و "الجديد" لنجيب طراد، "والجالية" لجورج مسرّة، و "فتى لبنان" لرشيد عطية، و "الأمازون" لفارس دبغي، و "الحمراء" للفضل بن الوليد (الياس طعمة)، و"الجريدة" للدكتور خليل سعادة، و "الكرمة" لسلوى أطلس سلامة، و "الشرق" لموسى كريّم، و "الدليل" لتوفيق ضعون، و"العصبة الأندلسية" وغيرها.

وفي الأرجنتين صدرت "الفيحاء" عام 1894 لسليم بالش، وساعد نعوم لبكي في تحريرها، إذ كان هناك قبل انتقاله إلى البرازيل، وسنة 1898 أصدر الخوري يوحنا سعيد "الصاعقة" ثم أبدلها بِ "صدى الجنوب"، وجاء شكري الخوري من البرازيل عام 1899، وأصدر "الصبح" بشراكة خليل شاول، ثم ابتاع شكري خزامة مطبعتها وأصدر "الصدق".

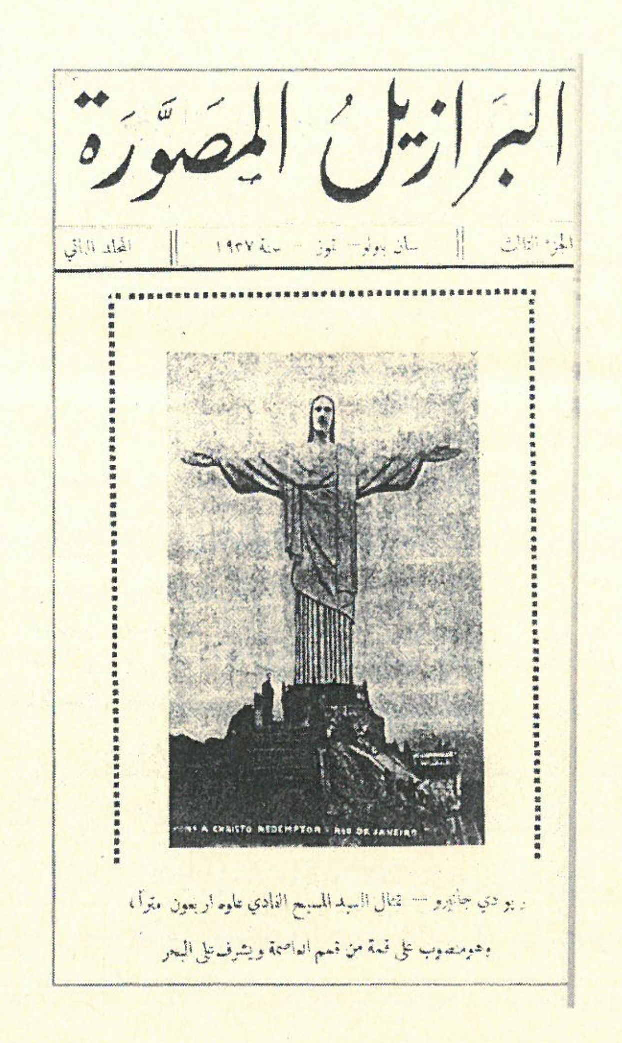
وصدرت بعدها "السلام" لوديع شمعون، و"الزمان" لمخائيل السمرا، و "المرسل" للمرسلين الكريميين اللبنانيين، و "الجريدة السورية اللبنانية" لأمين قسطنطين، و "التمدّن" لحبيب أسطفان

وجبران مسوح، و "الاستقلال " للدكتور جورج صوايا، و"الحياة" لجورج عساف، و "العَلَم العربي" لعبداللطيف الخشن، و"الاتحاد اللبناني" لرشيد رستم، الخ...

وصدرت في المكسيك عدّة صحف منها: "الشرق" ليوسف كرم وعقل البشعلاني عام 1905، و "المطامير" لعقل البشعلاني وسعيد عقل سنة 1908، و "صدى المكسيك" لبطرس الخوري طوبيا، و"الخواطر" ليوسف صالح الحلو، و"الصاعقة" ليوسف مسلّم، و "الاعتدال" ليوسف غسطين، و"المفكّر الحرّ" لحليم نصار، و "الرفيق" لمحبوب الخوري الشرتوني، و"القسطاس" لفريد سليم، و "الفرائد" لخليل نصر وداود الشرتوني، و"الأمير – بالآسبانية" لألفونس عوّاد، و "الرونديل – بالآسبانية" لإبراهيم بيطار، وهذه الأخيرة في مقدّمة الصحف التي تُعنى بالشؤون الرياضية وخاصة بصراع الثيران.

ومن الصحف التي صدرت في شيلي "المرشد" للخوري بولس الخوري عام 1913، و "المنبر" ليوسف مسعد سنة 1915، و"الوطن – الأولى" لداود مجاعص سنة 1919، و "الشبيبة" لجميل شوحي، و"التفاهم" لأنطون الجمل، و"الاعتدال"لتوفيق ضعون، و"الهادي" لأنطون الجمل، و"العالم العربي – بالإسبانية" لجرجس أبو صباح، و "النشرة العربية" لسليمان عويس، و"الوطن – الثانية" للطلبة العرب الجامعيين.

وفيما يلي صورَ الصفحات الأولى لبعض الصحف والمجلّات اللبنانية في المهجر.


البرازيل المصوّرة

الجزء الثالث || سان باولو — تموز — سنة ١٩٣٧ || المجلد الثاني

ريو دي جانيرو — تمثال السيد المسيح الفادي علوه اربعون متراً، وهو منصوب على قمة من قمم العاصمة ويشرف على البحر

البرهان

مجلة ادبية علمية جامعة

السنة الاولى . العدد الثاني | تصدر مرة كل شهر | شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٠

محتويات هذا العدد

باب السياسيات

حقوق الرئاسة — سلطة رئيس الولايات المتحدة اوسع من سلطة الملوك — ليس لاية محكمة في البلاد كلها صلاحية لمحاكمته مهما يكن نوع التهمة

٢ من صفوف الاشتراكيين الى قصر الاليزه — الكسندر ميلران رئيس جمهورية فرنسا الجديد — لمحة من تاريخ حياته مع رسمه

٣ من هو اوجين دبس المرشح الاشتراكي لرئاسة البلاد الاميركية — بعض مبادئه السياسية وملخص تاريخ حياته

تيرنس مكسويني — وصيامه حتى الموت

باب الادب والاجتماع

قصيدة «صيحة البرهان» — لاسعد رستم

قصيدة — «الوفاء»

باب التاريخ

لمحة من تاريخ بعض الثورة العربية (مصورة) «لمحمد المحيسن»

باب التحرير

اللغة الفصحى او اللسان العامي

* * *

باب التجارة والاقتصاد

عوامل الثروة — الوسائط العملية التي يجب اتخاذها في الحصول على الثروة

أيسر او عسر في الاشهر المقبلة — الحالة التجارية الحاضرة حيال انقلاب الحكم في البلاد — مسالة العمال — وغلاء المعيشة — مشكلة السكن والبناء لا خوف من حدوث ازمة مالية

* * *

باب الصحة

النزلة الوافدة او الانفلونزا — اعراضها وكيفية الوقاية منها — علاجه

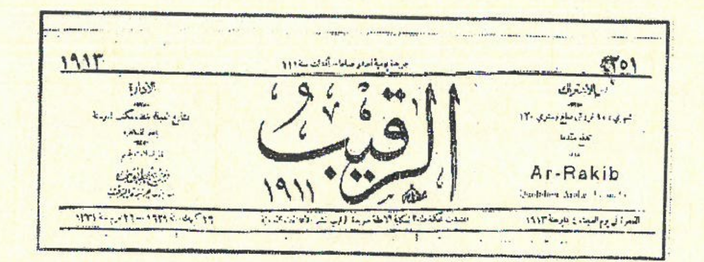
* * *

متفرقات

سعيد الخوري وحنة ايوب — مصورة

الحوادث المهمة التي حدثت في خلال الشهر

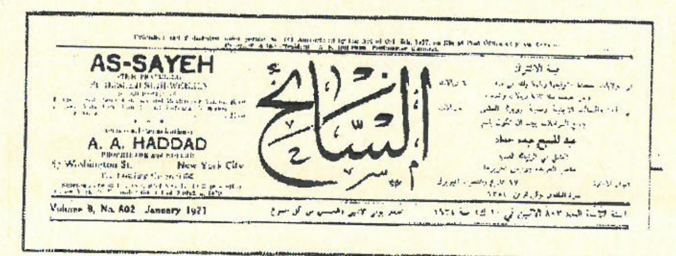
المطبعة التجارية السورية الاميركية . اصاحبها سلوم مكرزل . نيويرك


١٩١٣

الرقيب

1911

Ar-Rakib


AS-SAYEH

السائح

A. A. HADDAD

Volume 9, No. 602 January 1921


العدد ١

السنة الأولى

ضياء الخافقين

Dia-ul-Khafikain.

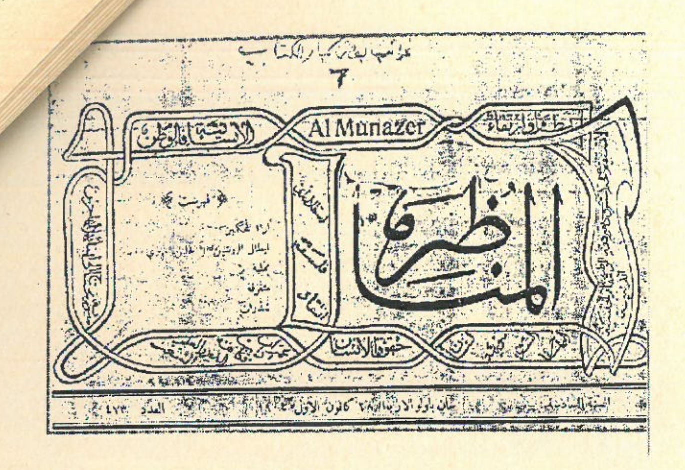
(THE LIGHT OF THE TWO HEMISPHERES.)

جريدة في العلوم والفنون والسياسة والاخبار الصادقة

تصدر في مدينة لندن

في كل شهر مرة

الاثنين في ١ شباط سنة ١٩١٢


Al Munazer

المناظر

الراوي AL-RAWI

يصدر السبت PUBLISHED SATURDAYS

٥ ريالات في السنة $ 5,00 Per Annum.

جورنال اجتماعي ادبي تصويري

The first and only Oriental Illustrated Paper

Proprietors, AL-RAWI Publishing Co.

عنوان المراسلات والاشتراكات

Editor AL-RAWI,

76 BROAD ST. New York City

U. S. A.

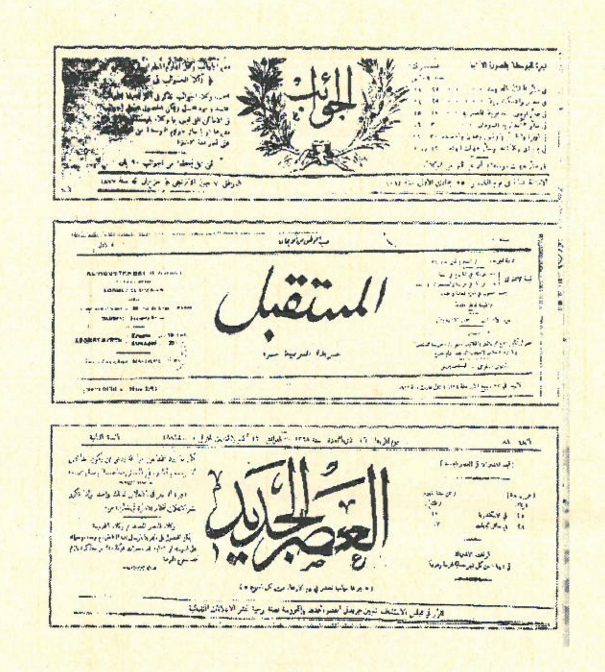
وكلاء الراوي

في عموم القطر المصري — حنا افندي نقاش بالاسكندرية

في سوريا ولبنان — ادارة لسان الحال ونسيب افندي صبرا

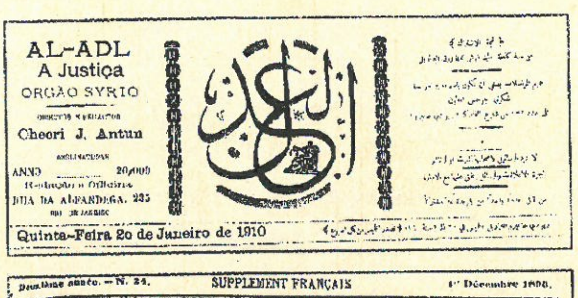
نيويورك السبت في ٨ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٠٢

New York, November 8th. 1902

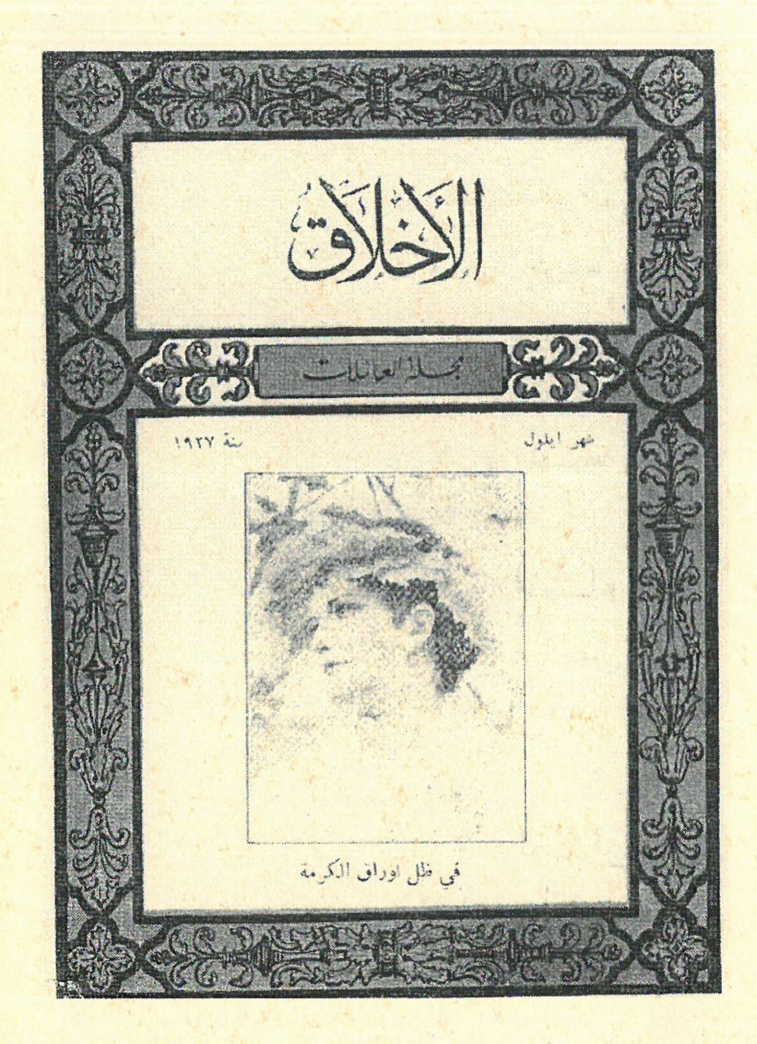

الجوائب

المستقبل

العصر الجديد


AL-ADL
A Justiça
ORGÃO SYRIO
Cheori J. Antun
ANNO 20,000
RUA DA ALFANDEGA, 235
العدل
Quinta-Feira 20 de Janeiro de 1910


Deuxième année. — N. 24. SUPPLEMENT FRANÇAIS 1er Décembre 1898.
RÉDACTION
43, Rue Monge, 43
PARIS
MECHVERET
Organe de la Jeune Turquie
Publié sous la Direction de Ahmed RIZA
10 CENTIMES
« Ordre et Progrès »


الأخلاق
مجلة العائلات
شهر ايلول
سنة ١٩٢٧
في ظل اوراق الكرمة



ابو الهول

SPHYNGE

العلم اللبناني



الاخلاص

الرئيس ابتاسيو ووزراه

Salve
15 de Novembro
1889 1919



الأرزة

جريدة جمعية ارزة لبنان الرسمية

الاشتراك

الادارة

Rio de Janeiro

الارزة

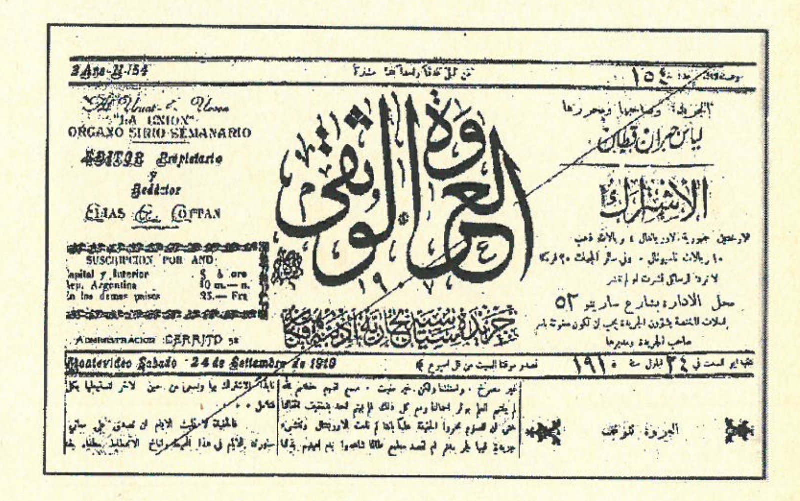
يحررها

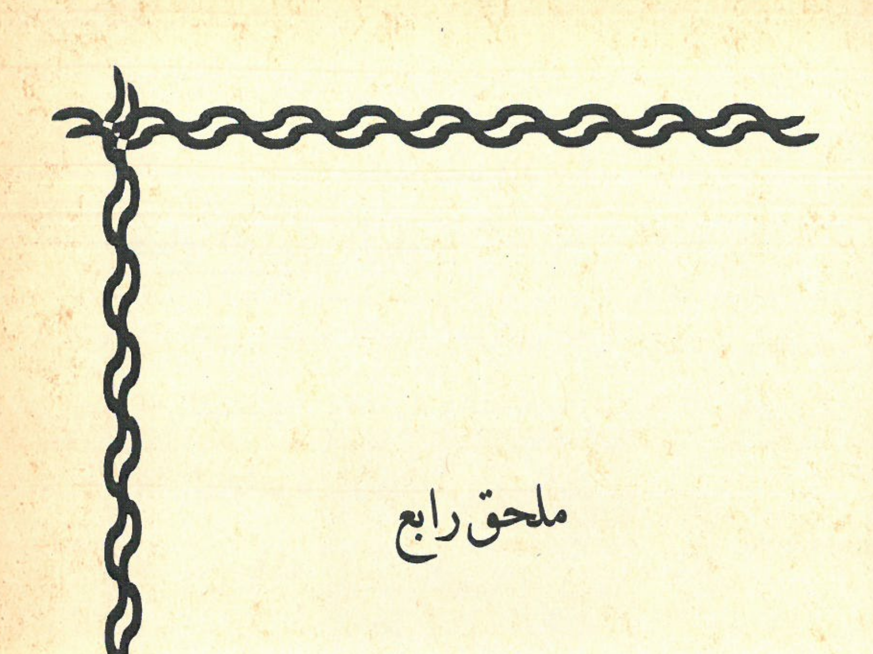
Jorge Canaan & Irmão

80, Praça da Republica, 80

Casa fundada em 1902


EL-ADL
A Justiça
ORGÃO SYRIO
العدل
جريدة سياسية تجارية ادبية وطنية


"LA UNION"
ORGANO SIRIO SEMANARIO
العروة الوثقى
جريدة سياسية تجارية ادبية
الاشتراك
Montevideo Sabado 24 de Setiembre de 1910



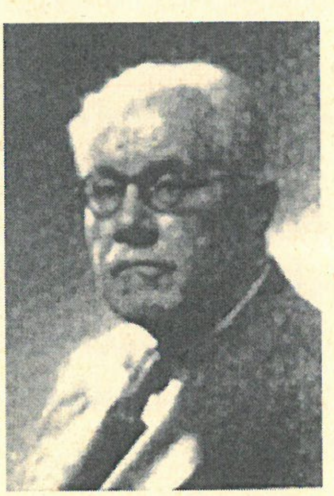
ملحق رابع

الهجرة في مقالات صحفية

فصل الملحق الرابع

ا – على سلّم المرفأ

[مقال للأديب جرجي نقولا باز يصف فيه وداع المهاجر لأهله وأصدقائه في المرفأ. نشرته مجلّة النور شباط 1907. وأعادت نشره مجلّة الشراع عام 1954].



جرجي نقولا باز

«مهج تتلوّع وأعين تدمع. صدور تضيق وتنهّدات تتابع. ألسنة تدعو وشفاه تبتهل. أشجان تستعر وأسرة تنقبض. هذه ساعة الوداع ألفها السوريون، حتى قلّ شعورهم بها وتأثّرهم لها، لكثرة مَن هاجر منهم بلاده في هذه السنوات الأخيرة، بعد ما مرّت عليهم أجيال وهم راغبون في الفقر والخمول عن السعي والاجتهاد وفي الغباوة والجهل عن الاستنارة والعلم. تقسمهم

الطوائف والطقوس وتبعد بينهم مضاغنات الرؤساء ومآرب الزعماء، فلا يغادرون قراهم ومدنهم إلا انقياداً لزعيم، أو هرباً من جور أو عدل. وكان البيروتي أو اللبناني يعدّ عظيماً إذا أمّ دمشق وعاد منها سالماً. فيستقبلونه بالأهازيج ويهنّئون زوجته بالعبارة المعروفة - زوجك يا مليحة راح للشام وحده - وما كاد يستتبّ للعقلاء المخلصين إزالة الضغائن وتنظيف القلوب من أدران الأحقاد وبثّ الحب والوئام بين جميع الناس وضمّ أشتات الأمّة وجمع كلمتها في ظل العدالة السلطانية، أيّدها الله، حتى انفجرت براكين المهاجرة من كل فجّ عميق. فتفرّق زهاء ثلاث مئة ألف سوري في أراضي الله الواسعة، يطلبون الرزق والنجاح في الماديّات والأدبيّات. فاستسهل وخفّت وحشة الفراق وقلّت آلام النوى ولم يعد للوداع مشهد مؤثر كما كان له من قبل. على أن التهذيب والتعليم قد أنعشا العواطف، لطّفا الحاسّات، ودقّقا الشعور. إنما الإشغال وتكاثر المهاجرين قد جعلا الناس يألفون البعاد ويعتادون الغربة. فصاروا قلّما يعبأون بوداع، أو يهتمّون له، سواء كان خصوصياً في البيت حيث الوالدون والأخوة والبنون، أو في القرى حيث يتجمهر الأنسباء والمواطنون، أو في الأساكل حيث يشيّع الأقارب والأصدقاء.

عصر الاثنين في الخامس من تشرين الثاني الماضي ذهبت إلى المرفأ لأودّع صديقاً لي من طَلَبة الحقوق في مصر، ونسيباً

لي من تجّار الإسكندرية، وهما الشيخ أمين تقي الدين والخواجا نقولا داغر. واتفق حينئذٍ وصول ركّاب الباخرة الفرنسية الآتية في طريق الآستانة. فرأيت جمهوراً غفيراً مالئ المكان مؤلّفاً من بحّارة ومأمورين ومسافرين ومودّعين وعائدين ومستقبلين ومتنزّهين ومتفرّجين. فوقفت على السلّم أتأمّل هذا المشهد السارّ المسيء، والمفرح المحزن، غير مستغرب هذا الازدحام الشديد والضوضاء المتصاعدة، وفصل الخريف يعدّه البيروتيون موسم السفر.

أمعنت النظر في هذا المشهد، فرأيت ما يستجلب الانتباه ويستوعب الفكر. رأيت أسارير الأمل منبسطة على الجباه يتنازعها انقباض اليأس ودلائل الحزن مسطّرة عليها والدموع تترقرق في العيون، فتذبلها، وتسيل على الخدود فتزيد أوارها. ونظرت المناديل تلوح في أيدي المسافرين والمودّعين حين تتوارى الزوارق بين المراكب. وشعرت باتقاد لظى القلوب وارتفاع بخارها إلى الرؤوس وضيق الصدور وآلام النفوس. وسمعت التنهّدات ورنين القبل والأدعية والوصايا. وتمثّلت العواطف الرقيقة والحاسات الدقيقة توشك أن تذوبَ تأثّراً والتياعاً.. كل ذلك لأجل الفراق. كذلك رأيت الشفاه تبتسم والثنايا تبرق، والوجوه تتهلّل، والغرر تتألف، والمناكب تهتزّ، والعيون يلسع فيها البشر، وعلائم تحقيق الأماني واضحة لكل ذي باصرة

بصيرة. ونظرت زوارق الآتين تكثر فيها القبّعات والصناديق الكبيرة. وشعرت بثلج الأكباد وابتهاج الأفئدة وسكون الجؤوش واغتباط الأرواح. وسمعت شهيق الفرح وتكرار اللثمات وعبارات التسليم والاطمئنان وبثّ الأشواق. وتمثّلت الجوارح تكاد تنفجر من شرايينها دماء السرور. والقلوب تطفح بما قد يخشى منه عليها. كل ذلك لأجل اللقاء.... ومَن لا يرى ما رأيت وينظر ما نظرت ولا يشعر بما شعرت ولا يسمع ما سمعت ولا يتمثّل ما تمثّلت حين الفراق واللقاء؟

على سلّم المرفأ وقفت أتأمل ازدحام الناس وهم بين نوتية يقتادون المسافرين إلى زوارقهم، ويقلّون أمتعتهم إليها، ليوصلوهم بها إلى الباخرة. أو يفرغون زوارقهم من الركّاب القادمين وأمتعتهم. ولغطهم يصمّ الآذان، فضلاً عن تقاذفهم الركّاب كتقاذف الأمواج للزوارق. وبين مأمورين للمحافظة على الأمن ومراقبة الذاهبين والآيبين يعاملون الناس تارة بلطف وطوراً بعنف، وبين شبّان لا غاية لهم غير تصبّي الجنس اللطيف فيحملقون فيه بأعيُن دنسة ويتفوّهون عنه بعبارات مخجلة تندى لها الجباه، وتحمرّ منها الوجوه. ويُبدون لأجله ما لا يليق بأبناء المدارس. وبين أوانس وسيّدات ما اكتفين بالتحرّر من ربقة الحجاب، حتى نوَين التخلّص من الحشمة في الثياب.

وعملنا على الإفلات من عقالها، فيعدّون السبل لغواية الشبان وإثارة الشهوات. ويستأن وأنصار أزيائهن ممَّن يفوه بكلمة في هذا الموضوع، ولو كان مرجع النفع منها إليهن وإليهم. وبين رجال لا همّ لهم غير التوديع والاستقبال. وبين مسافرين وراجعين لا يحيط بأطراف أفكارهم ولا يستوعبها غير الله. وبين مدنيين يحتقرون قرويين ويتهكّمون عليهم ويضايقونهم. وبين قرويين يحترمون مدنيين ويخجلون منهم ويرهبونهم.

ولم يشغلني شيء كملاحظة الفَرق بين معاملة الأجانب والوطنيين وتفاوت الاحترام بين القبعة والطربوش. فبينما يكون الفرنجي ذاهباً أو آيباً شامخ الأنف مطمئناً لا يتّقي مأموراً ولا يرهب بحّاراً، فيزاحم على أغراضه غير هيّاب ولا وجل، ترى الوطني مطأطئ الرأس يداري جنبيه ويتعثّر بأذياله وينقاد بأوهى من خيط العنكبوت.. على أن الطربوش شعار دولتنا العليّة والعثمانيون في بلادهم، لا سيما المتهذّبين منهم والمرتقين، جديرون بالاحترام وحسن المعاملة كغيرهم من الإفرنج.

وملاحظاتي للفرق بين مهاجري سورية الذاهبين والآيبين حقّقت لي نفع حسنات المهاجرة لهم وضر سيئاتها إياهم ببيان واضح حسّي فوق ما تحقّقته من قبل. ينزل سلّم المرفأ المهاجر السوري وأخصّ منه بالذكر القروي حاني الهامة جاهلاً غبياً قلّما

يعرف أربع كلمات متقنة، ناسياً اسمه المستعار لتذكرة المرور متوهّماً الإكليروس آلهة نقمة، والحكّام أمثلة غضب، والبحّارة آفات لاذعة. قميصه مرقّعة، ثوبه حقير، نطاق سرواله (بنطلونه) قدّة قماش أو مرسة قنب. حذاؤه غليظ، قبّعته صغيرة. وقد يبقى بطربوشه العتيق إلى مرسيليا. جسده وسخ تفوح منه رائحة العرق والقذارة. ولكن صحته جيدة وعافيته نضرة... ويصعد الآيب السلم رافع الرأس ثابت الجنان طلق اللسان، عارفاً نفسه أنه إنسان له حقّ التمتّع بما جنته يداه ووعاه عقله دون معارض. إنما يتحذّر المأمور والبحّار (العتّال) لما يبقى بنفسه مما رآه من بعض أمثالهم يوم سفره وما سمعه من اللاحقين به. بدلته ثمينة، قميصه مكوي، (قبّته) نظيفة ربطة رقبته حرير. قبعته كبيرة سلسلته ثخينة، ساعته ذهب، خواتمه ألماس. لكنه قلّما يعود صحيح الجسم معافى كما كان قبل مهاجرته الوطن، بل قد يعود مريضاً هزيلاً من كثرة الإجهاد في التعب والتفريط في الملذّات الجسدية وعدم الاعتداد بالأصول الصحيّة.

نظرت ولاحظت وتأمّلت فقلت: إذا كان الفراق من بلدة إلى أخرى صعباً على النفوس الحسّاسة ونافعاً للمستعدّين له، بهذا المقدار، فكم تكون صعوبته على رأي العدميين وإفادته على رأي المتديّنين إذا كان من الأرض إلى السماء؟.

II – اللبنانيون والهجرة والطائفية

[مقال نشرته جريدة المرسل العدد 17، 4 أيلول 1913. وما أشبه الأمس باليوم في وطن يعاني من نزيف بشري دائم ومن مرض عضال هو الطائفيّة].

«... لو كان اللبنانيون في المهجر والوطن قلباً واحداً وعزماً واحداً لأتوا بالمعجزات الباهرة، وهم أولو العزم والجدّ والإقدام. لو كنّا نطلب إصلاح لبنان متّفقين لكنّا من الناجحين. فاتركوا إذاً، أيها اللبنانيون، الخصومات. وانبذوا عنكم الاختلافات الشخصية والتحزّبات المذهبية. ولينظر كل واحد إلى قريبه كوطني كلبناني مجرّداً إياه من صبغته الدينية أو الطائفية. فإذا طلب أحد إصلاحاً، وكان موافقاً. تحتّم على الجميع أي على المسلم والدرزي والشيعي والأرثوذكسي والماروني أن يساعدوه، ويشدّوا أزره، ويأخذوا بناصره. ولا يقل الدرزي مثلاً أو الشيعي أو ... أو ... أن الطالب الإصلاح الفلاني هو من غير مذهبي، فلهذا يجب أن أعمل على معاكسته. لا يا بني وطني، إذ ليست هذه أفكار وعواطف الوطني الحقيقي الذي يلتهب شوقاً لرقي ونجاح بلاده.

وهكذا متى رُفعت من بيننا روح التعصّب واستُئصلت من أفئدتنا بذار التحاسد والتشيّع نكون عندئذ رجالاً حقيقيين ووطنيين

صادقين، ونحوز اعتباراً لكلامنا، ونصادف استحساناً لمطالبنا لدى الباب العالي ولدى سائر الدول الحامية لبنان. وإذا كانت مطالبنا إلى الآن لم تُستجب، ولم تصادف آذاناً صاغية، فذلك ناجم عن عدم اتحادنا، وعدم محبّتنا لبعضنا البعض ولبلادنا.

فمسكين أنت يا لبنان لأن أبناءك، إلى الآن، لم يتعلّموا أن يحبّوك محبة حقيقية، ولا يعرفون، حتى الساعة، الوسائل والطرق التي تؤدّي بك إلى ذروة المجد والارتقاء وقمّة التمدن والنجاح. ويحقّ لكل وطني صادق من أبنائك أن يقف على ذراك الشامخة ويرثيك بمدامع دامية نظير رثاء إرميا النبي لبلاده التاعسة.

ولست أنا أوّل مَن ينادي بملافاة هذا الخلل، إذ كلّنا شاعرون بذلك، وكلّنا نندبه ونواصل السعي الحثيث في سبيل إصلاحه. وصيحات الجرائد في المهاجر والوطن قد ملأت الفضاء وجابت أقطار المسكونة. ولكننا مع ذلك فعن إصلاح ذلك النقص متغافلون وعن استغاثة وطننا بنا وحضّه إيّانا على الاتحاد متعامون.

وعليه، فإذا كان الانقسام لا يزال أليفنا، فالخراب والدمار نصيبنا. ونكون نحن من أكبر الجناة على الوطن والأمة وليس الذنب على الدولة وسائر الدول الأوروبية كما ندّعي جهلاً».

III – المهاجرة في لبنان

مقال في مجلّة المعرض كانون الثاني 1922

[مقال كَتَبَه ميشال شبلي. ونشرته مجلّة المعرض المجلّد الأوّل العدد 3، كانون الثاني – نيسان 1922. ويعرض الكاتب رأياً محبّذاً للهجرة، وآخر معارضاً له].

«من أهم المسائل الاجتماعية في لبنان مسألة المهاجرة. ذلك التيار الذي ذهب بألوف الشبّان من إخواننا، وقذف بهم إلى الأصقاع السحيقة.

ولا تزال فكرة المهاجرة مستحوزة على الأفكار، ولها أسبابها ومحاذيرها في الماضي والحاضر. أما أنا فما كنت إلا محبّذاً حركة المهاجرة التي عادت على لبناننا بأجزل المنافع، رغم ما يتوهّم البعض من ضررها.

ولسنا الآن في معرض الخوض بهذا البحث الطويل الذي كرّسنا له درساً وافياً سننشره في الآتي على حدة. إنما كلمتي الآن تستدعيها الظروف الحاضرة. إذ أصبح الاستسلام لفكر المهاجرة ضرراً كبيراً بالبلاد وبشبّانها، أولاً لأننا دخلنا في طور من الحياة جديد، وثانياً لأن بلاد الذهب الوهّاج التي كانت تبهر الأبصار وتستميل القلوب لم تعد بلاد الذهب الوهّاج.

وقد حدا بي إلى كتابة هذه الكلمة رسالة من الكاتب الأديب

فليكس أفندي فارس، نزيل أميركا اليوم، بعث بها إلى أخيه في بيروت، أحببت أن اقتطف منها بضعة أسطر، علّ بها نفعاً لِمَن تحدّثه نفسه بركوب متن المهاجرة في هذه الأيام الحرجة التي عمّ بها الضيق العالم.

إن رسالة فليكس أفندي جاءت نصيحة لكل لبناني يريد اليوم أن يترك بلاده بعد أن ذرّ عليها قرن عصر جديد، الأمل بمستقبله أكبر من اليأس بحاضره».

جاء في رسالة الأديب فليكس:

«إيّاك والمهاجرة فإنها باب الشقاء في هذه الأيام، إن بلادنا خيرٌ من كل بلاد اليوم. فلا يجب أن تنظر إلى ما حولك فقط دون اعتبار ما هو سائد في العالم. كل فرد يريد أن يعمل يجد عملاً في بلادنا. أما هنا فيوجد ملايين يرضون العمل بأي شيء كان فلا يجدون. لو يجتهد ابن لبنان على أرضه كما يُجبَر على السعي هنا، لكان يحصل على ثروة تفوق ما يحصل عليه هنا. حالة المهاجرين هي على غير ما تتصورّ. أغنى رجل فيهم لا معنى لحياته، فهو صفر في الوجود، تتقاذفه الحوادث. فيركض دون أن يعلم لماذا؟.

قدّر الله أن أعود لبلادي. إني أغبطك لأنك لست بعيداً عن وطنك. وحنيني لذلك الوطن الذي يعرف معناه البعيدون.

هذه سهول لبنان هي أولى بنصب أبنائه، لإحيائها من فيافي وسباسب بلاد المهجر.

هذا فضلاً عن أنه ليس بالمال وحده يحيا الإنسان. بل بكل عاطفة سامية. وأسمى العواطف حبّ الوطن الذي يقضي على الإنسان بأن يعيش تحت سماء بلاده.

IV- من بائع كشة إلى صاحب مصانع ومزارع

والبحث عن الذهب أمرٌ عسير.

وعلى رغم ما لنا من شهرة في البذل لنيله، ومن قدرة على توجيه قوانا في سبيله، ومن نعمة الصبر على المكاره التي تعترضنا إليه... على رغم ذلك كله، لم يحدّثنا معظم أولئك الأوائل عن خطوة لهم ناجحة، إلا ليحدّثوا عمّا كلّفتهم هذه الخطوة من عرَق ودموع وآلام.

لا، لم يكن الذهب الذي جمعه مغتربونا هناك على الطرقات، ومن القصة التالية نعرف كيف جُمع.

روى لي أحدهم قال:

في السنة 1906، غادرتُ لبنان قادماً إلى البرازيل. وأنا كسائر المغتربين أحلم بالسعادة... وفي مدينة سان باولو ألقيت عصا الترحال، وحسبت رأسمالي المادي فإذا هو ست ليرات

ذهبية لا غير.

وبهذه الليرات الست يجب أن أشقّ طريقي.

ورحتُ أدرسُ أوضاع مَن تقدّمني، وأسأل عن السُبُل التي سلكوها للوصول إلى السعادة. فإذا هناك سبيل واحد لا مفرَّ لأيّ مبتدئ من سلوكه.

ذلك كان حمل "الكشّة" والدوران على الأبواب... وعلى "الكشّيش" أن يحفظ أولاً أسماء البضائع، وبعض العبارات اللازمة للتفاهم مع الشارين، كما عليه أن يكون مستعدّاً لتحمّل كل أنواع الضنك والهون، قبل أن يصبح قادراً على الأكل ملء بطنه والنوم ملء عينيه.

لا حول ولا... والسعادة... تلك التي قيل إنها ملء السُبُل، ويكفي أن يمدَّ المرء يده لنيلها؟

لا مجال للتفلسف... الليرات الست التي كانت كلَّ رأسمالي نفدت أو كادت. ولا سبيل إلا ما سلك الآخرون. فعليَّ أن أتدبّر الأمر، قبل فوات الأوان.

واتكلت على الله.

وحملت "كشّتي" ورحت أدور بها، مستعيناً بقدرة شبابي على التعب والجوع والعطش والحَرّ. وبالإشارات على التفاهم مع الزبائن الذين لم أستطع، على رغم اجتهادي، أن أكتسب

الكثيرين منهم، لتفاهة البضائع التي كنت أحملها، أولاً، ولجهلي بالتالي حِيَل الباعة، وتفنّنهم في كسب رضى الشارين.

ومرّت الأيام.

ولم أتوصّل إلى كسب ما يفي بالضروريات. فاستولى عليَّ اليأس، إلى جانب الملل والحنين إلى الأهل. ورحت أفكّر في العود أدراجي لأموت في وطني على الأقل.

وكان لي أخٌ هنا استشرته في الأمر، وعرضت عليه قطعة أرض، أملكها في الوطن، لقاء إعطائي أجرة السفر للعَود، فانتهرني قائلاً:

– أما تخجل من العَود صفر اليدين؟

فخرجت إلى الشارع باكياً... ورحت أهيم على وجهي. حتى انتهيت إلى ضفّة جدول في جوار شارع 25 آذار، فضممت إحدى الأشجار بيدَي، ورحت أشهق بالبكاء.

ولم أفق من ذهولي، إلا على يد تمسكني برفق من ذراعي، وصوتٍ شفيقٍ يقول لي:

– ما بك يا فلان.

وكان السائل أحد المواطنين... وإذ أطلعته على قصّتي، راح يبكي معي. ثم شجّعني قائلاً:

– تعالَ ورافقني في البيع، ومتى توافرت لك نفقات السفر،

تعود إلى الوطن بحفظ الله.

وتتّخذ القصة هنا وجهاً آخر.

فالرجل يحدّث عن البضائع التي انصرف إلى الإتجار بها. وعن الأرباح التي بات يجنيها من إتجاره. وعن معركة نشبت بينه وبين نساء إحدى الضواحي، إذ باعهن عطوراً تبيّن فيما بعد أنها مياه ملوّنة.

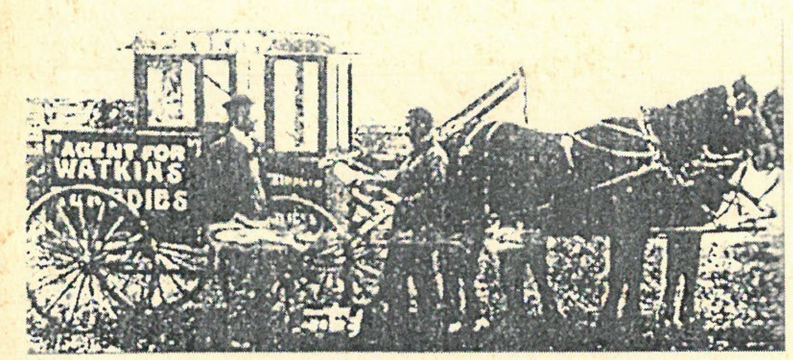
وظلّ يفكّر في العود إلى الوطن حتى بات يملك مئة ليرة... وحينئذ ابتدأ ينسى أيام البؤس... ثم أخذ يشعر شيئاً فشيئاً بالسعادة... ولما أصبحت ثروته ستمئة ليرة ذهبية تمّت سعادته، تلك التي حمله الحلم بها إلى دنيا الاغتراب، وراح يشقّ طريقه.

فإذا "الكشّة" تلك التي شقّ بها مغتربونا الطريق، تتحوّل دكّاناً، والدكّان بيتاً تجارياً عامراً بالبضائع، والبيت التجاري مكتباً للاستيراد والتصدير، وفيه يعمل عدد كبير من الكتّاب والمستخدمين.

ويذهب الطموح بحامل "الكشّة" القديم كل مذهب، فيحوّل الفائض من أمواله أراضٍ وعقارات ومزارع، ويخطو بذلك خطوة جديدة واسعة إلى الأثراء.

ويمضي بجرأته وطموحه... فإذا هو ينتقل من دنيا التجارة إلى دنيا الصناعة، ويجلّي في هذه كما جلّى في تلك، واعتماده

أولاً وآخراً على نفسه، وعلى العصاميّة التي بها راد الأقدمون من أبناء وطنه الدنيا، وبها خرج من وطنه ليرود على غرارهم الأرض وينسج على منوالهم[1].

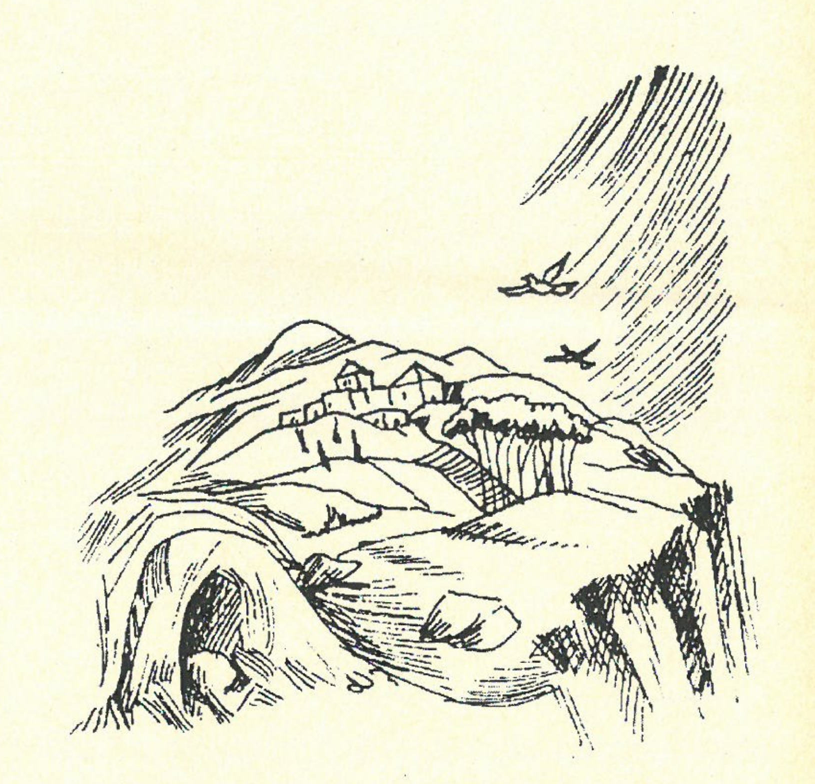


مهاجر – بائع جوّال

1 – حشيمة، عبدالله، من أرض الغد، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ط1، 1962، 177 – 179.

ملحق خامس

مشاهير المهاجرين قديماً وحديثاً



فصل الملحق الخامس:

I – قدموس

اسم علم، وهو لفظة نقلها وترجمها البعض بمعنى القديم، أو الإقدام، إنما معناها الحقيقي المتّفق عليه هو "الشرقي"، أي الفينيقي، أقدم مَن دخل اليونان من الشرق. لذلك صوّره هؤلاء بأساطير وملاحم وروايات لا تحصى، يُستَنتَجُ منها شخصية قدموس كما يأتي:



لوحة تصوّر خطف أوروب وتزيّن كتاب التحوّلات لأوفيد بريشة الفنّان Ian de Tournes
ليون/فرنسا، 1564

قال المؤرّخون: هيرودوت وتيسيديد واسطرابون الأقدمون، وهلينغ الألماني الحديث: إن قدموس هو ابن أشنّار ملك صور الفينيقي، وأمه تيلفاسا، فهذا قد أمره أبوه بالذهاب في أثر أخته أوروبه التي اختطفها جوبيتار، ليرجعها إلى فينيقية. فذهب، وعندما دخل اليونان ولم يتمكّن من إرجاع شقيقته المذكورة، قتل تنيناً هناك، كان قد افترس رفاقه، وزرع أنيابه، بحسب طلب الإلهة مينرفا، فأنبتت أناساً مسلّحين، قتل فيما بعد، بعضهم بعضاً، ما عدا خمسة منهم فقط. ثم أسّس قدموس سلالة ملكية، أولاً في جزيرة رودس وساموتراس وأسبرته وأكريت. ثانياً في بايوسي الموجودة داخل اليونان، وذلك في الجيل 16 قبل المسيح. هذا بحسب نص "تكرونونوجي "باروس" الرخامية والمؤرّخ هازيشيوس اليوناني. وقدموس هو الذي نقل إلى اليونان من صور وصيدا أبجديّة الفينيقيين، ثم إلى جميع شعوب المغرب والمشرق، ونقل إليهم أيضاً، اختراع الكتابة، إذا لم يكن هو الذي اخترعها، كقول المؤرّخ ديودور الصقلي، ونقل أيضاً، العلوم والفنون وبخاصة علم الفلك وصناعة المعادن والنسيج وفنّ الملاحة. وبحسب رأي فكتور برار، أن "أسرار وقوانين عبادة

الإله ديونيزوس اليوناني، أخذها مَالَمبوس البايوسي عن قدموس المذكور، وأن شخصية قدموس هذا، هي حقيقة تاريخية، بالرغم من الأساطير التي تنوّه به. أما عاصمته في بايوسي التي شيّد فيها الأبراج الجبّارة، فهي طيبة المشهورة بملوكها أبناء لايوس وأديبوس المتسلّلين بالدرجة الثالثة والرابعة عن قدموس، كما تقدّم شرحه في لفظة طيبة. وقد كان تاذوس الفينيقي من رفاق قدموس في رحلته هذه، وهو الذي افتتح مناجم الذهب في جزيرة تاذوس اليونانية التي حملت اسمه، من ذلك الحين حتى اليوم، كما قال المؤرخ بلين الروماني. ويُنسَب إلى قدموس أيضاً، تأسيس معبد بوزيدون اليوناني إله البحر، وقدّم له طناجر أثريّة فخمة، وحفر في هذا المعبد صلاة باللغة الفينيقية، بحسب رأي ديودور الصقلي. وقد ولد لقدموس ابنة أسماها أينو ألّه اليونان بياضها. ويوجد باسمها بلدة على طريق طيبة من جهة الشاطئ تسمى أينو العين. ويوجد موضع أخر عند اليونان يسمّى أينو المغارة. وزاره المؤرّخ الجغرافي بوزانياس اليوناني الشهير، وقال بشأنه: أن سكان بروسا الأناضولية يروون: أن قدموس رمى في البحر صندوقاً كان قد حبس فيه ابنته ساماله وابنها

ديونيزوس، وقذف الموج بالصندوق إلى شاطئهم، فوجدوا ساماله مائتة فدفنوها، وأما ابنها فأخذته خالته أينو المذكورة وربّته في المغارة المشار إليها. ولأينو هذه أسطورة أخرى مؤثرة جاء فيها، أنها لشدّة يأسها من حبها الفاشل انتحرت غرقاً في البحر. وبحسب رأي هيرودوت: إن طالس ده ميله المعروف بالفيلسوف الأول عند اليونان، هو متحدّر من السلالة الفينيقية القدموسيَّة، وكان لهذه السلالة بلاد تسمّى قَدِمه، بناها الفينيقيون، عندما هاجروا، مع اليونان، من بايوسي إلى شاطئ آسيا في الأناضول. وقد كتب ديوجان لآرث، أنه قرأ في مؤلّفات هيرودوت التي ضاعت، وفي تاريخ دوريس وديمو كريت: إن طالس المذكور كان من فرع الطالسيين الذين هم من أشراف السلالة القدموسيَّة، وأن الفيلسوف الثاني بيّاس، أحد السبعة الحكماء المشاهير في اليونان، هو من السلالة القدموسية أيضاً[1].

---

1 - القرم، شارل، الجبل الملهم، ترجمة أسطفان فرحات، بيروت، مكتبة الفويه، ط1، 1945، ص 15 - 157.



أوروب بنت ملك صور



تمثال لِ قدموس



قدموس يعلّم الإغريق الأبجديّة

II – أليسار أو ديدون

اسم روماني للملكة هاليسة عند الفينيقيين، هي ابنة بـالوس ملك صور، وأخوها بكماليون ورثا المُلك معاً، عن أبيهما. ولمـا تزوّجت ديدون هذه أرسرباس، قتله أخوها ليستولي على ذخائره العظيمة. فاضطرّت ديدون إلى الهرب بها إلى أفريقيـة. وقـد رافقها جماعة من أصدقاء زوجها، فاشترت أرضاً من عبيد تلك البلاد وأسّست فيها قرطاجة المذكورة.

على أن فرجيل قد شرّف ملحمته التاريخية بإحياء ذكر هليسه هذه، في عهد آنية[1].



أليسار أو هليسا أو ديدون

1 – القرم، م. ن، ص 174.

III – جبرائيل الصهيوني

هو القس وُلد في إهدن، سنة 1577، وما أن بلغ الربيع السابع من العمر حتى أرسله البطريرك سركيس الرزّي الماروني إلى رومة. فتلقّى العلوم في جامعة البروبغنده بتفوّق عظيم. وفي سنة 1620، حصل منها على شهادة دكتور في اللاهوت. وأتقن اللغات: اللاتينية والإيطالية والعربية والتركية والسريانية واليونانية والعبرانية والكلدانية والفرنسية. ثم انتدبته كلية السبيانسة برومة ليدرّس اللغات الشرقية فيها. وانتُدب لنفس المهمة في البندقية. فقام بذلك، في المدينتين، حق القيام إلى سنة 1624. ونال شهرةً بعيدة جعلت لويس 13 ملك فرنسا يدعوه إليه بواسطة سفرائه في رومة. وكان الصهيوني قد رقّي إلى درجة الكهنوت بعد الانتهاء من الدروس بسنتين. لذلك رحل إلى باريس، بإذن الحبر الأعظم بولس الخامس، فعيّنه الملك مدرّساً للّغات الشرقية في كليّة السوربون الملكية، وترجماناً في القصر الملكي. وعيّن له مسكناً في أحد قصوره ومرتّباً قدره 600 ليرة ذهبية، سنوياً. وبلغت منزلة هذا العلاّمة في باريس أعلى درجة. فخطب ودّه وصداقته أعظم نبلاء فرنسا وعلمائها ورجال

حكومتها. من أهم مآثرهِ هناك، ترجمة الكتاب المقدّس من العربية والسريانية إلى اللاتينية، فألف من ذلك 6 مجلّدات قضى في وضعها 17 عاماً، من 1628 - 1645 ودُعي باسم (بوليكلوت باريس)، أي المتضلّع من اللغات العديدة. وكان قد انتدبه إلى هذا المشروع العلمي، الكردينال ريشليو زعيم فرنسا الأكبر إذ ذاك.

للصهيوني عدد كبير من المؤلّفات والترجمات في العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية، في مواضيع شتى خدم بها الكنيسة والدين شرقاً وغرباً. ونشرت هذه المؤلّفات مطبوعة في رومة وباريس وأمستردام ولندره. فكانت آثار قلمه عوناً كبيراً لعلماء إيطاليا وإسبانيا وألمانيا وفرنسا وإنكلترة وهولنده.

ومن جرّاء ما عاناه من التعب في تأليف الكتب التي أتينا على ذكرها فَقَدَ بصره، ومات أعمى في باريس، سنة 1648. وإقراراً بفضله نُقش اسمه على مدخل "الكوليج دي فرانس" التي هي في باريس، أكبر معهد علمي في فرنسا[1].

1 - القرم، م. ن، ص 193 - 194.



رسم جبرائيل الصهيوني لـ Moncornet محفوظ في المكتبة الوطنية/باريس

IV - إبراهيم الحاقلاني

هو إبراهيم الحاقلاني، وُلد في حاقل إحدى قرى بلاد جبيل، سنة 1594، وتوفي في رومة سنة 1664، تلقّى علومه في المدرسة المارونية في رومة، وحصل على رتبة ملفّان في

الفلسفة واللاهوت. إنما ظلّ علمانياً، فتزوّج ورُزق بنين. نال الحاقلاني شهرة واسعة في العلوم بحيث شهد له الكثيرون، منهم العلاّمة دينوروت في كتابه "دوام الإيمان" قال "إن ثقافة الحاقلاني العالية ومؤلّفاته المشهورة عند العلماء الذين لم يجهلوا اعتبار الأحبار الأعظمين له وعطفهم عليه، قد أصبحت معروفة لدى الجميع".

تولّى الحاقلاني تدريس اللغتين السريانية والعربية في جامعة البوروبوغنده سنة 1630، ثم استدعيَ إلى باريس، سنة 1641، ليشترك بتصحيح الكتاب المقدّس، وكان قد تولّى ترجمة هذا الكتاب العلامة الصهيوني من قبل. ثم رجع الحاقلاني إلى لبنان ليتقيّد في خدمة الأمير فخر الدين الذي عهد إليه الاهتمام ببنيه، ثم أرسله الأمير إلى توسكانا للمفاوضة مع قزما غراندوقها بعقد معاهدات سياسية وتجارية. منها امتلاك سورية وتوطيد ولاية الأمير على البلاد اللبنانية بأسرها. وما عتم أن رجع إبراهيم إلى لبنان، محقّقاً رغبة الأمير حاملاً معه الهدايا والكتب الفاخرة من رومة وفلورنسة. وبعد الانتهاء من خدمة الأمير رجع إلى باريس ليستأنف التأليف والترجمة. فسمّيَ عندئذ، ترجماناً ورئيس مكتبة اللغات الشرقية في رومة، وبعدئذ عُين معلّماً للّغات الشرقية في جامعة فرنسا الكبرى، مكان الصهيوني، وذلك باهتمام الكردينال ريشليو الذي كلّفه ترجمة بعض الكتب

العربية، وأسماه ترجمان بلاط فرنسا. وقد نُقش اسمه، في الجامعة، بين أسماء الأساتذة الذين امتازوا بتعليمهم فيها.

تآليفه عديدة، وضع وترجمة. منها: معجم عربي لاتيني، وترجمة كتاب منهاج الحكمة لبرهان الدين، وكتاب خواص النبات والحيوان لعبدالرحمن، وكتاب الأنصار لافتيشيوس ضمنه خلاصة علم الأديار، وقد جمع مخطوطات عديدة للمكتبة الفاتيكانية ورد ذكرها في مجلة المشرق عدد أيار 1930، بقلم الخوري بطرس غالب[1].

V – المونسنيور السمعاني

هو المنسنيور يوسف سمعان السمعاني الشهير، رئيس أساقفة صور المارونية، من بلدة حصرون، شمالي لبنان. ولد في طرابلس الشام في 27 آب سنة 1687 واعتنى به عمّه المطران يوسف رئيس أساقفة طرابلس، ولما أدرك الثامنة من عمره، أرسله عمه، إلى رومة ليتخرّج بمدرسة طائفته المارونية. فاشتهر بنبوغه، وعرف به البابا إقليموس الحادي عشر، ففوّض إليه وضع فهرسة وخلاصة لاتينية لكتب شرقية خطيّة قديمة العهد، موجودة في المكتبة الفاتيكانية. فانصرف إلى ما اقترحه عليه الحبر الأعظم وأجاد فيه، وعلّق عليه حواشي ثمينة، لذلك

1 – القرم، م. س، ص 194.

عُيّن في المكتبة المذكورة، سنة 1710 مترجماً فمحافظاً، واستمرَّ في هذه الوظيفة إلى أواخر حياته. وهو الذي أُوفد مندوباً رسولياً من قبل الحبر الأعظم إلى لبنان وطنه الأصلي، للعناية بفروض التهذيب الكنسي. أهم مؤلّفاته الكثيرة، كتاب "المكتبة الشرقية". توفي في 13 كانون الثاني، سنة 1768 ودفن في كنيسة القديس يوحنا الإنجيلي في المدرسة المارونية في رومة[1].

VI - جبرائيل طربيه

جبرائيل طربيه من أكبر مشاهير الوطن اللبناني في المهجر. فهو لبناني الأصل من بلدة بسكنتا هاجر أبواه إلى كولومبيا وسكنا مدينة بوكارنسكا. ووُلد لهما فيها جبرائيل هذا، ولما ترعرع أكبّ على الدرس إلى أن أتمّ العلوم، ثم تعلّم الطب في كلّية بوغوتا، وفي إبّان دروسه الطبية فيها، انتخبته جمعية طلاب العلوم القومية العليا رئيساً عليها، وبعد نيله الشهادة، في الكلية المذكورة، واصل الاجتهاد بجميع العلوم، وفي جملتها الحقوق، فكان يشتغل ليلاً ليحصّل مرتّب المدرسة، وعند نهاية العلوم رجع إلى بوكارنسكا مسقط رأسه، وللحال انتخب نائباً في مجلس قضاء سانتاندر، فلمع في هذه الوظيفة، بالنظر إلى جرأته

---

1 - القرم، م. س، ص 194 - 195.

بمعارضة المحتكرين ومغتصبي حقوق الشعب. وبعد فترة قصيرة، انتخب نائباً في المجمع الوطني الأكبر. وفي أثناء ذلك ابتدأت أعماله الإصلاحية تشتهر عن مناوأته لحزب المستثمرين، وبخاصة الجنرال رنجيفو وزير حربية كولمبيا، فأسقط طربيه المذكور، هذا الوزير والوزارة معاً، وفشل، من ذلك الحين حزب المحافظين. وأرجع طربيه حقّ انتخاب رئيس الجمهورية إلى الشعب في كولومبيا لأول مرة، بعدما حُرمه مدّة خمسين سنة. وفاز حزبه المعروف باسم الأحرار، وهو على رأسه، وكان له من العمر وقتئذ 28 عاماً. وأضحى هذا الحزب فيما، بعد، نحو ثلث سكان كولمبيا، وهنا انتهى شطر المعارضة في حياته السياسية، ومن ثم انتقل إلى معالجة الديبلوماسية فكان في طليعة رجال الجمهورية، عُين سفيراً مفوّضاً في بروكسل عاصمة بلجكا، ثم عضواً عاملاً في مجلس شيوخ كولمبيا، مسموع الكلمة، فرئيساً لمجلس الوزراء، وكان عندئذ، في الحادية والثلاثين من عمره، فسفيراً أعلى في رومه وفي جميعة الأمم معاً، فرئيساً لمجلس الشيوخ، فسفيراً في واشنطون، وأخيراً رُشّح لرئاسة الجمهورية هناك فاعتذر، حباً بالتوفيق بين الأحزاب[1].

---

1 - القرم، م. س، ص 203 - 204.



جبرائيل طربيه

رجلٌ من لبنان

تحت عنوان "جبرائيل طربيه يزور لبنان" قرأت، في إحدى الصحف الواردة من بيروت، وأنا في بونس إيرس عاصمة الإرجنتين، الخبر التالي:

«في رسالة خاصة من الدكتور جبرائيل طربيه، نزيل باريس اليوم، إلى الأستاذ هنري فرعون، أن المغترب اللبناني الكبير سيزور لبنان بعد شهرين».

وتاريخ العدد الذي قرأت فيه هذا الخبر 29 آب 1947، وفي 17 أيلول من السنة نفسها، أي بعد 19 يوماً من هذا التاريخ، ظهرت صحف العاصمة الإرجنتينية، وفيها نعي الدكتور طربيه، وهاك ما قرأت في إحداها:

«توفي الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم الدكتور جبرائيل طربيه، رئيس حزب الأحرار، والمرشح لرئاسة الجمهورية في كولومبية، على أثر نوبة قلبية، في فندق بلاسا اتينه حيث كان يقيم.

وبموت الدكتور طربيه فقدت كولومبية ابناً مثّلها ألمع تمثيل في الداخل والخارج... ولد في العام 1901، وتخرّج في جامعة كولومبية بالعلم والطب، ولم يمارس مهنة الطبيب مؤثراً عليها السياسة.

انتخب عضواً في المجلس التشريعي لولاية سانتندير، واشتهر بكونه من ألمع خطباء الشباب الحر، ومنذ العام 1926 تتابع انتخابه بدون انقطاع: نائباً مجلس الأمة، فعضواً في حزب الأحرار، وأسهم إسهاماً حاسماً في انتخاب أولايا هريرا للرئاسة

الأولى، فعيّنه هذا عام 1934 وزيراً للداخلية.

تولّى بعدها تمثيل بلاده السياسي في بلجيكة، ثم في إيطالية، ثم في واشنطن... وكان مندوبها الدائم في عصبة الأمم، ورئيس وفدها إلى مؤتمر حكومات أميركة اللاتينية في ريو دي جانيرو العام 1942.

في العام 1937 عيّنه الرئيس لوبيز مستشاراً له، وفي العام نفسه اختاره مجلس الأمة نائباً لرئيس الجمهورية، وفي العام 1945 أعلن ترشيحه للرئاسة الأولى، وفاز عليه منافسه أوسبينا لوبيز، بسبب الانقسام الذي حصل في حزب الأحرار، وكان علّته الأولى أحد أقطاب الحزب جورجي الياسر غايتان.

وعندما وصلت إلى كولومبية، كان طبيعياً أن أذكر أول ما أذكر الدكتور طربيه... هذا الرجل الذي اغترب والداه عن بسكنتا جارة صنين اغتراب الكثيرين من مواطنيهما في طلب الرزق، وأنجبا أبناء كان همّهما الوحيد أن يعدّاهم لخوض معترك الحياة بما يضمن لهم العيش الشريف الكريم. ولم يكن ليخطر في بالهما، إطلاقاً، أن أحد هؤلاء الأبناء سيكون عنواناً بارزاً من عناوين مجد كولومبية ومجد لبنان في آن.

ورحت أتنسّم أخباره عن كثب.. وكان أول ما طالعني منها في بوغوتا العاصمة إكليل من الزهر، في شارع كاريرا 7 تحت

رقم 14 – 39، وكتابة فوق الإكليل هذا تعريبها:«في هذا المكان استشهد أبو الشعب الكولومبياني جورجي الياسر غايتان».

وتذكّرت هذا الاسم... فهو مَن كان صاحبه علّة سقوط مواطننا اللامع في معركة الرئاسة الأولى، وقد خرّ صريعاً برصاصة من يد مواطن لم يرقه موقفه من رئيس حزبه الدكتور طربيه، فأرداه قتيلاً في هذا المكان بالذات.

وكدت أقف أمام ذكراه موقف الشامت، بعد أن روى لي المطّلعون قصة خصومته للدكتور طربيه، ولم يكن في معظم مواقفه منها خصماً شريفاً، إذ عمد إلى الدعاية العنصرية للنيل من خصمه، فلم يبرهن بذلك على أنه الحرّ الذي يقارع حرّاً.

لقد كان الرجل من ذوي العلم والثقافة العالية، وكانت له مكانته في أوساط سكّان الريف، وبين هؤلاء، وهم أكثرية، بثّ دعايته غير المستحبّة، فراح يذكّرهم بأن طربيه غريب عن البلاد و"توركو"، وينشر له رسوماً بشعة بالسروال والطربوش، مما كان له التأثير البليغ عليهم.

وجاوز غايتانو هذا الحد في دعايته، فقال عن طربيه أنه رجل عازب، وأن العرف والتقاليد تتطلّب أن تكون في القصر الجمهوري سيدة أولى، ومن ولي الرئاسة عازباً، وكانت أمه حيّة، حلّت هذه محل زوجته في تنفيذ مراسيم البروتوكول.

وقال عن أم طربيه أنها "تركية" قديمة أمية... وأن وجودها في قصر الرئاسة يقلّل من احترام الناس لصاحبه وللبلاد... وكانت هذه "القنبلة" ذات مفعول كبير في توجيه معركة الانتخابات لغير مصلحة مواطننا.

قلت كدت أقف، أمام ذكرى الرجل الذي فعل هذا، موقف الشامت بمصيره، ولكن حرمة الموت جعلتني أخشع.. وتذكّرت أن الأوساط الواعية في البلاد لم تكن من رأيه. بدليل أن الفئات المثقّفة الراقية كانت في جبهة الدكتور طربيه. وعندما نُعي هذا أجمعت الصحف كلها بدون استثناء على القول:«لم تخسر كولومبية وحدها الدكتور جبرائيل طربيه، بل خسره العالم الأميركي اللاتيني بأسره»، فكان ذلك بلسماً سكبته يد الواقع على جرح الألم، ومحى في النفس الشماتة.

وجمعتني بعدها مأدبة ببعض نواب مجلس الأمة، وبينهم سيزار أوردونيز كينترو، أحد رفاق الدكتور طربيه ومعاونيه، فراح يحدّثني عن "اللبناني الكبير الذي فقدته بلاده" وفي عينيه دموع هي أصدق دليل على صدق شعوره... وقال لي:

لو أن مواطنكم وصل إلى كرسي الرئاسة الأولى، لكانت كولومبية الآن مستعمرة لبنانية.

وعرفت ما يعني... ففي عهد الدكتور طربيه بلغ عدد

النواب اللبنانيين الأصل في مجلس الأمة الكولومبية سبعة عشرة نائباً، ووصوله إلى رئاسة الجمهورية كان سيحمل الكثيرين من مواطنيه على الاشتغال بالسياسة، وعلى خوض المعارك الانتخابية المقبلة. وهذا ما كان من المحتمل أن يضاعف العدد المذكور.

والنائب كينترو لا يرى في ذلك أي إجحاف في حق وطنه... فهو قد اشتهر بحبّه للعرب وتقديره لمزاياهم، وحين وصل جثمان الدكتور طربيه من باريس إلى بوغوتا، وقف في حفلة دفنه يرثيه بخطاب رفع فيه العرب إلى الأوج، وأشاد بفضلهم على إسبانية وأوروبة وأميركة، وحدّث عن عظمة بغداد وهارون الرشيد، إلى حدّ دفع سامعيه إلى إطلاق لقب هارون الرشيد عليه، وبات يحمل هذا اللقب بفخر حتى الآن.

وأبت حكومة كولومبية إلا أن تكون وفيّة لذكرى "الكبير الراحل" فاتخذت قراراً بدفنه في المقبرة الخاصة برؤساء الجمهورية، إقراراً بفضله وبأياديه البيض على البلاد... وفي هذه المقبرة يرقد ابن بسكنتا الآن، ليحدّث الأجيال الآتية عن نبوغه وعنّا[1].

---

1 - حشيمة، م. س، ص 107 - 110.

تظاهرة شعبية أقيمت لجبرائيل طربية في إحدى المناسبات أمام "الكوبول"
وهي البناية التي يجتمع فيها برلمان الأمة في بوغوتا عاصمة كولومبيا

VII – فيليب حتي

ولد في شملان من أعمال لبنان سنة 1887. وبعد أن تلقّى العلوم الابتدائية في مدرسة سوق الغرب انتقل إلى الجامعة الأميركية، في بيروت، وأتمّ فيها دروسه العالية، ونال منها شهادة بكالوريا، ثم سافر إلى نيويورك ودخل جامعة كولمبيا هناك. فدرس فيها ونال رتبة دكتور في الفلسفة، ورتبة أستاذ في العلوم. ثم رجع إلى لبنان وعيّن أستاذاً للتاريخ في الجامعة الأميركية المذكورة من 1920 إلى 1925. ثم عاد إلى الولايات المتحدة. وهناك عيّن أستاذاً للآداب واللغات السامية، ومدير

الدروس الشرقية في جامعة برينستون المذكورة، ولا يزال فيها إلى الآن.

للحتّي مواقف سياسية، من جملتها وقفة في مجلس النوّاب الأميركي بخصوص القضية الصهيونية، من الوجهتين: التاريخية والحقوقية. وهو زعيم النهضة اللبنانية العربية في الولايات المتحدة، يشغل مركز مستشار شرف للشؤون الخارجية في حكومتها.

مؤلّفاته كثيرة، منها: كتاب فتوح الإسلام، السوريون في الولايات المتحدة، كتاب الاعتبار وتاريخ الدروز، اللغات السامية المحكية في سورية ولبنان. وأشهر هذه المؤلّفات كتاب تاريخ العرب وضعه في جزئين، الأول للبحّاثين، مسهب يحوي جميع المراجع. والثاني لعامّة الشعب الأميركي مختصر، بِيع منه مئات الألوف في الولايات المتحدة. وقد حُفر مؤخراً، اسم فيليب حتّي على "عمود الشرف" الذي شادته الحكومة الأميركية لحفظ ذكر العباقرة المفضلين على ثقافة شعبها[1].

1 – القرم، م. س، ص 203.

ملحق سادس

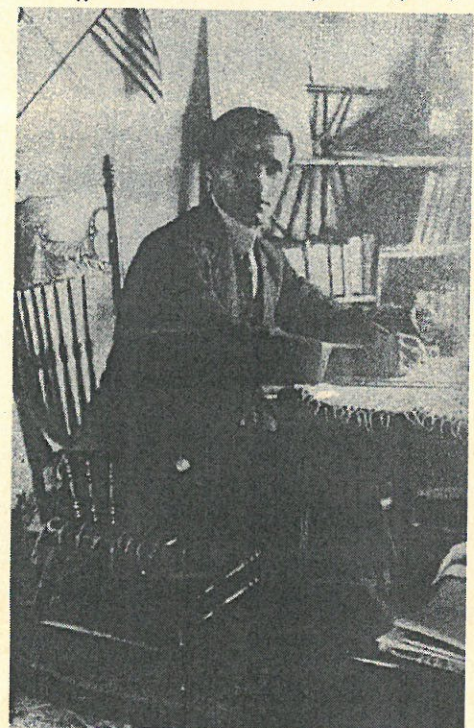
الهجرة بأقلام المهاجرين



أرز لبنان

فصول الملحق السادس:

- عودة المهاجر لِميخائيل نعيمة.
- في رفقة مسافر لِميخائيل نعيمة.
- في الباخرة نحو المهجر لفوزي المعلوف.



ميخائيل نعيمة في سنته الأولى في نيويورك

عودة المهاجر

عاد والدي من المهجر وأنا دون السابعة ببضعة شهور. ولا أذكر كيف استقبَلَنا وكيف استقبلناه. غير أنني ما نسيت طعم البقلاوة التي جاءنا بشيء منها. ولم أكن قبل ذلك قد تذوّقتها في حياتي. فتمنّيت لو يتاح لي أن آكل منها حتى الشبع. وعجبت لأمي تقدّمها مع النقل إلى المسلّمين والمهنّئين الذين بقي بيتنا يزدحم بهم لبضعة أيام. وقلّ بينهم مَن لم يكن يستفسر والدي عن نسيب له في المهجر. فوالدة تسأل عن ولدها الذي في الأكوادور. وزوج عن زوجته التي في الأرجنتين. وأخ عن أخيه الذي في الفيليبين. غير آبهين بالمسافات التي تفصل كاليفورنيا، حيث كان والدي عن تلك البلاد. فقد كان القوم، إلاّ القليل منهم، لا يميّزون بين مهجر ومهجر. فالمَهاجر كلّها عندهم "ماركا". وإذا ميّزوا قالوا "نايرك" وهم يعنون بها الولايات المتحدة. و"البرازيل" ويعنون بها أميركا الجنوبية بأسرها. ثم يخيّل إليهم أن لا بدّ لِمَن في "نايِرك" أن يعرف جميع المهاجرين في الولايات المتّحدة. ولِمَن في البرازيل أن يكون على اتصال بجميع المهاجرين في أقطار أميركا الجنوبية والوسطى، وفي الشرق الأقصى.

وأذكر أن والدي بهندامه الغربي، وقامته المديدة، وشاربيه العامرين، وحسن تقاطيع وجهه، وعذوبة البريق في عينيه جاء عند حسن ظنّي، به، أي قريباً ممّا كنت أتخيّله. وما كنت أدري يوم عاد أنه عائد وفي قلبه جنازة وعرس في آن معاً.؟ فقد هجر أبويه وزوجته وأطفاله الثلاثة قبل ستّ سنوات وبرفقته اثنتان من شقيقاته الثلاث. إحداهما، وهي الكبرى، متزوّجة، والأخرى وهي الصغرى، عازبة. وهذه كانت في شرخ شبابها. وكانت أحبّ أخواتها إلى أخيها، وأشدّهن تعلّقاً به. وجاءها الأجل المحتوم في سان فرانسيسكو بعد ستّ سنوات بالتمام من هجرتها. فأظلمت الدنيا في عينَي والدي، ولم يُطق البقاء في بلاد ما أسْمَنَت جيبه، ولكنّها فطرت فؤاده. وهكذا عاد ليبكي شقيقته الحبيبة مع والديه. ثمّ ليبكي فرحاً بلقاء زوجته وأطفاله.

علمتُ من بعد أن كبرت أن هجرة والدي لم تكن برأيه أو رأي والديه، ولكن بإلحاح من أمي. فقد آلمها، وهي التي كانت تأبى السير إلا في مقدّمة القافلة، أن ترى عائلتها في ازدياد لا يقابله أي ازدياد في موارد الرزق. ثمّ أن ترى الغير من أبناء بلدتها يركبون البحار إلى أميركا القصيّة، ليعودوا منها بعد حين

وقد تبدّل عسرهم يسراً، فيبنون لهم "حارات القرميد"، ويبتاعون بساتين التوت في الضيعة، أو الكروم والسليخ في الجرود. وأن تبقى هي وعائلتها على الحصيرة. لقد كانت تريد لزوجها أن يستغني عن المحراث والمعول، ولأولادها أن يتعلّموا في أحسن المدارس، وأن يصبحوا ذوي جاه وسلطان، يحسدهم الناس، ولا يحسدون أحداً من الناس.

إلاّ أنّ حظّ والدي من دولارات أميركا لم يكن بذي بال. فما استطاع أن يضيف إلى أثاث بيته غير كرسيَين من الخيزران، وإلى ممتلكاته أكثر من فسحة من التوت كانت ضمن بستاننا الصغير، وكان أحد أجدادنا قد وقفها على كنيسة مار جرجس التي كانت كنيستنا. وقطعة أخرى من التوت كانت أمام بيتنا بالتمام، فكانت المدى الحيوي له. وكان يملكها أحد المرابين في البلدة. أما أملاكنا في الجرد فلم يطرأ عليها أي زيادة أو نقصان[1].

1 - نعيمة، ميخائيل، (1889 – 1988)، سبعون حكاية عمر، المرحلة الأولى، بيروت، مؤسسة نوفل، ط6، 1980، ص 60 – 62.

في رفقة مسافر

وبقلبٍ دامٍ تتّخذ أمّي قراراً بِسَفر أخي أديب إلى الولايات المتحدة – ولمّا يطرّ شارباه. إنّه في خريفه السادس عشر. لقد سافر أبوه قبله ولم ينجح. فلعلّه يكون أَوفر حظّاً من أبيه. فهو متعلّم وأبوه أميّ. ولعلّه يعود بعد سنين لينتشل العائلة من القاع إلى الذروة، كما فعل البعض من أبناء بسكنتا. ويذعن والدي للأمر على مضض. إنّه يتمنّى لو يبقى ابنه الأكبر بجانبه يساعده في أعماله الشاقّة في الشخروب. ولكنّه يكتفي بأخي هيكل الذي تنكّر للمدرسة من صغره. وكان يؤثر أشقّ الأعمال اليدويّة في الهواء الطلق على الانحباس ساعة ضمن الصفّ. تبقى مشكلة "الناولون" – تذكرة السفر. وكان يبلغ نحو عشرين ليرة ذهبية. ويستدين والدي المبلغ من خالي سليمان الذي عاد من مصر بعد وفاة أخيه. ويسافر أخي أديب على بركات الله، برفقة نفرٍ من أبناء بسكنتا وبناتها، وهو أصغرهم سناً.

إنها لحقبة عجيبة حقاً تلك التي شهدها لبنان منذ العقد الأخير من القرن الماضي، وحتى نهاية العقد الثاني من القرن الحاضر. لقد كانت حقبة مليئة بالمغامرات والبطولات التي تهزأ بأغرب ما في الأساطير. ولعلّ أولّ مَن تنبّأ بها قُبيل حلولها رجل من بسكنتا. فقد كان القدامى يروُون لنا حكاية مجنون يحمل

قصبة ويطوف أحياء البلدة في كل يوم منادياً بأعلى صوته:

«رجالكم. نسوانكم. أولادكم. دجاجكم – عَ البحور! عَ البحور!»

وتمّت نبوءة المجنون. فقد راحت بسكنتا – راح لبنان – يزحف إلى البحر ليركبه إلى دنيا بعيدة ما كان يعرف عنها شيئاً على الإطلاق. إذ أن الأغلبية الساحقة من مهاجريه الأوّلين كانت من الذين لا عهد لهم بالحرف، فلا يعرفون إذا كانت الأرض مستديرة أو مسطّحة. وأين تقع منها البلاد التي إليها يقصدون. ومَن هم سكّانها، وكيف يعيشون، وأيّ اللغات يتكلّمون، وما هي طباعهم وموارد رزقهم، والأديان التي بها يدينون. ولا هُم أبصروا يوماً باخرة أو قطاراً من قريب. فقد كان أكثرهم من الذين نبتوا وتأصّلوا في الجبال. وقلّ بينهم مَن زار مرّة بيروت، أو غيرها من المدن الساحليّة. وجلّ ما في الأمر أن أسماء كثيرة لشتّى المهاجر شاعت بينهم: الولايات المتحدة. كندا. المكسيك. كولومبيا. بوليفيا. البرازيل. الأرجنتين. أوستراليا وغيرها وغيرها. حتى الفيليبين والهند الصينيّة!

لقد كان يكفيهم ان يزمعوا على السفر. أما وجهة السفر فكانوا يسترشدون غيرهم في اختيارها. فيعقدون المؤتمرات ويعرضون ما أمكنهم من المهاجر، وفي النهاية يختارون بلداً

سبقهم إليه بعض أنسبائهم، أو قيل لهم إنّ الارتزاق فيه أسرع وأيسر ممّا في سواه. وكثيراً ما كان "الناولون" يفرض عليهم اختيارهم بالنسبة إلى ارتفاعه هنا وانخفاضه هناك. فأكثرهم كان يستدين "الناولون"، يرَهن أملاكه لأحد المرابين. لذلك كان همّهم الأكبر أن يوفوا دينهم من المال الذي يكسبونه في بدء هجرتهم. ولكَم كنت أسمع الرجال والنساء في حداثتي يتساءلون عن غِيّابهم فتقول امرأة لأخرى:

«كيف حال ابن عمّك؟ (أي زوجك) أو كيف المحروس؟ إنشاء الله عَمْ يكتب؟ إنشاء الله موفّق؟»

فتجيبها الأخرى:

«الحمدلله. ردّ الناولون». أو أنّه «لم يردّ الناولون بعد».

ولأن السفر بين بسكنتا وبيروت كان يجري بواسطة المكارين مرّتين في الأسبوع، فقد كان يوم الاثنين ويوم الخميس من الأيام المشهودة في البلدة. إذ يندر أن يمرّ واحدهما من غير أن يكون هناك راحلون ومودّعون. ويا لساعة الرحيل ما كان أشدّ هَوْلها!

بغال وحمير تجلجل. ومكارون يصيحون:«يا ألله! زحمتنا الشمس!» ورجال ونساء – شيب وكهول وشبان وأطفال – تغتسل أيدٍ تلفّ أعناقاً، وصدور تتلاصق بصدور، ورؤوس

تستلقي على أكتاف وتأبَى الانسلاخ عنها، وشفاه عطشى، غرثى تحطّ على الوجنات – على الجباه – على الذقون – على العيون فتمتصّ منها وتمتصّ، ولا ترتوي ولا تشبع، وأصوات مخنوقة تردّد: «دخلك ما شبعت... خلّيني إشبع». وكيف يشبع أب أو أم من تقبيل أولادهما وهما يرحلان عنهم إلى حيث لا يعلمان. ويرحلان غير واثقين من أنّهما سيعودان إليهم يوماً ما؟ كذلك قل في الزوج مع زوجه، والأخ مع أخيه، والولد مع والديه، والصديق مع صديقه.

إنها أعشاش تُبَعثَر، وأرحام تُقَطّع، وأفئدة تُفَتّت، وأكباد تُمَزّق. وما من معزٍّ لها إلاّ الأمل، ذلك البلسم الربّاني الذي لولاه لكانت هذه الدنيا زنزانة هائلة للمحكوم عليهم بالإعدام، أو جُبّانة رهيبة ليس فيها نبض حياة أو بصيص نور. فما من مهاجر أدار ظهره في هذه البلاد لأهله وجباله، إلاّ وهو يمنّي نفسه بالعودة إليهم وإليها بعد سنين، وفي حالة أفضل من تلك التي فيها هجرهم وهجرها. فكان، كيفما صفقته الرياح، وأينما استقرّ – ولو في أقاصي الأرض – يحسّ أسلاكاً خفية، جبّارة، تشدّه إلى الذين عنهم نزح، وإلى الوعور والسهول والجواء التي منها انطلق. وكان أبداً يردّد في قرارة نفسه:«غداً أعود. غداً أعود».

وتمشي القافلة. فيَتَعالَى الصياح، وتتفجّر المدامع، ويشتدّ

النشيج، ويترنّح الهواء بالأيدي الملوّحة بالمناديل، وترتفع الأدعية إلى السماء «الله يوصّلكم بخير ويردّكم بخيـر. الله يـوفّقكم. الله يرافقكم!» فلا المودّعون يجفّ لهم جفن. ولا المسافرون. ويبقى أولئك يرافقون القافلة بأبصارهم وقلوبهم وأدعيتهم، ويبقى هؤلاء يتلفّتون إلى الوراء وبودّهم لو يحملون معهم جميع مَن تقع عليهم عيونهم، وجميع ما يدخل في نطاق سمعهم وبـصرهم. إلـى أن تغيب القافلة عن النظر وتتلاشى رنّة جلاجلها في السمع. ويعود المودّعون إلى بيوتهم وكأنّهم عائدون إلـى المقـابر. ويمـضي المسافرون في سبيلهم وكأنّهم ماضون إلى المشانق. وصـنّين لا يبالي. والشمس من فوق قمّته لا تبالي. والسماء من فوق الاثنين لا تبالي. أو هكذا تبدو جميعها للذين لا يحسنون قراءة مـا فـي أساريرها، وترجمة ما في لحظاتها. وحول المسرح الذي تمثّلت عليه تلك المشاهد، لا تنفكّ تحوم نتف ممّا تـساقط مـن أفـواه النظارة:

«البحر داخله مفقود. والخارج منه مولود».

«مَن يدري مَن يعود منهم، ومَن لا يعود؟»

«البعد جفاء. اليوم يبكون وغداً يسلون»

«ما كان أحلانا وأهنانا قبل أن تُفتح دروب أميركا!»

«حرق الله عظام الذين فتحوها!»الخ ... ألخ.

يا ويل عظامك في لحدها يا كولومبس – إذا كان في لحدك بقية من عظام! حتى أنت لم تنجُ من السخط والنقمـة واللعنـة. وصخور لبنان شاهدة على ما أقول. وأيّ عزاء لأم في لبنان أن يُقال لها إنّك أهديت إلى العالم القديم عالماً جديداً، ما دام عالَمـك الجديد قد سلخ من بين ذراعيها ولدها الزاحل عن قلبها، بالأخصّ إذا اتفق وبات عالمك الجديد مدفناً لولدها؟ إن النّعمة التي أسبغتها على النّاس ما لبثت أن انقلبت نكبة في حياة الكثير منهم. ألم تكُن نكبة لسكّان العالم الذي اكتشفته؟ وقد تتكشّف بعد حين عن أفظع نكبة للعالم كلّه بشقّيه القديم والجديد. مَن يدري؟..

تمشي القافلة. وحشاشات مَن فيها تتلفّت أبداً إلى الـوراء: إلى وجه حبيب. إلى بيت بعينه. إلى شجرة أو صخرة أو خيمـة على كتف ذلك أو ذيّالك الوادي. إلى بقرة أو عنزة أو أتان. إلى هذا الشعب المصعّد في الجبل، أو تلك العين الثرثارة، الدافقة من بين ضلوعه. ويتملّص الفكر بين الفينة والفينة من قبـضة هـذه الأشياء فيشرد إلى هناك – إلى ما وراء البحار الشاسعة، حيـث العالم الجديد – حيث "المجهول" الهائل الملفّح بالضباب الكثيف. ويحاول الخيال أن يخترق الضباب فيرتدّ أبـداً واهـن القـوى، منكّس الأعلام. ولا يجد تعزية إلاّ في الاستسلام: «كريم هو الله. لتكن مشيئته!».

وتبلغ القافلة بيروت. فيتلقّفها السماسرة – سماسرة السفر. وسماسرة البيع والشراء. فلا بدّ قبل كلّ شيء من استبدال الزيّ الفرنجي بالزّيّ الوطني لتحلّ البرنيطة محلّ الطربوش أو اللبّادة، والسترة محل العباءة، والبنطلون محل القمباز أو الشروال، والحذاء بغير مسامير محل الحذاء بمسامير. ولا بدّ من استبدال النقود الأجنبيّة بالنقود التركية. ثمّ لا بدّ من تحديد وجهة السفر وابتياع "الناولون". وهذه كلّها أمور يحسنها السمسار، وليس يحسنها المهاجر الأمّي الهابط من الجبال.

وأخيراً يتلقّف البحر المهاجرين ليلفظهم بعد نهارات وليالٍ طوال، مثقلة بشتى الامتهانات والإهانات، والغموم والهموم، والأوجاع والأوصاب. يلفظهم كما يلفظ الصدف والحطام والنفايات. هذا على ضفاف الهدسن. وتلك في بوسطن. وآخر في ريو دي جانيرو أو في السانت. ورابع في هافانا. وخامس في سدني. وسادس في مانيلا. إلى آخر ما هنالك من موانئ في غربي الأطلسي وشرقي الباسيفيكي وجنوبيه. فلا تلبث تلك الأجساد والأرواح الهائمة أن تدرج في طلب الرزق. تطلبه في كلّ مكان. في البراري الموحشة والغابات المظلمة. في المدن القريبة والدساكر البعيدة. تطلبه بالمعول إذا لم يكن من وسيلة غير المعول. وتطلبه بالتجارة إذا تيسّر رأس المال لفتح حانوت.

ولكنّ معظمها يطلبه بِـ "الكشّة".

وما أدراك ما هي "الكشّة" إنها الحقيبة السحرية الحاوية من كلّ فنّ خبراً. فيها الأزرار والكشاتبين والبكَر على أنواعه والإبر والدبابيس على أنواعها. وفيها المرايا والمقصّات والسلاسل والساعات. وفيها المناديل الملوّنة والجرابات والقمصان، والبخور والعطور. وفيها التراب عن قبر المسيح، والماء المقدّس من نهر الأردن. وفيها الصلبان المصنوعة من الصدف في بيت لحم وفي قلبها صورة كنيسة القيامة. وما لي أعدد ما فيها من الأصناف وهي أكثر من أن تُعَدّ؟ إنها "الكشّة" وكفى. يحملها المهاجر على ظهره من مكان إلى مكان ويمضي يطرق الأبواب حيثما وقع عليها. فينفتح بعضها له، ويبقى بعضها مقفلاً. والتي تنفتح له. لا يندر أن تنغلق بلمحة الطرف حالما تبصر ربّة البيت الطارق وتدرك أنّه "توركو" أو "ديغو". فتصرفه بنبرة غضبَى وبوابل من الشتائم. وقد تطلق عليه كلبها. ولكنّه لا يقنط، ولا يبالي بالعضلات المكدودة، المستغيثة، في يديه وكتفيه، وفي ظهره ورجليه. ولا بالجوع والعطش يضجّان في معدته. وحسبه من الأبواب التي يطرقها أن يلجَ منها ثلاثة أو خمسة في نهاره، وأن يبيع بعض ما في الكشّة. فالنّاولون لا بدّ من دفعه. ولا بدّ من إمداد الذين خلّفهم في الوطن ببعض المال.

إي. أن فضل الكشّة على لبنان لفوق ما يخطر في بال لبنان. ولو أنه أدرك فضلها لأقام لها أروع تمثال من زمان، وعلى أرفع ذروة من ذراه. فمنها – في الأساس – هذه السقوف المرجانية المنتثرة على هضابه وسفوحه الزمرّدية. ولها اليد الأولى والطولى في فكّ قبضة الإقطاعية البغيضة عن خناق لبنان. فما إن أخذت الأموال تتدفّق من المهاجرين على المقيمين حتى راح هؤلاء يبتاعون الأرض التي اقتطعها العهد البائد لكبار الأمراء والمشايخ. فخراج بسكنتا الواسع كان، منذ أقلّ من قرن، يملك معظمه الأمراء اللمعيون. وقد أدركتُ خمسة من ذرّيتهم في أوّل صباي. أما اليوم فقد باتوا جميعهم أثراً بعد عين. وليس من ذرّيتهم مَن يملك شبراً واحداً من تراب بسكنتا وجبالها. وما تبقّى من مساكنهم – وهو قليل – لا تتجاوب اليوم جدارنه باستعطافات أبناء بسكنتا وبناتها "يا ستي" و "يا سيدي!".

فالذين يملكونه هم الذين كان جدودهم أجراء أو شركاء عند الأمراء. لقد تمّت الأعجوبة بفضل الكشّة أوّلاً.

فالمجد للكشّة[1]!

1 – نعيمة، سبعون، م. س، ج1، ص 95 – 102.

في الباخرة نحو المهجر

أطلقْ لدمعكَ العنانَ وخلِّه ... يهمي إلى أن ينتهي بنفادِ

ودعِ الضُّلوع تذيبها نيرانها ... حتّى تجلّلها بثوب رمادِ

واتركْ جواكَ وشأنه يقضي على ... ما فيك باقٍ من حطام فؤادِ

أصبحتَ في بحرٍ كقلبك هائجٍ ... متواصل الإرغاء والإزبادِ

متلاطمِ الأمواج تهدر فيه من ... هوج الرياح روائحٌ وغوادي

ونأتْ ديارُ الأهل عنك فلم يعدْ ... لك مأملٌ برجوع عهد الوادي

أيّام كنت بهِ وعيشك زاهرٌ ... وهواك بسّامٌ وفكرك هادي

تتصيَّد اللذّات بين رياضهِ ... وعلى جفونك نشوة الصيّادِ

وترى المنى ترنو إليك وكلُّها ... فرصٌ تفوز بها بلا ميعادِ

والحسن يلهمك البيان فتنثني ... ونهاك مبتدعٌ وقلبك شادي

حيناً تغنّي مع بلابل دوحه ... وتئنُّ حيناً أنّة الأعوادِ

****

أوّاه من ذكرى القديم وحبّذا ... عودُ القديم وإن عَدَتْهُ عوادي

أشتاقه شوقَ المحبّ إلى الهوى ... مهما أرى فيه من استبدادِ

وأُحبّه بالرغم عمّا نالني ... منه وأمحضُه صحيح ودادي

مهما يجُرْ وطني عليّ وأهلُهُ ... فالأهل أهلي، والبلاد بلادي

أرثي لبؤسهم فأندب حالهم ... بفمي، وأرثي حظّهم بمدادي

هذا لساني لا يجيء بذكرهم حتّى يلعثمه أنين فؤادي

ويراعتي ما إن تمرّ بأبيضٍ إلا وتُلبسهُ ثياب حدادِ

****

تاللّه إنّي قد وقفتُ عليهم روحي وأفكاري وكلّ جهادي

وإذا انتقدتهم فما لي غايةٌ إلا قيادتهم لنهج سدادِ

خَبطوا بظلمات الضلال ولم يقم فيهم إلى السبل القويمة هادي

واستعذبوا ذلّ القيود فأصبحوا يتفاخرون بنير الاستعبادِ

وغدا به لبنانُ بعد عجيجهِ بالأشدِ مأسدة بلا آسادِ

هم ضيَّعوا إرث الجدود فنالهم غضبُ الجدود ولعنةُ الأحفادِ

قسماً بأهلي لم أُفارق عن رضًى أهلي وهم ذخري وكلّ عمادي

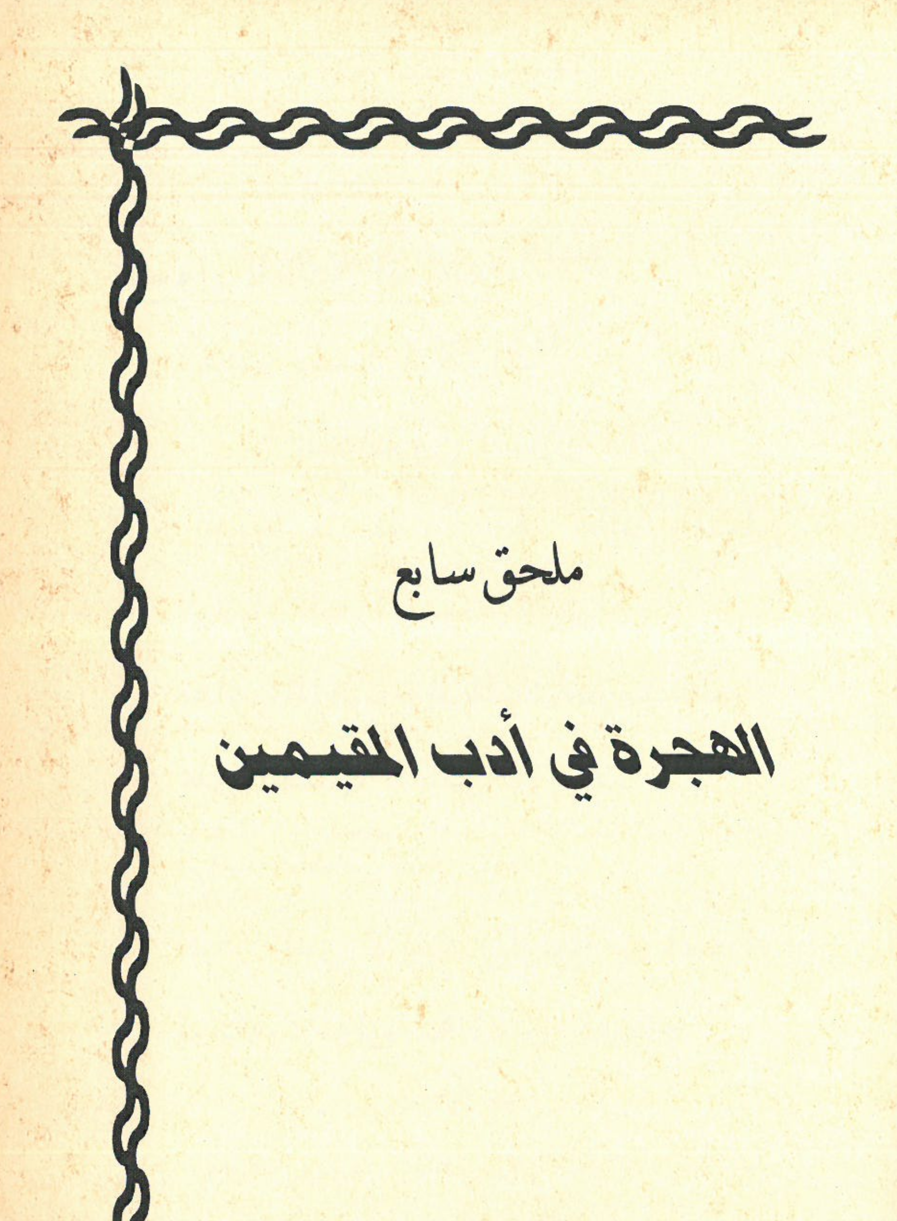
لكن أنفتُ بأن أعيش بموطني عبداً وكنتُ بهِ من الأسيادِ

أنا بعدهم لا ينتهي شوقي ولا يدنو صفاي ولا يطيب رقادي

البحر تحتي، واللظى في أضلعي والماء من حولي وقلبيَ صادي[1]

فوزي المعلوف (1899 – 1930)

1 – أبي فاضل، ربيعة، فوزي المعلوف، سلسلة شعراء من لبنان، بيروت، دار المشرق، ص 140/1.



ملحق سابع

الهجرة في أدب المقيمين

فصول الملحق السابع

I ـ الهجرة ملحمة الاغتراب

المهاجرون

وأنتم يا مُهاجرينا، جماعاتِ الشجعان،

يا مَن تُتابعون ذلك الارتفاعَ، إلى المجدِ الساطع اللَّمَعان،

الذي كان يدفعُ بجدودِنا إلى تجديد الرحلاتِ،

للتَّنقيبِ في القارّاتِ

أنتم الذين، عن قُرانا الهزيلةِ، ترحَلُون،

لا عِلْمَ لكم، ولا مالَ، ولا صديقَ، ولا مُعين،

أنتم الذين لم يكن لكم عَلَمٌ، في سفارةٍ تحميكم من الآخرين!

وأنتم يا مَن أصبحُوا في أعلى مراتبِ إكليروسِ بوُستُون

اذكرُ منكم الرحْبَاني

ويا مَن وَفَّقتُمُ العربيَّةَ المتخاصمة،

أذكر منكم الريحاني

وأنتم الذين، لم يكونوا، في وَطنِهم، سوى رُعاةٍ بُهُم،

أو من مزرعةٍ مجهولةٍ في بعض القِمَم،

وأنتم الذين صفَّقَ لِمَسْرَحِهِم الألمانيُّون،

أذكر منكم عزيزَ دومط، الأمين!

وأنتم الذين أسَّسوا في الريُّو شتَّى الصِناعات،

فمنكم القائدُ الأعلى في المكسيك

والبحَّاثةُ المؤرخ، في برِنْستون

والوزيرُ في كُلومْبيا وفي سِدني

عضوٌ في مجلس الأعيان!

وأنتم يا صَرُّوف، ونمر، وتقلا، وزيدان

أولُ جبابرةِ الصحافةِ المصرية،

من حفظتم للنِّيل نَضارَته السرمَديّة،

التي غمَرَتْهُ، فيها، جُهودُ العظائم اللبنانيَّة!

وأنتم يا جميعَ المهاجرين، مَن بفضيلَتهم يُنازعون،

لأجل مقامِنا في الدنيا، سائرَ العالمين،

ومع ذلك تتراءون للناظرين، أنكم تَخُوضون،

المعركةَ العالميَّة،

بدون سندٍ، ولا هادٍ، ولا معين!

فإنكم تدَّخِرون الجُرأةَ الجبَّارةَ في الفؤاد،

والخميرَ الشديدَ البأسِ، الموروثَ عن الأجداد،

الذين وسَّعوا بعقْلِهِم حدودَ الأكوان،

ولم يقوَ على إذلالِهم إنسان،

أنتم الذين، يحفظون فيهم هذا الدَّمَ المستعرَ كاللّهيب،

لا تُطَوِّحوا بهِ، في تيهِ جوٍّ غريب،

عودوا واستريحوا من عناء الأشغال،

بين أزهارِ البرتقال.

هلمَّ عيشوا ومُوتوا، بين صخورِكم الخَوَالدِ، فتُحْيوا أهلاً،

عودوا إلينا، فيا ألفَ أهلاً وسهلاً،

لا تمزّقوا أحشاءَنا بمناحاتٍ تنقضي، بين العويلِ والأنين،

يا جنوداً مجهولين.

فَهَلاًّ فكَّرتم بأنَّ تربة الجبل، بكلّ ما فيه من الحدودِ،

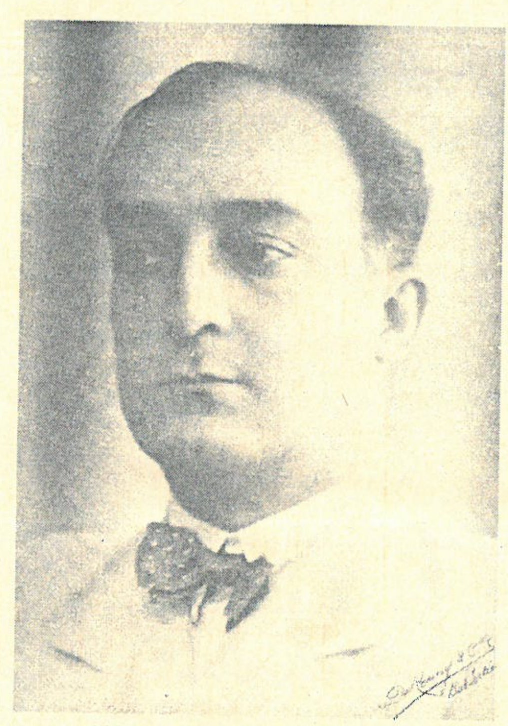
مجبولةٌ بهذا الدَم الذي يسيل من شؤونكم على الخدودِ،

وأن باستطاعةِ الإنسان، مغادرةَ البيتِ، لا المدفن،

الذي يسهر فيه الجدود؟[1]

---

1 – القرم، شارل، م. س، ص 50 – 52.



شارل القرم، زمن كتابة الجبل الملهم 1934

II – الهجرة مأساة وخرافة

البلابل الحمراء

... وماذا بعد يا بُلبُل؟

ماذا؟ عن ضَيعتي البيضاء، التي تغرق في النور؟

.. أفي منقادك الأحمر، حبّة من ترابها؟ حبّة واحدة يا بُلبُل، ألقها على شبّاكي!؟

وهل فيه ورقة خضراء من سنديانها؟

وهل مرّغت جناحَيك بأطياب ورودها ونرجسها؟

وحنجرتك؟ أفيها من غناءات صبايانا يا بُلبُل؟

كيف غابة النرجس؟

هل بعد فيها، من ذات الفستان الزهري، ما فيها؟

ماذا يا بُلبُل، عن ضَيعتي؟

فرفّ البُلبُل، الذي على شبّاك غرفتي، بعينيه، يهمّ بالبكاء...

كان جناحاه مبتلّين من نفانف الثلوج

في العاصفة، جاء إليّ من الجبل؟

عرفته من منقاده الأحمر.

هذا من بلابل ضَيعتي،

في ضيعتي تعيش البلابل ذات المناقيد الحمراء.

ويا بُلبُل...

سألتك، يا ذا الحنجرة الذهبية بالغناء الذي فيها؟

باسم الخضرة والحمرة، والألف لون ولون.

بالشقائق الحمراء، التي تهلّ أوراقها على لمسة الندى!

ونرجس الغابة، التي لقيتني مرة فيها، أنا وذات الفستان الزهري...

وتلك الياسمينة، على بوّابة بيتها... تلك الخيمة الخضراء من الياسمين الأبيض.

يا ذا المنقاد الأحمر... حدّثني عن ضيعتي...

عن تلك الحفافي!!

هل نبتت فيها الورود البرّية؟

وهل طلع "بخور مريم" في الصخور؟

وهل اخضرّت أوراق السنديانة الكبيـرة، فـي كرمنـا، علـى الدرب..

... وبيت الحبيبة، هل انفتحت شبابيكه المغلقة، وشرّعت درفاتها في النور؟

عن النجوم... والقمر... ودروب القمر والنجوم هناك... فرفّـت عينا البلبل، رفيفاً موجعاً.

وكأن قلبه طفح من عينيه، فانفلت من غصن الشجرة إلى حديـد النافذة...

ولفّ جناحيه على منقاره.

وسمعته يتهامس بأغنية "المرايا المنطفئة".

غنّاها على شبّاك غرفتي...

كانت كأنها الضوء الذي تتهاوى فيه الشعلة الأخيرة...

وكأنها من خيطان القمر في ضباب الغيوم.

ومن لهاث الطيب في الوردة قبل أن تموت.

وكانت، كأنها جنازة في عرس.

سمعت البُلبُل يتهامس:

«... في الربيع... حينما تطلع الزنابق على التلّة.

وتنتشر الأطياب في التراب.

... في الربيع... حينما يعود الحب إلى غابة النرجس...

في غدٍ... تكون البلابل الحمراء في ضيعتكم، قد رحلـت إلـى أمكنة بعيدة بعيدة...

لن يبقى بُلبُل واحد، في تلك الجبال، يعرف الغناء...

لِمَن تغنّي البلابل، في ضيعتكم، وما في ضيعتكم بعد غصن تحطّ عليه البلابل؟

وما فيها بعدُ، خصر صبيّة يغمر الزهر أو يغمره الزهر.

وما عندكم بعد، أنف يستطيب الشمّ.

ولا يد تعرف القطف...

ولا بعدُ، فم يتذوّق الطعمة الطيبة في الفم.

وما في ضيعتكم بعد، عروة قميص أبيض، تعرف كيف تشكُّ زرّ الورد الأحمر.

ولا عنق أبيض يموت عقد الياسمين على بياضه...

لِمَن تغنّي البلابل في ضيعتكم، ودروبها، لا يغنج فيها قوام، ولا تتوجع عين على حبيبة...

لِمَن تغني البلابل في تلك الجبال؟

وما فيها بعد، فتى تنسرح حنجرته في مَدة غناء...

رعيانكم... تلك الحناجر البرّية، لم يبقَ لهم أصـداء فـي تلـك

الأودية!

خيمة الياسمين، تلك، تيبس يباساً موحشاً.

ومساكب الورد الجوري هناك، هرّت على التراب..

وشبابيك بيتهم الغربي، ما تزال مقفلة، بعد أن راح أهله مع البحر..

والليل عندكم ثقيل.. تطلع النجوم، ويطلع القمر.

فلا النجوم، في سمر العشايا، ولا القمر.

وفي غدٍ، تركب البحر، قافلة أخرى من شبابكم وصباياكم..

وتنقفل شبابيك بيت آخر في ضيعتكم إلى الأبد..

وتبقى الليالي، وحدها، موحشة.

وتبقى عجائزكم، تشيع عينها على البحر... تتلمّس أيديها الأسرّة المهجورة...

بعضكم في البحار السبعة، وراء القصور المرصودة..

وبعضكم هنا، عينه على البحر دائماً.

وبعضكم في المدينة العمياء، التي لا تسمع ولا ترى، يزحف وراء القرش البغي والرغيف الأسود.

وماذا لكم في أرض الغربة أيها الغرباء، غير لوعة الغربة ومرارتها.. ولكم بعدها، شبر من الأرض تشترونه بالمال، قبراً غريباً لإنسان غريب.

وتسألني! ماذا في ضيعتكم.

وتسألني، ماذا عن ضِيَع لبنان، تلك الزمرّدات الغاليات، المعلّقات في الأعالي..

وماذا غير الخراب!

وماذا عن بلدٍ، لن يبقى فيه غير أكوامٍ من الشيوخ المنحطمين؟

ولو أن للبيوت المهجورة أن تقول، لقالت:

لِمَ عمّرتموني، للخراب؟

ولو أن للأرض البور أن تقول، لقالت:

لِمَ تركتموني، لليباس؟

ولو أن للقبور أن تقول، لهتفت القبور:

عودوا أيها الغرباء إلى ترابي.. فلن تطمئن عظامكم في أرض غريبة!

وكأني سمعت في بحّة الليل شهقات أمّهات ضَيعتي في ساعات الوداع.

وكأني رأيت تلويح المناديل البيضاء...

وكأني...

- إذن يا بلبل، لن تهتفَ البلابل على طلّة الشمس من وراء جبالنا العالية؟

ولن تشيعَ الفرحة في ضَيعتنا.

ولن تهتف البلابل الحمراء يا بُلبُل؟

فمدّ البُلبُل منقاره الأحمر.

وهمس...
ضيعتكم التي على التلّة البيضاء مرآة تنطفئ...
ولِمَن تغني البلابل في القرى المنطفئة؟؟[1]

أيار 1950

مغاور الزمرّد والياقوت

... حكايةٌ رائعة، قصّها هذا البحر، مرّة لبحّار من هذه الشطوط في عودته من الجزر البعيدة يوم عاد مع المدّ... عن صبايا حلوات خلف البحر، يحرسن مغاور الزمرّد والياقوت المرصودة... ما رأت مثلها عين بعد، ولا سمعت بمثلها أُذن في الأرض!!

كنوزٌ كنوز، رصدتها في البحار، صبيّات حسان، يفكّها بحّار شرقي من أرض لبنان.

وله بعد ذلك، جبال من الزمرّد والياقوت، جبال مكدّسة، يحملها في عودة البحر إلى لبنان، ويحمل معه الصبيّات الحلوات، حارسات الكنوز المرصودة في البحر!!

وفي ليلة، هبط من الجبال شبابها، خلف الحكاية الحلوة، والحكاية

1 - سليمان، فؤاد، درب القمر، م. س، ص 23 - 28.

على البحر تمتدّ وتمتدّ وتستطيل حروفها، فإذا كل حرفٍ فيها جنّية تضرب البحر بعصاها السحرية، فينشقُّ البحر عن مغاور وجبال، من الأكداس المكدّسة، من خيرات البحار المرصودة.. ذهب فوق ذهب، ذهب من تراب، تراب من ذهب.. أكداس أكداس فوق بعضها البعض...

كنوز كنوز، رصدتها في البحار صبيات حسان، يفكّها بحار مشرقي من أرض لبنان!!

- إلى أين يا وديعتي الثمينة إلى أين؟!

خلّيك على قلبي... أدفئ شيخوختي في ربيع شبابك، ويدفأ قلبي في عينيك.

بالدموع ربّيتُ شبابك...

إلى أين يا كنزي الغالي إلى أين؟!

- في البحر يا أمّاه حكاية رائعة.. جبال من اليواقيت، مرصودة على وجهي، في غد أعود إلى قلبك ومعي أكداس منها، ومعي صبيّات حلوات!!

- إلى أين يا فلاح الخير يا دافق البركات في صدري. إلى أين.

ترابي خيِّر حنون.. وكرمي معطاء جواد!!

والأرض، أرضك، سخية، لا يشحُّ صدرها، فلِمَ يشحُّ صدرك أنت من المحبة يا فلاح الخير؟!

- في البحر يا أرض، في البحر، حكاية رائعة، جبال من اليواقيت مرصودة على وجهي... كروم من الزمرّد، معلّقة فيها العناقيد.. غداً أعود بالتراب الذهبي إلى ترابك... غداً أعود بعناقيد الزمرّد فأعلّقها في دواليك...
- في البحر يا أرض، في البحر..!!

وتقفز الليالي...

مواقد النار في الثلوج، باردة حتى الصقيع، تنطفئ الجمرات فيها، على كفّ شيخة وشيخ، يبست فيهما العروق... وحيدين وحيدين... إلاّ من الصورة المعلّقة في الحيط، هذه الرسالة تنام تحت المخدّة، فيها ريحة ولد ضاع في البحر.

الساحات في القرى، مقفرة، يموت فيها شعاع الشمس الدافئ وحده، فلا يطلع على زند مفتول.

عناقيد العنب في الكروم، يابسة على أمّاتها، جلدة ممصوصة لا يتشهاها فم ولا تطلع في بال.

جرس الكنيسة الكبير في العيد، محني الرأس، كئيب لا يدقّ دقّاته!! فقد قطع الشباب حباله وراحوا...

أنوال الحرير، في الدار، يغصّ فيها الغناء، فلا يطلع في بالها إلا الندب!!

دودة القزّ، تموت من الجوع. فالأرض لا تُطلع ورقة توت بعد...!

بيادر القمح، تنوس فيها الحياة، على بقرات عجفاء وحبّات عجفاء، لا تُشبع عصفور الدار الحبيب.

بيوت القرميد الحمراء معتمةٌ تعيش في ظلام الوحشة وظلمة الهجران.. على قرميدها الأحمر، غراب... وفي شبابيكها المخلّعة بومة.

الدروب، لا بحّة فيها ولا فيها غنة فتى قوي يموج بالحب في عودة العشيات إلى بيت الحبيبة.

البنيات الصبايا مكسورات على الشبابيك عيونهن في البحر وراء الحكاية.

متى يعود حبيبي؟ متى يعود أخي... متى... متى!!

ما غصّت في الأرض أمّ مثلما غصّت أمّهات شباب بلادي ترمي بهم على كفّ العفاريت على الموج، خلف الشمس على البحار السبعة، حيث لا تصل عين...

ربّاه! ربّاه! من علّم الناس في هذه الأرض حروف تلك الحكاية، فإذا بها في ساعة من الزمن مأساة مصبّغة بالدم والدموع، مأساة طويلة من الآلام لا أول لها ولا آخر... ولا تنتهي... بلى أولها هنا في هذه الشطوط، وآخرها هناك في "مغاور الزمرّد والياقوت".

ليتها ظلّت في الحاكايات أسطورة، يتلهّى بها شباب الجبال على

مواقد النار في الثلوج، ويغنّيها رعيان السهول خلف قطعانهم في المراعي.

ولكنها في الحكايات أُكذوبة رائعة، قصّها البحر مرة لبحّارة من هنا، أكذوبة عميقة كبيرة من أكاذيب هذا البحر العميق الكبير!!

ليت الخشبة اللبنانية الأولى التي خشّت في البحر، تكسّرت في عبّ البحر في الريح والموج، ولم تسمع أمواجه خشيش ضلوعها!!

ليت دربك يا بحر، لم تكن علينا، فقد عمّرنا على دروبك قصوراً مذهّبة القباب، فابتلعت أمواجك قصورنا وأكواخنا... ولم يبقَ لنا إلا هذه الآفاق البعيدة، ننظر إليها لعلّ فيها زورقاً يعود لنا بحبيب، من مغاور الزمرد واليواقيت!!

رُدَّهم يا بحر، ردّهم من هذه الغربة الطويلة المريرة! رُدَّهم من مجاهل الغابات، فقد يبست جلودهم من وهج الحرّ ووخز البرد. وتفسّخت أرجلهم من المشي في الليل والنهار، وانسلخت أكتافهم، وانحفرت فيها سلخات عميقة في اللحم.

رُدَّهم من مناجم الفحم، من أنفاق الأرض، من السراديب، فقد اسودّت ضمائرهم وقلوبهم ووجوههم، وجَعّدَت الآلام جباههم.

ردّهم يا بحر، فأمواجك التي تزور الشواطئ كلها، تعرف أنهم إنما يحفرون قبورهم وهم يحفرون عن مغاور الزمرّد

والياقوت!!

لقد رأتهم أمواجك في جميع شواطئ الأرض، هزالى تصفرُّ زنودهم... تأكلهم الغابات السوداء، يصطادهم عبيد الليل، ممصوصين من الآلام والتعب... يطردهم الهمّ من باب إلى باب، وخلف كل باب، يحسبون أنهم واجدون، تلك الحكاية الرائعة، تلك الأكذوبة الرائعة من أكاذيبك يا بحر!!

ردّهم يا بحر، ردّهم إلى نور الشمس في بلادهم...إلى حقول الزهر في قراهم... إلى الينابيع الصافية يعبّون فيها الصحّة والعافية...

إلى الكروم التي هجروها فهجرتها البركات والخيرات... إلى البيوت التي عمّروها على التلال والسفوح.. وراحوا...

إلى أرضهم يا بحر ردّهم، فأرضُهم فيها الكنوز المرصودة. أرضهم فيها الزمرّد والياقوت والعقيق والمرجان وحبّات الذهب، وبركات السماء كلها في أرضهم.

وفي عودتك إليهم، قل لهم أنك كذبت عليهم واستغفرهم يا بحر...

قل لهم: إن المغاور التي حدّثتَهم عنها، مغاور للثعابين والأفاعي، مرصودة من الجان والعفاريت فيها بِرك من الدماء، وبرك من اللهيب.

واضرب يا بحر بينك وبين الذين ما برحوا هنا يغامرون بشبابهم وراء الحكاية... اضرب بينك وبينهم سُوراً من حديد، فلا يجتازه بعد اليوم زورق يضرب في اليمّ، على اسم الكنوز المرصودة.

... أمس ... ودّعت أنا أحبّاء من ضيعتي، راحوا وراء الحكاية الرائعة، إلى جبال "الزمرّد والياقوت".

فليت دربك يا بحر لم تكن علينا...[1]

آذار 1949

على المقلب الثاني

...على البحار السبعة... في كل مطرحٍ من الأرض، من بلادي واحدٌ.

واحد تقتلعه العاصفة من هنا، من هذا التراب

فتزرعه في مقالب الدنيا، على الأمواج،

في البحار السبعة.

... وما غصّتْ أمٌّ مثلما غصّت أمّهات بلادي،

ترمي شبابها واحداً بعد واحد

على كفّ العفاريت، على الموج، خلف الشمس

وحيث لا تصل عين.

1 – سليمان، فؤاد، درب القمر، م. س، ص 29 – 33.

ولبنان حكايةٌ حلوة، خلف البحار...

بيتٌ تُطل عليه الشمس

ورعيانٌ في الدروب

... لعينيك يا بلادي، هذه الأجنحة تزاحم النسور في القمم

وهذه الجباه المجعّدة،

وهذه الزنود تزيح أدغال الغابات

لعينيك يا بلادي، هؤلاء الفتيان

يزرعونك فكراً وعمقاً وخيراً في المقلب الثاني من الأرض.

اللهمَّ سبحانك!

مَن قدّر لهذه النّصباتِ الغريبة، المقتلعة من هذه السفوح وهـذه الجبال

مثلَ هذا الخصب وهذا الفيء.

اللهمّ سبحانك، تحمل البلد الصغير الحلو،

يمدُّ أفياءه على ناطحات القباب وقباب السماء...

اللهم سبحانك! [1]

تراب مقدّس

...حمدتُك ربي...

1 – سليمان، فؤاد، تمّوزيات، م. س، ص 44 – 45.

خِلت أني أمس، قلتُ شيئاً عظيماً، في هؤلاء

الذين زرعوا الشطوط الغربية يُمناً وخيراً،

وركّزوا جباههم في الشمس عالية...

...وتحمل إليَّ الأمواجُ البارحةَ شيئاً منهم،

هو شيء، أقسم عليه، أنه أغلى من المال والأولاد،

ويكاد أن يكون أغلى من قَسَمي.

...رجل من ضيعتي، تنحدر به الحياة بعيداً غريباً وقد تأصّـلت

فروعه هناك، جيلاً بعد جيل،

وطال عهده بكنيسة الحارة، وسنديانات الدير...

...رجل من ضيعتي، جذع سنديانة لبنانية عتيقة صامدة.

بنى لأمِّه وأبيه هنا، عندنا، مقبرة من رُخامٍ لن ينامَ فيها.

يسألني هذا الرجل، ثلاثة أشياء:

...سنديانة الكنيسة العتيقة، "عند السيدة" كيف حالها؟؟

هل يبست، وهل دبّ فيها الموت؟

"ازرعوا غيرها"، يقول لي...

وحبّات من تراب، من عندهم من الكرم

يوسِّد عليها رأسه، على التراب الغريب.

ومن لبنان... شريطة صغيرة عليها ألوان العلم يـضعها علـى

صدره.

آمنت بالتراب... ما أكثر خَيْره!

ما أشدَّ حنانَ القلب البشري إليه

آمنت بك يا تراب بلادي،

يكفر الناس بك هنا، ويسألني عنك رجل من ضيعتي

حبةٌ يزرع قلبه فيها

ويا أيها الشيخ...

أيها اللبناني العتيق. أيها الغريب يشتاق

إلى تراب وطنه!!

لبّيك لبّيك...

في غد مع الموج، تَصلك ورقة خضراء من سنديانة الكنيسة.

وحبّةُ من تراب الكرم.

وعلَم من بلادك أحمر... [1]

البحر الذي لا يشبع

...متى يشبعُ البحر في لبنان؟

إنَّ البحر يلتهم اللبنانيين عيلةً بعد عيلة، وقريةً بعد قرية!!! وفي البحر نَهمٌ لأن يلتهم لبنان أهلاً وصخراً وسندياناً... ويبقى لنا هذا البحرُ يضربُ بأمواجه شواطئَ مقبرةٍ مهجـورة، فيهـا العظـامُ

1 - سليمان، فؤاد، تمّوزيات، م. س، ص 46 - 47.

باليةً...

متى يشبعُ هذا البحر، وهذه البحارُ السبعةُ، من لبنان ومن أبناء لبنان، فلا يترك بيوتَهم مطفأة المصابيح، مقفلةَ النوافذ ويابسة الأزهار؟ وبعد، متى يشبع لبنان، حكومةً وشعباً، من هذا البحر البغيض؟

أقولُها بمرارة، ما بعدَها مرارة: الهجرةُ اللبنانية خرابٌ، ودَمار. وتكادُ الهجرة اللبنانية أن تكون عاراً على شعبنا وحكوماتنا! إن شعباً يتركُ بلاده بمثل هذا الفيض المتلاحق، إنما هو شعبٌ جبان، يتهرّب من حق الوطن عليه.

وإن حكوماتٍ تترك شعبَها، وأنبلَ ما في شعبها من الشباب، ينقذف هكذا، على كفٍّ العفاريت، إنما هي حكوماتٌ كسيحة العقل. وإنّ صحافة تتغنّى بأمجاد اللبنانيين في المهجر، فيندفع الشباب على غنائها، يبحثُ عن "الأمجاد" إنما هي صحافة مجرمة..

الهجرة اللبنانية جريمةٌ لن يغتفرها لبنان لأبنائه، سلطات ورعيةً. من قريتي الصغيرة، ومن أربعمائة نفس، فيهم العجوزُ والطفل والكسيح والأعمى... ركب البحر في سنة واحدة خمسون شاباً، كانوا زنوداً عامرة يُفَتِّتون الصخر تراباً لتُخصب الأرض، وكانوا خيراً ورجوةً... وفي غد، يقولون لي، سيركب البحر قافلةٌ

جديدة، وتصبح قريتي الصغيرة مقبرةً لبنانية كبيرة.

وهكذا تُبنى الأوطان... [1]

أسطورة أولى

المغتربون أسطورة خُرافية لا أكثَر ولا أقلّ.

وعبثاً نحاول أن نجعل من الخُرافة غيرَ خرافة.

المغتربون هؤلاءِ، لن يعودوا إلى لبنان.

الجيلُ القديم فيهم، نسي السنديانة والكنيسة والضيّعة.

والجيلُ الجديد لا تهمُّه السنديانة، ولا الكنيسة ولا الضيعة.

كانوا آباء لنا، وكانوا إخوةً وكانوا أهلاً، ولكنهم ليسوا اليومَ شيئاً من ذلك...

فلماذا نضحك عليهم وعلى نفوسنا؟

لقد ضاع هؤلاء من لبنان، ولم يبقَ لنا منهم شيء.

بالآلام والدموع والعرق، بنوا حياتهم، وحيثُ يبني الإنسان حياته، يكون موطنهُ.

...الذين راحوا راحوا...

أما الذين هنا، الذين يروحون بالألوفِ، هؤلاء يجبُ أن نفعل شيئاً من أجلهم، كي لا يروحوا!.

---

1 – سليمان، فؤاد، القناديل الحمراء، م. س، ص 23 – 24.

الذي يذهبُ من لبنان، يذهبُ إلى الأبد...

لن يعيدَهُ إلى لبنان الهواءُ العليل والمناخُ الطيب، وحتى دموعُ الأمهات، لن تعيدَهُ إلى لبنان إذا راح.

الغربة قاسية مُرّة. ولكنَّ غربة الإنسان في وطنه أقسى وأشدّ مرارة.

ماذا يفعلُ الإنسان في وطنٍ لا يجدُ فيه رغيفاً يأكله، وماءً يشربُه، وقميصاً يلبسه؟؟؟

ماذا يفعلُ الإنسان، في وطن تتنازعه الطوائفُ والأحزابُ والعائلاتُ، فلا يبقى منه للشعب غيرُ التراب اليابس؟؟

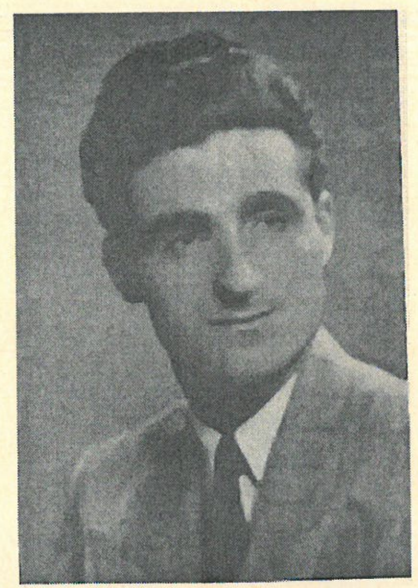
ماذا يفعلُ الإنسان في وطن، يبصق الدم فيه ليعلِّم أولادَه، أو ليُلبسهم حذاءً في يوم عيد؟؟

ماذا يفعلُ الإنسان في وطن يُعنى أغنياؤه المترفون بتحسين نسل الحيوانات، من خيول، وكلاب وبسينات، ويمسخون النسل. فيَطلعُ النسلُ في لبنان أقزاماً مشوّهين؟

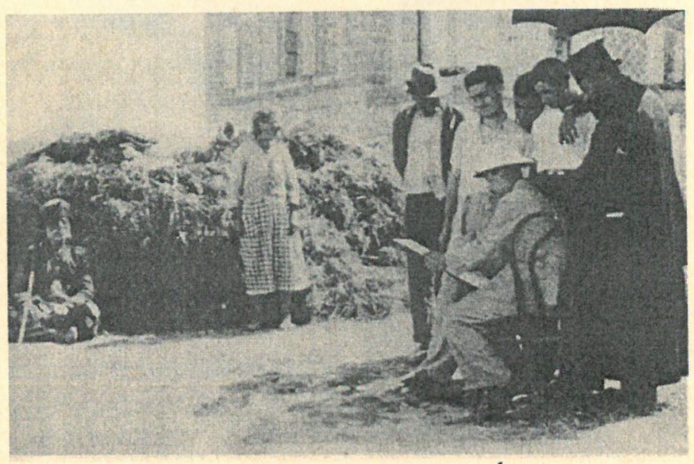
... شدَّ ما أخشاه، أن يأتي يومٌ، لا يبقى فيه، في لبنان، غيرُ المقابر البيضاء، ترقد صامتةً تحت أفياء أشجار السّرو الرمادية... (1)

---

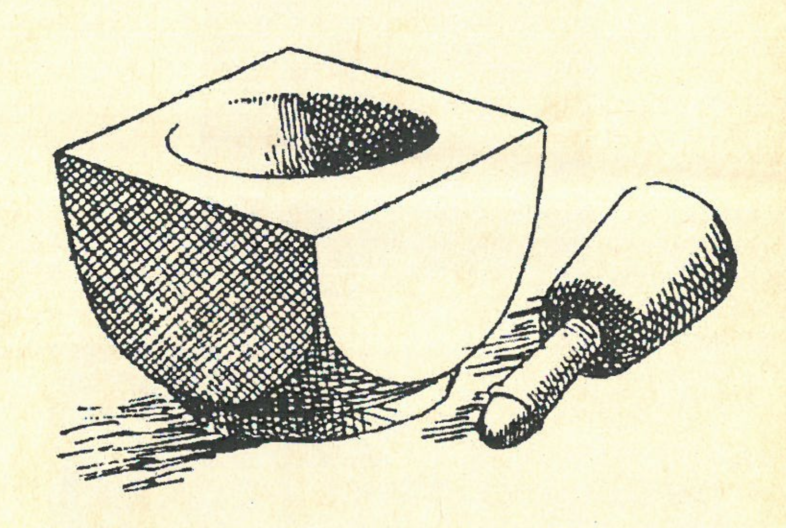
1 – سليمان، فؤاد، القناديل الحمراء، م. س، ص 25 – 26.



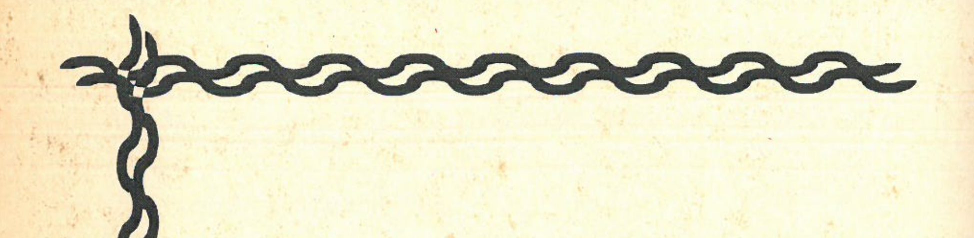
فؤاد سليمان في آخر صورة له



الفنّان مصطفى فرّوخ في زيارة لفؤاد سليمان



جرن الكبّة والمدقّة



ملحق ثامن

طرائف ونوادر من المهجر

نوادر الملحق الثامن:

I – نوادر إبراهيم الراعي:

- في مرسيليا
- ورق اللعب والبتروني
- الحذاء وجنينة مرسيليا
- مهاجر يلوم الصورة وأباه
- يرثي والده عبر القارّات
- يحمل من بلاده ورقة إبرَ
- اللبناني والبيضات
- نصف النعل والمنخز
- الجمل في نيويورك
- الماروني والروم

II – طرائف نجيب حنكش:

- الطموح اللبناني
- في مجاهل أفريقيا
- الحضور اللبناني في البرازيل
- الطائفية في المهجر

I – نوادر إبراهيم الراعي:

مرسيليا

وصلنا مرسيليا ونزلنا في لوكندة أحد الإفرنسيين مع رفيقي سليم وجملة من أولاد العرب. وكان وصولنا نهار الخميس. ومساء السبت جاء صاحب النزل، وطلب أجرة المنامة. وكنّا قد صرفنا العشرة فرنكات التي كانت معنا، فقلنا: أنه في الباخرة القادمة يصلنا دراهم فنحاسبك، فرفض. وقال لا شيء يضمنكم لا صندوق ولا شنتة عندكم. وماذا يمنعكم من ترك الأوضة بدون دفع. حيث لا حواج لكم بها ترجعكم إليها. وكنت أملك كفّية حرير أعصب رأسي بها عندما كنت في سوريا، فبعتها ودفعنا أجرة الأوضة[1].

ورق اللعب والبتروني

في فرنسا مشروب يسمّونه أبسنت لذيذ الطعم. ولكن لا يوجد معنا مال لنشرب منه. ومن غامض علم الله أرسل لنا رجل من البترون وطلب أن ألعب أنا وهو في الكوشينا "لعبة في الورق" على مسودة أبسنت. وكان الورق بجيب رفيقي سليم.

---

1 – الراعي، إبراهيم، جراب الراعي، زحلة/لبنان، مطابع زحلة الفتاة، ط2، 1982، ص 29.

فنزع منه ثمانية ورقات، وبقي أربعة وأربعون ورقة بدل الاثنين والخمسين. وبدأ يلعب سليم والبتروني وسليم متحفّظ أن لا يسلّمه الورق بكامله حتى لا يعدّه. وكان بكل دورة هو الرابح. وبهذه العملية شبعنا أنا وشريكي مشروب. حيث الرجل احترق بعد خسارته الدائمة. وكان يلحّ علينا بضعة أيام في اللعب. وسليم رابح مرة قنّينة أبسنت ومرة غداء وطوراً فرجة سينما[1].

الحذاء وجنَيْنة مرسيليا

قصدنا يوماً التفرّج على جنَيْنة مرسيليا. وكنت أنا ألبس برجلي بوط ورفيقي يلبس (سرماية حمراء). وعندما خرجنا للفرجة بدأ بعض رعاع الإفرنسيين يرشقون رفيقي برؤوس البندورة والبيضات المُمَوْدَرَة، فرجعنا للنزل، وصودف أن أحد رفاقنا واسمه يوسف موجود معه (بوطَين) ومراده بيع واحد منهما، لحاجته للمال. فقلت لرفيقي سأنتظرك بذاك الشارع، واذهب أنت واشترِ البوط من يوسف. وقل له أن المال مع إبراهيم عند رجوعه أدفع لك الثمن فتمّت الحيلة وحضر رفيقي لابساً البوط. فذهبنا بذاك النهار للفرجة على جنينة مرسيليا. وعند رجوعنا قلت لرفيقي الخواجه يوسف لا بد أن يكون بانتظارنا على باب النزل، فسوف أصل قبلك بخمسة دقايق.

1 – الراعي، م.س، ص 29.

وعندما يطلب المال أوهمه أني مزمع للدفع. وأمدّ يدي لجَيبي. وعند وصولك تتظاهر أن البوط ضيّق على رجلك وأرجعه له. وهكذا صار. وبعد أن استعملنا جميع الحِيَل خمسة عشرة يوماً، حضر لنا مال. وذهبنا إلى نيويورك. ودونك بعض نكات مضحكة حدثت للسوريين على مرأى منّا[1].

مهاجر يلوم الصورة وأباه

دخلت يوماً على أحد الأصحاب، واسمه جرجس. وكان موالي ظهره باب الغرفة، وحامل بيده صورة قدّيس من خشب كان موضوعاً في صندوقه بين بضاعته للبيع. وجدته يملي على الصورة هذه العبارت: لو كنت لطيف وأدمي كنت لهمت إحدى السيّدات أن تشتريك. وكانت الآن وضعَتْك على صمدة عالية وغطَّتْك بمنديل من حرير، وأضاءت أمامك كباية زيت حلو. وقد صار لك في صندوقتي ما بنيف عن الشهر وتعلّمت مني جميع الشتايم (وألقى الصورة في الأرض). فوبّخته. فقال عملت ما عملت، ولم أندم. وأرجوك أن تكتب لي تحريراً إلى سوريا على شرط أن تكتب ما أملي عليك. فأجبته بالإيجاب:

«الولد المتطرّف على الشرفة والرجل الذي يكيل المال بالرفش»

1 – الراعي، م. س، ص 29 – 30.

ودونك المكتوب – والدي المحترم

تشمّطت عيوني وأنا ألتفت عسى أرى ولداً متطرّفاً يقع عن الشرفة حتى استلقيه وأخذ عليه الجايزة. فقلت له ما معنى ذلك. فقال: عندما كنت في زحلة أغلب الأمرار يشجّعني والدي للسفر إلى أميركا، ويقول لي: كان رجل ماراً في نيويورك فوجد ولداً على البلكون تدهور، فاستلقاه. فدفع له والده مبلغاً من المال. ورجل كان مارّاً فوجد أناس يكيلون المال بالرفش. فقال لهم على البركة فأعطوه رفشاً ملاناً مالاً (دينك ودين السفر والساعة التي رغّبتني فيها) (1).

يرثي والده عبر القارّات

بينما كنّا نتفرّج على جسر بركلين الشهير، أخذ أحد رفاقنا تحريراً من الوطن. وبعد تلاوته، علم أن والده توفي في الوطن. فطلب مني أن أفهمه لأي جهة لبنان. فدلّيته إلى الشرق. وأخذ من جيبه منديلاً، وصاح من أعالي جسر بركلين ينادي أباه بحسب عوائد بلادنا:«يا عالي الجسر. ويا غالي التمر. زينة كل محضر يا بيي».

ولما كان صوته جهوري، ويومئ بيديه، ظنّ البوليس أنه مجنون. فقبض عليه، وجميعنا لا نعرف اللغة الإنكليزية، حتى

1 – الراعي، م. س، ص 31.

نفهمه الواقع. وصمّم على أخذ رفيقنا إلى المارستان، أخيراً حضر أحد السوريين. فأفهمه بالإنكليزية فضحك وأخلى سبيله(1).

يحمل من بلاده ورقة إبر

وصل من زحلة إلى نيويورك شاب اسمه مراد. وكان له أخ اسمه جرجس منتظر وصول أخيه بفارغ الصبر معلّل النفس أنه لا بد أن يكون معه بعض المآكل السورية من كشك أو زبيب أو محلي، ووجده فارغاً. فقال له على سبيل النكتة لم تجلب معك شيء. فأجاب مراد أنني جلبت ورقة إبر. فقال له أخوه إيّاك أن تتلفّظ باسم الإبر، كل أميركا لا يوجد فيها إبرة. ولربما يحضر للسلام عليك بعض الزحليين، ويطلبون منك إبرة. فإيّاك أن تُعلم أحد بوجود ورقة إبر معك. وعندما علمنا ذلك، حضرنا للسلام على مراد بضعة شبّان. وكل منّا يسأله إذا كان معه إبرة فيُنكر. ويقسم اليمين المغلظة. وبعد ساعة من الوقت، حضرنا لمحل أحد التجّار السوريين، وقلنا له أعطنا ما يلزم لمراد من البضايع. وأول كل شيء أعطانا خمسون دزينة مغلّفات إبر. وعندما وضع جرجس في صندوقة مراد الإبر، سأله ما هذا الصنف أجابه إبر، ولطمه على وجهه. وكانت ساعة تجلّت بها النكتة وخجل مراد(2).

1 – الراعي، م. س، ص 31 – 32.

2 – الراعي، م. س، ص 32.

اللبناني والبَيْضات

ذهب أحد السوريين لمحل طلياني. وكان قصده مشترى بيضات دجاج. ولكن يجهل اسمها. فأَوْمَأ بيده على هيئة البيضة. فأحضر له رأس بطاطا. فاضطر أن يُقَرْفِص ويقاقي نظير الدجاجة. فعلم الطلياني أن مطلوبه بيضات دجاج[1].

نصف النعل والمنخز

كنتُ ورفيقاً لي في إحدى المدن في لوكندة. فنزل ليعمل نصف نعل لبوطه. وكان الكندرجي طلياني، ورفيقي لغته إنكليزية ضعيفة. فطلب منه الطلياني أجرة نصف النعل نصف ريال. فقبل وأَوْمَأ إلى الطلياني على قفاه وقال له من هنا اعتقاداً منه أنه يقصد النعل الذي يسمّونه في بلادنا المنخز الذي يكون من فلكات الفدان. ولكن الطلياني ظنّه أنه يدفع من .. فبدأت الملاكمة. فنزلت على الضوضاء وأفهمت الطلياني الأمر، وأن رفيقي لا يقصد إهانته. فضحك واعتذر[2].

الجمَل في نيويورك

مرَرْتُ بأحد شوارع نيويورك برفقة أحد الأصحاب. وكان ترك زحلة هرباً من الجِمال ومصائبها، حيث كان كلّما اشترى

1 - الراعي، م. س، ص 32.
2 - الراعي، م. س، ص 33 - 32.

جمل في زحلة يموت. ذهب إلى أميركا لكَي لا يرى جمل بعَينه. وصودف، ونحن مارّين بذاك الشارع، وجدنا جموعاً محتشدة، ورجلاً يصيح فرجة نادرة، لا تدعها تفوتك. فدفع كل منّا رسم دخولية قدرها نصف ريال. ودخلنا. ولا تسأل عن دهشتنا عندما نظرنا أن الفرجة جمل. فتكّدر رفيقي وقال هربت من الجمل من زحلة وجدته في نيويورك[1].

الماروني والروم

دخل أوّل الليل بائعان أحدهما ماروني، والثاني روم لأحد بيوت الفلاّحين بالبر، وطلبا إلى صاحبة البيت المنامة. فأجابت (نو روم) والروم هي اسم الغرفة في الإنكليزي. ومعناها أنه لا يوجد عندها غرفة. فقال الماروني هيك وهيك منك. عرفِتَك روم بطّلت تنيّمنا. فذهبا إلى البيت الثاني، بعد أن حزم الماروني رأس رفيقه الروم بمنشفة، حتى لا يعرفوه روم من سحنته. وطلبا منامة. فنظرت صاحبة البيت إلى محزم الرأس، وقالت له لماذا حازم رأسك. فقال لها إنني مريض. فخافت الامرأة، وطلبت البوليس. فأخذهم إلى المستشفى. فوجده مقفول. فوضعهم في السجن إلى اليوم التالي. وبعد أن علِم الحقيقية ضحك وأخلى سبيلهم[2].

1 - الراعي، م. س، ص 33.
2 - الراعي، م. س، ص 33.

II – طرائف نجيب حنكش:

الطموح اللبناني

ومنذ زمن بعيد هاجر لبناني إلى البرازيل وسافر بالدرجة الثالثة لعدم وجود درجة رابعة أو خامسة...

وحين دخل الباخرة لم يجد مكانه المحجوز والمدفوع سلفاً.

فاحتجّ بشدّة، وعلا صياحه، وأخيراً هدّد بالانتحار..

وبعد هذا وضعوه بالدرجة الثانية،

دون أن يتقاضوا منه الفرق بين الدرجتين.

وبعد وصوله إلى سان باولو، أقبل عليه بعض مواطنيه.

وكان كل واحد منهم يقدّم له "كارت" باسمه، ونوع عمله أو وظيفته.

فهذا كاتب ومتفتّش حسابات،

وذاك صاحب منشرة،

وذلك يملك مطعم الشرق والغرب.

وبعد استعراض الأشخاص، ونوع أعمالهم طبع صاحبنا بطاقة باسمه كتب عليها ما يلي:

«جريس طنّوس البداديني المسافر سابقاً بالدرجة الثانية!».

وبعد هذه النماذج من الطموح، نطمح بأن نصبح في يوم من الأيام مواطنين مسؤولين عن بلدنا الجميل، فنعتبر الوظيفة

مسؤولية، لا عنجهيّة، وأن النيابة خدمة لا مظاهر فارغة وحباً للظهور. وأن انتخابات البلدية هي لخدمة البلد وليس للنكايات..

وأخيراً هل نطمح يوماً بأن نصبح شعباً يتحلّى بالروح الرياضية فنعترف للخصم الفائز، ونهنّئه على فوزه، أم نبقى كما نحن الآن:

عند أي خسارة إنتخابية، مختارية بلدية كانت أم نيابية نقول:

الحكومة عملت ضدّي!

العهد حاربني!

الأسطول السادس عرقل أموري..

حلف شمالي الأطلسي ضايقني..

حلف بغداد لم ينجدني..

وأخيراً الشرق والغرب تحالفوا،

حتى خسّروني المخترة... [1]

في مجاهل أفريقيا

كانت إحدى الطائرات تعبر القارة السوداء. فحدث أثناء ذلك أن اضطرت للهبوط، بسبب خلل طرأ على إحدى محرّكاتها.

---

1 – حنكش، نجيب (1899 – 1979)، المقامات الحنكشية، بيروت، المكتب التجاري، ط1، 1964، ص 122 – 123.

فنزل الجميع، والحمد لله، دون أي حادث. وكان بين الركّاب اثنان من لبنان. فبعد نزولهم إلى اليابسة أحاط بهم فريق من إحدى القبائل المتوحّشة. فأوثقوهم بالحبال وراحوا يرقصون حولهم وحواليهم، وهم يهزجون وينشدون. وتلك عادة يتّبعها سكّان تلك المنطقة قبل القضاء على الغنيمة بالقوص والنشّاب، أو بسلقهم بالماء الغالي!؟..

وفي تلك الساعة الرهيبة أخذ اللبناني يقول لرفيقه:

– راحت علينا. ولم يبقَ لنا سوى الصلاة والتضرّع لله، وقال:

– يا رب! يا يسوع! يا مارتقلا! يا مار متر، يا مار يوحنّا يا.. يا.. يا.. وأخيراً وصل إلى مار مارون. فقال بصوت الملهوف:

– دخلك يا مار مارون!؟..

– وعند سماع رئيس القبيلة هذا الاسم، أوقف جماعته عند حدّهم وقال بالعربية:«والله لو ما تكونوا لبنانيين، لكنتوا صفّيتوا بالخلقين»![1]

الحضور اللبناني في البرازيل

وفي البرازيل البلاد المترامية الأطراف كان الرئيس

1 – حنكش، المقامات، م. س، ص 132.

الأميركي الأسبق "تيودور روزفلت" في زيارة رسمية لتلك البلاد العظيمة. وأحبّت الحكومة البرازيلية أن يكون بين برنامج استقباله زيارة إلى حرش بكر، لم تكن قد وطئته قدمَي إنسان. وسار الموكب بين تلك الأدغال الكثيفة. وهناك قرب جدول ماء رقراق حاول الجميع النزول. وكم كانت دهشة "روزفلت" كبيرة عندما شاهد على الأرض قُصاصة من جريدة لبنانية تدعى "الأفكار". فقال إن اللبناني أيضاً سبقنا إلى هذا المكان!؟.

كل ما ذكرته هنا ليس من نسج الخيال، بل واقع حقيقي ومشرّف للبنان وأبنائه اللوائيين والذين يعدّون بحق واجهة العالم العربي في كل قطر من أقطار المعمورة! [1].

الطائفية في المهجر

كنت في غُربتي أتردّد أحياناً إلى مكتبة اليازجي في مدينة سان باولو. وهناك كنت أستعرض أذواق الناس في ميولهم الأدبية والفنيّة والسياسيّة من خلال إقبالهم على شراء الكتب والأسطوانات!.

ولقد منّ الله عليّ بفضيلة احترام ميول الناس ومشاربها وعقائدها وأذواقها "وللناس فيما يعشقون مذاهب"!.

وذات يوم دخل زحلاوي طويل القامة، عريض المنكبَين. وبصوت يشبه الرعد قال لصاحب المكتبة بلهجته الزحلية

1 – حنكش، المقامات، م. س، ص 133.

المحبّبة: يا سيدنا بدنا كتاب يكون كبير، وقَدْ ما يكون ثمنه مش راح نختلف!.

فذهب صاحب المكتبة، واختار له قاموساً طويلاً عريضاً.

وقال: تفضّل يا خواجة.. هذا كتاب ضخم، وثمنه عشرون ليرة برازيلية فقط!.

دفع الزحلاوي الثمن دون مساومة على غير عادة!! وبعد يومين عاد أخونا يرغي ويزبد مبادراً صاحب المكتبة بقوله: يلْعَنْلَك هالرِواية، وتُقْبُرْ هالكتاب يللي مش مفهوم أوّله من آخره.. أبطال الرواية كتار والموضوع ربّك ما بيِفْهَموا!.

وبدون جدال، أبدل المكتبجي ذلك القاموس الضخم بقصّة "عنترة بن شدّاد". فراح الزحلي يتصفّحها، فأعجبته. وقال: هاي قصّة حلوي ومفهومي.. فيها ضرب سيف، وطعن رمح، ورجولة، مش متل القاموس الذي ما فيه لا معركة ولا شِعر!.

وبعد قليل جاء إلى المكتبة شاب أنيق اللباس، حسن الهندام، وسأل إذا كان يوجد كتب عن مشاهير فرنسا وعظمائها.. فأجابه صاحب المكتبة: عندنا كتب عن مشاهير العرب وتاريخهم العظيم، خصوصاً عن العصر الأندلسي الزاهر. فامتعض الشاب الأنيق وقال: يا سيدي، لا يخفى عن بالك أنني ماروني.. نعم نحن استقلّينا في لبنان، والحمد لله على ذلك، ونعيش بخير ووِفاق مع إخواننا العرب. لكن لا يسهو عن بالك أنّنا نحنّ دوماً للصداقة

التاريخية مع فرنسا!.

وبعد ذلك دخل المكتبة رجل مربوع القامة يطلب أي كتاب، شرط أن يكون له علاقة بالنمسا وتاريخها العريق، والسبب بسيط جداً، لأن الأخ كاثوليكي.. والنمسا في مفهومه كانت تحمي الروم الكاثوليك في الشرق العربي، وخصوصاً في لبنان!.

وبعد هذه المآسي بأيام، دخل مواطن من إخواننا "البروتستنت" يرغب في الحصول على كتب تتحدّث عن رجالات أميركا العظام أمثال إبراهام لنكلن، وجورج واشنطن، وغيرهما من صانعي تاريخ أميركا!!.

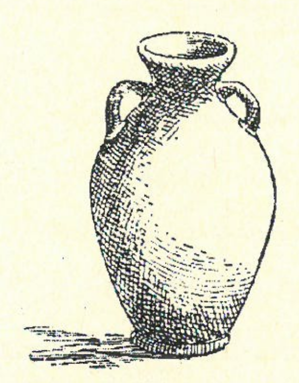
ومن ثم جاء دور الأرثوذكسي الذي طلب بإلحاح شديد أسطوانات روسية، شرط أن تكون من العهد القيصري، أي قبل الشيوعية. وحين سأله المكتَبجي إذا كان يفهم الروسية أجاب: يقبروني ويطمّوني الروس، يا أخي نحن الحسني العبادة الأرثوذكسيين لن ننسى أبداً فضل روسيا علينا. فالروس البيض لهم الفضل الوحيد بتعليق الأجراس لنا على قباب الكنائس.. فهل من المعقول أن ننسى الجميل.. إني أحبّ الروس، وأحبّ الأناشيد الروسية، حتى ولو لم أفهم منها كلمة واحدة!.

وأخيراً دخل المكتبة اليازيجية أحد إخواننا المسلمين، وطلب منهم أسطوانات تركية. وحين سأله صاحب المكتبة إذا كان يفهم التركية؟ أجاب بحماس: يكفي أن يكون الأتراك مسلمون، لكي

أطرب لكل ما يقولون أو يُنشدون!..

نعم.. نعم.. في عهد الصواريخ وغزو الكواكب، نبقى نحن، كما كنّا من زمان، نُقبل على الأشياء بالدوافع الطائفية والدينية، ولا شيء غير العلم والزمن يطوّرنا.. فنقبل على الأشياء من حيث قيمتها، فالقيَم الحقيقية لا شأن لها بالمذاهب والعقائد والقوميات.. فهل يأتي ذلك اليوم السعيد الذي نتحرّر فيه من سماع مثل هذه التعابير: رئيس ماروني.. وزير مسلم.. قائد درزي.. نائب كاثوليكي.. محافظ أرثوذكسي.. مدير شيعي.. معلم بروتستانت!.

وإذا قيّض لنا أن نقوم بعمل يقدّره العالم، فلن يكون مردّ هذا التقدير للّون الطائفي، بل لقيمته الإنسانية، والإنسانية فحسب! [1].



مسمنة للقورما

---

1 - حنكش، نجيب، حنكش بليرتين، بيروت، دار النشر الحديث، ط1، 1962، ص 131 - 134.



خاتمة الدراسة

وبعد؟!

أمأساة هي الهجرة أم ملحمة؟؟

إذا استمرّت الهجرة، وحتى منتصف القرن الماضي، تظهر وجهاً إيجابياً، وتذكّر بإنجازات المغتربين ورسالتهم قديماً وحديثاً، فقد كشّرت اليوم عن أنيابها وغدت جرحاً نازفاً في خاصرة الوطن لا يلتئم.

كثرٌ الذين حذّروا، وأطلقوا الصرخة مدوية. أدباء، مفكّرون، علماء وباحثون... الخ.

فؤاد سليمان خشيَ أن يأتي يوم لا يبقى فيه في لبنان غير المقابر البيضاء، وبقيت صرخته في واد.

وغيره من الباحثين المعاصرين حذّر:«إذا بقي الوطن محطّة طرد قاهرة لشبابه المثقّف والمنتج. وإذا استمر المهجر، في المقابل، أتون جذب لهؤلاء، فإن آفاق الهجرة اللبنانية تنذر بزوال الاثنين معاً، استنزاف الوطن، وضياع المنتشرين»[1].

واليوم، وبعد الأزمة الخانقة منذ شباط 2005. ولا سيما بعد حرب تموز 2006، يبدو الأفق أكثر انسداداً. وقد ألف اللبنانيون

---

1 - العقل، م. س، ص 413.



التجربة لوحة بريشة ميخائيل نعيمة

الانتظار، بل وحتى النوم، على أدراج السفارات في انتظار تأشيرة خروج من الوطن.

والخطر غدا مزدوجاً وعلى خطّين.

خطّ الخروج. فما أكثر المهاجرين. وخطّ الدخول والتسلّل، فأكثر من المهاجرين، ربما، الغرباء القادمون، هذا للعمل، وذاك متسللاً للتخريب الخ.

والأحداث الأخيرة أيار 2007، كشفت وجهاً مرعباً للطارئين والداخلين، وما يضمرون لهذا البلد وأهله. وما يحملون من إيديولوجيات أصولية وإرهابية قاتلة للكيان...

والمَلَق فالت: انفجارات في كل المناطق... ولا يكشف النقاب عن فاعل واحد...

وإذا استمرّينا على هذه الحال، فسيفرغ البلد من أهله، وسيمتلئ بالغرباء والطارئين من غير أهله. من يُمَشْرِع لهم التوطين. وغيره من الخطط التي تفتك بالكيان والوطن.

إمتلاء الوطن بالغرباء كارثة ستؤدّي إلى إفراغه من أهله. هذا ما حذّر منه الكثيرون. فشارل القرم مثلاً، والذي تغنّى بالهجرة كما رأينا، كان من أول المحذّرين من خطر لبنان/الملجأ. في مسرحيته "القَيْلِيقيات" المدوّنة عام 1928. وموضوعها استشهاد الأرمن في المجازر التركية، ولجوء

البعض منهم إلى لبنان. يقول القرم على لسان شخصيات المسرحية:

– الشيخ: هنا (لبنان) منذ قديم الزمان، كلّما اضطهدت أقلية دينية في مكان ما من الشرق، وجدت ملجأً يحميها من الطغاة.

– لاجئ أول: إذا كانوا كما تقول فإن جبلهم ملعون.

– إن فتحوا جبلهم لكل غريب فإنهم مجانين حقاً.

– لاجئ أول: إذا بلغ بهم الكرم هذا الحد، فإنهم لن يلبثوا أن يصبحوا غرباء في بلادهم.

– لاجئ ثانٍ: إذا كانت بلادهم ملجأ. وإذا كانوا يحبّون إنجيلهم بكل قلبهم فإن الأجنبي، كالذئب، لا بد أن يقضي عليهم[2].

ألم تتحقّق نبوءة شارل القرم. أو جزء كبير منها على الأقل. فبنتيجة تدفّق الغرباء على هذا الوطن الصغير، غدا بؤرة للإرهاب وموئلاً للطارئين والخارجين على القانون، أو الباحثين عن رزق، على الأقل. في حين يهاجر أبناؤه هرباً أو بحثاً عن أرزاقهم؟!.

بالأمس منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف العشرين كانت الهجرة قراراً محسوباً ومقصوداً. وهي تبدو اليوم

2 – جبر، م. س، ص 80/1.

وكأنها الخيار شبه الوحيد لشباب الوطن الباحث عن غدٍ أفضل، وفرصٍ للعمل.

إذا ترحّلتَ عن قومٍ وقد قدروا

أن لا تفارقهم فالراحلون هُمُ[3]

الوطن كلّه سيكون الراحل إذا لم يقدر أن يوقف، أو يُحدّ من رحيل أبنائه.

ولكن هل من حلّ لمسألة الهجرة؟ وما عساه يكون؟! ليس من شأن هذه الدراسة، ولا بمقدورها، اجتراح المعجزات. سيما وأن الهجرة غدت، مثلها مثل الفساد والطائفية وغيرها، مرضاً مزمناً وعضالاً، يصعب مداواته. وجلّ ما يأمل المرء بعض المسكّنات التي تخفّف الوجع وتؤجّل الأجل.

وقد يزفر قارئ كتاب الخوري خرباوي قائلاً: ما أهون المآسي التي يعرضها على ما نعيشه اليوم!.

كانت لنا في هذه الدراسة جولة تفحّصية نقدية وتحليلية لمضامين الكتاب المذكور وأسلوبه ومنهجيته. فقيّمنا ما أورد من وقائع ومعطيات وفائدتها اليوم في البحث.

وافقناه في أمور، وخالفناه في أخرى، أو تحفّظنا على الأقل. والهدف الأول فتح الحوار والنقاش حول عدد من

3 – المتنبي، ديوان المتنبي، بيروت، دار الجيل، لات، ص 333.

المواضيع التي يعرض: أسباب الهجرة ونتائجها. أوضاع المسيحيين والأقليات عامة في هذا المشرق، وقد عُرف سابقاً بالاستبداد: *Despotisme Oriental*. صفة لما تزال عالقة في كثير من الأذهان. بل والعديد من الوقائع والأوضاع الحالية..

ولم نكتفِ بالجولة التفحّصية النقدية، بل رفدناها بأخرى تناولت مسائل ومواضيع لم يتطرّق إليها كتاب خرباوي، أو اكتفى بمجرّد الإلماع. في حين يبقى البحث في الهجرة مجتزأً ومنقوصاً إذا أغفلها ومنها:

– موقع لبنان وجغرافيته وأثر ذلك في الهجرة. وقد تناولنا ذلك من زاوية مختلفة تدعو للتأمل.

– الهجرة تحديداً ومسألة كيانية تمسّ جوهر الإنسان ومصيره.

– أدب المهجر ومفهومه للهوية والانتماء ومفهوم أدب المقيمين للهجرة.

وتناولنا في الفصل الأخير أسباباً للهجرة أخرى لم تُدرج غالباً في قائمة المسبّبات.

فعرضنا للكنيسة والهجرة ولم يكن تناولنا لهذه المسألة من خلفية عدائية للإكليروس *Anticlérical* ... حاشا.

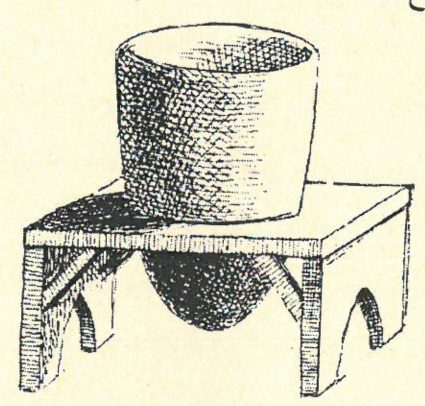
وإنما أردنا أن نضع الإصبع على الجرح، ونعبّر عن

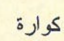
مخاوف وتساؤلات واستغراب.. بشأن دَوْرٍ مفترضٍ لجماعات وجمعيات ومؤسسات دينية ورهبانية تملك إمكانيات هائلة.. وتقف متفرّجة مع المتفرّجين... والوطن يفرغ من أبنائه.

لم نقصد التجريح.. ولا هو من مسلكيتنا. إنما هي مرارة المعاناة قد تعكس شيئاً من القسوة في التعابير.

وختاماً: لا شكّ أن الهجرة مسألة تضع بقاء الوطن على المحكّ. والتعامل مع مشكلة بهذا الحجم لا يمكن أن يكون من جانب أو فريق واحد مهما علا شأنه. وإنما يتطلّب ذلك تضافر جهود ونوايا وإرادات كل شرائح المجتمع وأطيافه ومؤسساته وطوائفه ... الخ.

فهل من نية جدّية في البحث عن حل؟! وهل من رغبة واستعداد في دفع التكلفة!.





كوارة



مكتبة البحث

مراجع الدراسة والملاحق

Bibliographie

رتّبت المراجع أبجدياً وفق أسماء المؤلفين. وأضفنا إلى أسماء مؤلفي المصادر والأدباء المهاجرين تواريخ الميلاد والوفاة، وتاريخ الطبعات الأولى لبعض المصادر، وذلك بغية تبيين التسلسل التاريخي.

دراسات الهجرة: تطوّر وتاريخ

سبق وذكرنا في مستهل دراستنا أن الهجرة اللبنانية موضوع لم يَنَل بعد كامل ما يستحقّ من اهتمام ودراسة ولكن ذلك لا يمنع توفّر العديد من الأبحاث الجادّة في هذا المجال. وقد آلينا جهدنا أن تكون بيبليوغرافيا كتابنا شاملة لكل، أو لأبرز، ما نشر من دراسات عن الهجرة. وسنشير هنا إلى أهم الأبحاث/المحاور في هذا المجال. ولا سيما غير المذكور منها في لائحة المراجع:

يعتبر كتاب إيلي صفا "الهجرة اللبنانية" الصادر في بيروت بالفرنسية عام 1960 نقطة تحوّل أساسية في التأريخ العلمي للهجرة اللبنانية عبر العصور.

- Safa, Elie , l'Emigration Libanaise , Université st Joseph/Faculté de Droit et des Sciences Economiques, Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1960.

والكتاب أساساً أطروحة دكتوراه دولة في الحقوق والعلوم الاقتصادية، اعتبره الرئيس اللبناني السابق ألفرد نقاش عملاً

وطنياً متميّزاً يستحقّ النشر والتوزيع علـى نطـاق واسـع[1]. تضمّنت الأطروحة مقدّمة وقسمين توزّعا على خمسة فـصول، وخاتمة ومكتبة للبحث. وقد حاولت تقديم لوحـة شـمولية عـن أسباب الهجرة اللبنانية منذ القِدَم حتى أواسط القرن العشرين.

وبقي كتاب إيلي صفا فريداً في بابه لفترة تجاوزت الربـع قرن، لم يصدر خلالها كتاب علمي شمولي عن الهجرة اللبنانية، «فحتى العام 1985، اعتبر كتـاب صـفا حجـر الزاويـة فـي الدراسات الشمولية عن الهجرة اللبنانية»، كما يقول د. مـسعود ضاهر[2].

ونسج على منواله كتابان آخران، مسألة الهجـرة الـصادر عن جامعة الكسليك 1974، (مذكور في المراجـع). وكتـاب نبيـل حرفوش:

- حرفوش، نبيل، الحضور اللبناني في العالم، جونية/لبنـان، مطابع الكريم، ج1، 1978.

ومنهجية الكتابَين المذكورَين قريبة جداً من منهجية كتـاب صفا.

ومنذ العام 1985، بدأت الدراسات بشأن الهجرة تتخلّى عن الطابع الشمولي المشار إليه. فتمحورت غالبيتها حـول نقطـة

---

1 - أرزوني، م. س، ص5.

2 - أرزوني، م. س، ص 6.

واحدة، أو بلد واحد، أو حقبة معيّنة، وأبرز هذه الدراسات:

- Centre d'Etudes et de recherches sur le Moyen-Orient contemporain (CERMOC), Migrations et Changements Sociaux dans l'Orient Arabe, Beyrouth, 1985.

يحوي الكتاب ثلاثة أبحاث علمية عن الهجرة اللبنانية إلى دول الخليج والهجرة وسوق العمل للمهندسين المدنيين والمعمـاريين اللبنانيين، والحرب والهجرات نحو دول الخلـيج والتوظيفـات الجديدة في قطاع العقارات في بيروت الكبرى.

- لبكي، بطرس، الهجرة اللبنانية والدمج في الاقتصاد العالمي، خلال الثورتَين الصناعيَّتَين الدوليَّتَين (1850–1914)، بيـروت، مجلة الواقع، عدد 9، نيسان 1986.
- Labaki, Boutros, l'Emigration Libanaise en fin de période Ottomane (1850-1914), in Revue Hanon, Revue Libanaise de Géographie, V. 19, 1987.
- Labaki, Boutros, l'Emigration Libanaise sous le Mandat Français, Hanon Revue Libanaise de Géographie, V. 17, 1982 – 1984.
- زريق، هدى، عملية صنع القرار في الهجرة المؤقّتة والدائمـة في لبنان، بيروت، مجلّة المستقبل العربـي، عـدد 87، أيـار 1986.
- حمدان، هشام، الإغتراب اللبناني في نيجيريا، بيروت، جريـدة

السفير، عدد 1986/05/30.

-ضاهر، مسعود الهجرة اللبنانية إلى مصر، (مذكور في لائحة المصادر).

- Taan, Dunia Fayad, Les Libanais en Côte d'Ivoire d'Hier à Aujourd'hui, Beyrouth, Librairie de l'école, 1988.

-مارتلين، لوفي ماريا، اللبنانيون في المكسيك، بحث قدّم إلى المؤتمر الرابع للدراسات اللبنانية في أوكسفورد *Oxford* في 1989/09/13. ونشرت جريدة النهار/بيروت ترجمة لمقاطع منه في عدد 1989/09/22.

-أرزوني، خليل، الهجرة اللبنانية إلى الكويت، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ، الجامعة اللبنانية 1991 (مذكور في لائحة المراجع).

- Hourani, Albert, & Shehadi Nadim (Ed), the Lebaneses in the world, a century of Emigration, London, Tauris, 1992, 741 p.

وهو كتاب ضخم من 741 ص. تضمّن أبحاثاً مهمّة عن الهجرة وأسبابها وتوزيعها في بلدان الاغتراب. شارك في إعداده باحثون لبنانيون وغربيون.

-فاعور، علي، الهجرة للبحث عن وطن: دراسات ميدانية للمهاجرين اللبنانيين، بيروت، المؤسسة الجغرافية، ط1، 1993.

وللدكتور فاعور عدد من الدراسات الأخرى عن التهجير في لبنان والهجرة إلى خارجه منشورة بالعربية والفرنسية.

- Hashimoto, Kohei, Why people migrate? Information transfer and migration, the case of Lebanese international migration, Tokyo, P H P, 1993.

وما أوردنا هو بعض الأبحاث الرصينة والتي تؤكّد تنامي الاهتمام بدراسة الهجرة اللبنانية محلياً وعالمياً. وتشير إلى بروز اتجاه علمي جديد في مقاربة الهجرة اللبنانية.

ومن أبرز ما صدر في الموضوع عينه في مطلع القرن الحادي والعشرين، أعمال د. عبدالله الملاّح (مذكورة في لائحة المصادر)، وهو، على حدّ تعبير الأب د. كرم رزق: «من أوائل الأكاديميين الذين انتبهوا إلى أهمية الهجرة على الصعيدين العلمي والوطني. فشرّع أبواب البحث فيها أمام الطلاّب، ووسّع آفاقها لجهة اكتشاف المصادر الجديدة»[1]. وقد أشرف على أطروحات ورسائل جامعية في موضوع الهجرة، من بينها: الهجرة الحديثة من لبنان وتعاطي المؤسسات الرسمية والأهلية معها (1860 – 2000) لجهاد العقل (أنظر لائحة المراجع). كما سعى مع الأب المذكور لتأسيس كرسي جامعي خاص بالهجرة في جامعة الكسليك. ومن بين الكتب الحديثة التي تختصّ بناحية

1 – الملاّح،الهجرة، م. س، ص 3.

معيّنة من الهجرة. مؤلّف روبرتو خطلب، البرازيل لبنان صداقة تتحدّى المسافات. عرض تاريخي للهجرة إلى البرازيل 1876 – 2000.

وكتاب جورج فرشخ اقتراع المغتربين، ولعلّه الأول الذي يتناول هذا الموضوع. ويدرس قوانين اقتراع المهاجرين في عدد من الدول الغربية كفرنسا وإسبانيا وغيرها.

وقد عمدنا في لائحة المراجع التي تلي إلى تقسيم هذه الأخيرة إلى فئات عديدة، وذلك تسهيلاً للعودة إلى كل صنف.

وختاماً نأمل أن تكون لائحة المراجع التالية والتي حرصنا أن تشمل كل ما حصلنا عليه من دراسة عن الهجرة أو أدب المهجر، أداة مفيدة لكل باحث.

I – دراسات عن الهجرة

جمعنا في هذا القسم كل ما وصل إلينا من مصنّفات تختصّ بالهجرة اللبنانية ممّا رجعنا إليه في دراستنا أو في الملاحق التابعة لها.

1 - أرزوني، د. خليل، الهجرة اللبنانية إلى الكويت 1915 – 1990، تقديم ومراجعة د. مسعود ضاهر، بيروت، مكتبة الفقيه، ط1، 1994، 447 ص.

2 - جبر، د. جميل، الاغتراب اللبناني نظرات مستقبلة، ضمن كتاب الهجرة مسألة لبنانية، الكسليك/لبنان، جامعة الروح القدس، ط1، 1974، 69 – 85.

3 - جمعة، هيثم، الهجرة اللبنانية واقع وآفاق، تقديم الرئيس نبيه بري، بيروت، ط1، 2002، 157 ص.

4 - حشيمة، عبدالله، من أرض الغد، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ط1، 1962، 186 ص.

5 - الحلو، إبراهيم، عظماؤنا في العالم، بيروت، ط1، 2001، 204 ص.

6 - خاطر، لحد، مذكّرات الخوراسقف أنطون عقل عن وفادته البطريركية إلى المغتربين، بيروت، ط2، 2006، 270 ص.

7 - خالد، عبدالله، الشرق الأوسط وهموم المغتربين من واشنطن إلى لاغوس، طرابلس، دار جرّوس، ط1، 1994، 159 ص.

8 - خرباوي، الخوري باسيليوس، تاريخ الولايات المتحدة والمهاجرة السورية، نيويورك، مطبعة الدليل، ط1، 1913، 958 ص.

9 - خطلب، روبرتو، البرازيل – لبنان صداقة تتحدّى المسافات، ذاكرة واستعراض تاريخي، 1876 – 2000، ترجمة ألبير فرحات، بيروت، دار الفارابي، ط1، 2000، 239 ص.

10 - الراعي، إبراهيم، جراب الراعي، زحلة/لبنان، مطابع زحلة الفتاة، ط2، 1984، 181 ص.

11 - زحلان، أنطوان (إشراف)، هجرة الكفاءات العربية، بحوث ومناقشات ندوة اللجنة الاقتصادية لغرب آسيا، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط4، 1996، 432 ص.

12 - شهاب، خليل لبيب، تجربة في غربة، عربون وفاء لبلدي الثاني المملكة المتحدة، لندن، ط2، 2002، 269 ص.

13 - ضاهر، مسعود، الهجرة اللبنانية إلى مصر، هجرة الشوام، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ط1، 1986، 466 ص.

14 - ضعون، توفيق فضل الله، من وحي السبعين 1883 - 1953 في الصلة بين المغتربين والمقيمين، بيروت، دار ريحاني،ط1، 1953، 334 ص.

15 - طبر، بول وآخرون، اللبنانيون في أستراليا: قراءة في الهوية والعنصرية في زمن العولمة، ترجمة حسن الشيخ، بيروت، مختارات، ط1، 2005، 239 ص.

16 - عطاالله، د. محمد، الاغتراب وأثره في التركيب الاقتصادي والاجتماعي في لبنان، ضمن كتاب الهجرة: مسألة لبنانية، الكسليك/لبنان، جامعة الروح القدس، ط1، 1974، ص 49 - 68.

17 - العقل، د. جهاد نصري، الهجرة الحديثة من لبنان وتعاطي المؤسسات الرسمية والأهلية معها (1860 - 2000)، بيروت، دار ومكتبة التراث الأدبي، ط1، 2002، 440 ص.

18 - فرشخ، جورج، اقتراع المغتربين، دراسة ولوحات مهجرية تتبعها زغرتغرين قرية مهدّدة بالرحيل، بيروت، بيسان للنشر، ط1، 2006، 184 ص.

19 - كرم، جورج أديب، أحزاب اللبنانيين وجمعياتهم في الربع الأول من القرن العشرين، 1908 - 1920، بيروت، دار النهار، ط1، 2003، 217 ص.

20 - مالك، شارل، لبنان كياناً ومصيراً، ضمن كتاب الهجرة، مسألة لبنانية، الكسليك/لبنان، جامعة الروح القدس، ط1، 1974، ص 9 - 47.

21 - معنق، جورج، لبنان في العالم، اللبنانيون في كولومبيا وأبناؤهم من لطّوف إلى طربيه أمثلة وعِبَر، بيروت، دار المكشوف، ط 1، 1943، 72 ص.

22 - الملاح، د. عبدالله، الهجرة من متصرفية جبل لبنان، 1861 - 1918، بيروت، 2007، 320 ص.

23 - الملاح، عبدالله، متصرفية جبل لبنان في عهد مظفر باشا (1902 - 1907)، بيروت، مؤسسة خليفة للطباعة، ط1، 1985.

24 - نجم، جميل رشيد، ملحمة الاغتراب اللبناني، بيروت، مطابع الرعيدي، لات، 240 ص.

II – دراسات في أدب المهجر

وحظّ أدب المهجر من الدراسة والاهتمام يفوق حظ الهجرة نفسها من ذلك. إذ بدأت دراسة الأدب المهجري منذ وقت مبكر. تلى ظهوره بفترة زمنية قصيرة. ولا يقلّ المصريون وسائر العرب كالأردنيين اهتماماً بأدب اللبنانيين المهاجرين عن احتفال اللبنانيين أنفسهم بهذا الأدب. وهذا ما تبيّنه لائحة المراجع التي عدنا إليها في دراستنا. وهذا لوحده دليل على مدى تأثير هذا الأدب وإشعاعه.

25 - أبي فاضل، د. ربيعة، فوزي المعلوف شاعر الألم والحلم، بيروت، دار المشرق، ط1، 1993، 170 ص.

26 - بلبع، د. عبدالحكيم، حركة التجديد الشعري في المهجر، بين النظرية والتطبيق، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1980، 340 ص.

27 - خوري، ألفرد، الكلمة العربية في المهجر، بيروت، دار الريحاني، لات، 376 ص.

28 - ديب، وديع، الشعر العربي في المهجر الأمريكي، بيروت، دار ريحاني، ط1، 1955.

29 - زكا، د. نجيب منصور، أقلام مهاجرة، بحث حول نتاج الرابطة القلمية، بيروت، شركة المطابع الحديثة، ط1، 1980، 230 ص.

30 - السرّاج، د. نادرة جميل، شعراء الرابطة القلمية، دراسات في شعر المهجر، القاهرة، دار المعارف، ط3، 1989، 352ص.

31 - السرّاج، د. نادرة جميل، نسيب عريضة، الشاعر، الكاتب الصحفي، دراسة مقارنة، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1970، 179 ص.

32 - طوقان، فواز أحمد، أسرار تأسيس الرابطة القلمية وعلاقة أعضائها بالفكر الاشتراكي، بيروت، دار الطليعة، ط1، 2005، 400 ص.

33 - عبّاس، د. إحسان ونجم محمد يوسف، الشعر العربي في المهجر، أميركا الشمالية، بيروت، دار صادر، ط3، 1982، 291 ص.

34 - الناعوري، د. عيسى، أدب المهجر، القاهرة، دار المعارف، ط3، 1977، 608 ص.

III – مصادر الأدب المهجري

أي مؤلّفات أدباء المهجر المستخدمة في الدراسة. وقد أضفنا إلى اسم المؤلّف سنتي الميلاد والوفاة توضيحاً للتسلسل التاريخي. كما ذكرنا تاريخ الطبعات الأولى لبعض هذه المؤلّفات للسبب عينه.

35 - أبو ماضي، إيليا (1889 – 1957)، ديوان إيليا أبو ماضي، تقديم جبران خليل جبران، دراسة زهير ميرزا، بيروت، دار العودة، 1988، 857 ص.

36 - جبران، جبران خليل (1883 – 1931)، المجموعة الكاملة للمؤلفات العربية، تقديم ميخائيل نعيمة، بيروت، دار صادر، ط1، 1949، 620 ص.

37 - الشاعر القروي، رشيد سليم الخوري (1887 – 1984)، الأعمال الكاملة، الشعر، تحقيق محمد قاسم، طرابلس، جروس برس، ط7، 1992، 629 ص.

38 - صيدح، جورج (1893 – 1978)، أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية، طرابلس، مكتبة السائح، ط4، 1999، 550 ص.

39 - نعيمة، ميخائيل (1889 – 1988)، جبران خليل جبران، حياته، موته، أدبه، فنه، بيروت، مؤسسة نوفل، ط11، 1991، 327 ص.

40 - نعيمة، ميخائيل (1889 – 1988)، سبعون حكاية عمر، 1889 – 1959، بيروت، مؤسسة نوفل، ط6، 1980، ج1، ج2، 356 ص.

IV – الهجرة في أدب المقيمين

جمعنا في هذه الفئة ما تناول الهجرة في كتابات اللبنانيين المقيمين والدراسات عن هذا الأدب. ذاكرين أيضاً سنوات الولادة والوفاة لكل أديب.

41 - بقاعي، إيمان يوسف، سعيد عقل الإبحار إلى فينيقيا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1995، 134 ص.

42 - جبر، جميل، شارل القرم شاعر الجبل الملهم في سيرته وآثاره، بيروت، منشورات المجلة الفينيقية، ط1، 1995، 190 ص.

43 - الحاج، جورج زكي، الفرح في شعر سعيد عقل، المجدلية، قدموس، ورندلى، من مثلّث اليونان إلى ثالوث المسيحية، بيروت، بيسان للنشر، ط2، 2000، 358 ص.

44 - حنكش، نجيب (1899 – 1979)، المقامات الحنكشية، بيروت، المكتب التجاري، ط1، 1964، 150 ص.

45 - سليمان، فؤاد (1912 – 1951)، تموزيات، مقطّعات في الأدب والفن والاجتماع، تقديم غسان تويني، ، بيروت، لجنة تخليد ذكرى فؤاد سليمان، ط1، 1953، 151ص.

46 - سليمان، فؤاد (1912-1951)، أغاني تموز، شعر، تقديم موسى سليمان، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ط2، 2001، ط1، 1953، 75 ص.

47 - سليمان، فؤاد بأقلامهم، مجموعة مقالات وأبحاث، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ط1، 2001، 362 ص.

48 - سليمان، فؤاد، القناديل الحمراء، تقديم أنسي الحاج، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ط2، 1987، ط1، 1963، 143 ص.

49 - سليمان، فؤاد، درب القمر، تقديم ميخائيل نعيمة، بيروت، دار الأحد، ط1، 1952، 111 + 12 ص.

50 - سليمان، فؤاد، في رحاب النقد، تقديم علي شلق، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ط1، 2001، 206 ص.

51 - سليمان، فؤاد، كلمات لاذعة، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ط1، 2001، 125 ص.

52 - سليمان، فؤاد، يا أمتي إلى أين، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ط1، 2001، 207 ص.

53 - سليمان، فؤاد، يوميات ورسائل، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ط1، 2001، 148 ص.

54 - شيحا، ميشال، لبنان في شخصيته وحضوره، ترجمة فؤاد كنعان،بيروت،منشورات الندوة اللبنانية، ط1، 1962، 186 ص.

55 - طنوس، جان نعوم، قراءة نفسية في أدب إملي نصرالله، بيروت، دار الكتب الحديثة، ط1، 2002، 234 ص.

56 - عقل، سعيد، شعره والنثر، ج1، بنت يفتاح، المجدلية، قدموس، بيروت، دار نوبيليس، 1991، 255 ص.

57 - عيد، د. منصور، قضايا إنسانية في روايات إملي نصرالله، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط1، 1995، 174 ص.

58 - نصرالله، إملي (1931 - ...)، طيور أيلول، رواية، بيروت، مؤسسة نوفل، ط8، 1993، 247 ص.

59 - نصرالله، إملي، الإقلاع عكس الزمن، بيروت، مؤسسة نوفل، ط1، 1984، 371 ص.

V - مراجع عامة

60 - ابن منظور، لسان العرب، تحقيق يوسف البقاعي، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ط1، 2005، 421 ص.

61 - أبو سعد، أحمد، معجم أسماء الأُسر والأشخاص ولمحات من تاريخ العائلات، بيروت، دار العلم للملايين، ط3، 2003، 1102 ص.

62 - بسترس، إڤلين، ميشال شيحا في محاضراته، مجلّة الحكمة، عدد خاص عن ميشال شيحا، نوار وحزيران 1956، ص 124 - 136.

63 - البشعلاني، الخوري أسطفان، تاريخ بشعلي وصليما، بيروت، دار صادر، ط2، 2003، 592 + 32 ص.

64 - البيضاوي، عبدالله بن عمر (ت 791 هـ)، تفسير البيضاوي المسمّى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق مجدي السيد، القاهرة، المكتبة التوفيقية، لات، ج2، 736 ص.

65 - بيطار، الأرشمندريت توما، القدّيسون المنسيون في التراث الإنطاكي، طرابلس، منشورات النور، ط1.

66 - بيطار، الأرشمندريت توما، سيَر القديسين وسائر الأعياد في الكنيسة الأرثوذكسية، دوما/لبنان، دير القديس سلوان، ط1، 2005، ج5، 411 ص.

67 - جوليا، ديديه، قاموس الفلسفة، ترجمة فرنسوا أيوب، باريس، دار لاروس، ط1، 1992، 650 ص.

68 - حتّي، د. فيليب، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة د. أنيس فريحة، بيروت، دار الثقافة، لا ط، 1985، 704 ص.

69 - حسر اللثام عن نكبات الشام، القاهرة، ط1، 1895، 284 ص + 24 ص.

70 - حلو، كريستيان، موجز تاريخ لبنان، سعي إلى ثوابت التاريخ اللبناني، بيروت، مكتبة حبيب، ط1، 1994، 247ص.

71 - حنكش، نجيب، حنكش بليرتين، الرسوم بريشة بيار صادق، بيروت، دار النشر الحديث، ط1، 1962، 175 ص.

72 - خرباوي، الخوري باسيليوس،تاريخ روسيا منذ نشأتها إلى الوقت الحاضر، 1911.

73 - داغر، يوسف أسعد، الأصول العربية للدراسات اللبنانية، دليل ببليوغرافي بالمراجع العربية المتعلّقة بتاريخ لبنان، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ط1، 1972، 707 ص.

74 - ديورانت، ولِ، قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ترجمة فتح الله المشعشع، بيروت، مؤسسة المعارف، ط6، 1988، 639 ص.

75 - سركيس، يوسف إليان، معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة، مطبعة سركيس، ط1، 1928، ج1، 1144 ص.

76 - سلامة رياض (حاكم مصرف لبنان)، محاضرة في ندوة البنك الأوروبي للاستثمار-باريس، بيروت، جريدة البلد، عدد 2007/03/24.

77 - صليبا، د. لويس، أقدم كتاب في العالم، ريك ڤيدا، دراسة، ترجمة وتعليقات، بيبلوس، دار ومكتبة بيبليون، ط2، 2007، 590 ص.

78 - صليبا، د. لويس، المعراج بين المحدّثين والمتكلّمين والمتصوّفين، دراسة وتحقيق لكتاب المعراج للقشري، بيبلوس/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2007، 310 ص.

79 - صليبا، د. لويس، أمين صليبا مفكّر مسيحي طالب بالإسلام ديناً للدولة، بيبلوس، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2005، 234 ص.

80 - صليبا، د. لويس، صدام الأديان والمذاهب في لبنان، دراسة ونشر وملحق لمشهد العيان بحوادث سورية ولبنان، بيبلوس، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2007.

81 - صليبا، د. لويس، مقامات الصمت والمدن المقدّسة مع ملحق في الصمت واليوغا، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2008.

82 - صليبا، د. لويس، من تاريخ الصهيونية في أرض الإسلام، دراسة لجذورها في المشرق وتلفيقاتها لتاريخه، بيبلوس/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2007، 319 ص.

83 - صليبا، د. لويس، ديانة السيخ بين الإسلام والهند وسيرة تاريخها، عقائدها، صراعها مع الإسلام، أبرز نصوصها المقدّسة، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2008.

84 - طرازي، الفيكونت فيليب دي، تاريخ الصحافة العربية، بيروت، المطبعة الأدبية، ط1، 1913، 4 أجزاء.

85 - عبود، مارون، أبو العلاء المعرّي زوبعة الدهور، المجموعة الكاملة، ج9، بيروت، دار مارون عبود، ط2، 1975، ص 265 – 458.

86 - عقل، سعيد، كما الأعمدة، شعر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1974، 191 ص.

87 - فالميكي (ت 900 ق.م.)، ملحمة الرامايانا، ترجمة وتقديم عبدالإله الملاح، أبو ظبي، المجمّع الثقافي،ط1، 2003، 482ص.

88 - القرآن الكريم، مصحف المدينة المنورة، مجمّع الملك فهد لطباعة المصحف، 1426 هـ.

89 - القرم، شارل، الجبل الملهم، ترجمة الأب اسطفان فرحات، تقديم إبراهيم المنذر، بيروت، منشورات مكتبة الفويّه، ط1، 1945، 215 ص.

90 - قزي، الأب جوزف، الرهبانية اللبنانية المارونية بعد ثلاثمائة سنة أيضاً، محاضرة ضمن: اليوبيل المئوي الثالث للرهبانية، الكسليك/لبنان، جامعة الروح القدس، ط1، 1996، ص 293 – 315.

91 - قمير، يوحنا، بوذا حكيم آسية، ضمن كتاب الهند إن شدت وهدت، بيروت، مؤسسة نوفل، ط1، 1995.

92 - قزي، الأب جوزف، مقدّمة كشف الخفاء عن محابس لبنان والحبساء للأب ليباوس داغر، الكسليك/لبنان، ط2، 1988، ص 5 – 13.

93 - كامبل، الأب روبرت اليسوعي، أعلام الأدب العربي المعاصر، سِيَر وسيَر ذاتية، بيروت، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ط1، 1996، ج1 و ج2، 1421 ص.

94 - الكتاب المقدّس، كتاب الحياة، عربي/إنكليزي، لندن، جمعية الكتاب المقدّس، ط2، 2000، 1883 ص.

95 - كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب

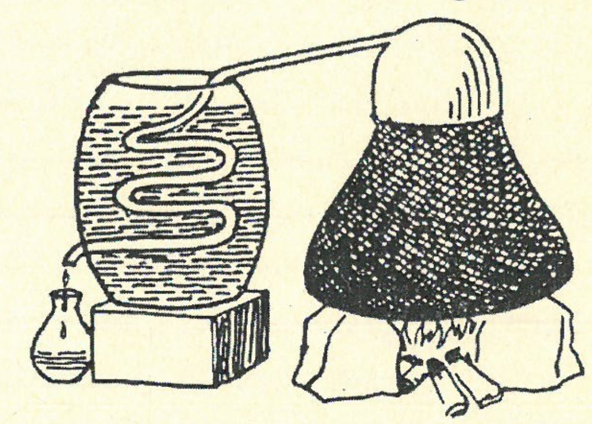
العربية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1993، ج1، 843ص.

96 - المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت 965 /354 هـ)، ديوان المتنبي، بيروت، دار الجيل، لات، 583 ص.

97 - المجمع البطريركي الماروني، 2004 – 2006، النصوص والتوصيات، قدّم له البطريرك نصرالله صفير، بكركي/لبنان، ط1، 2006، 856 ص.

98 - مسعود، د. ميخائيل، أدباء فلاسفة، بحث في الأدب والفلسفة خلال العصور الجاهلي والأموي والعباسي، بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1993، 259 ص.

99 - المنجد في الأعلام، بيروت، دار المشرق، ط15، 1987، 709 + 39 ص.



كركي لتقطير العَرَق

Bibliographie

100 - Adib Pacha, Auguste, le Liban après la guerre, Byblos/Liban, Librairie et éditions Byblion, 2ème edition 2006, 1ère édition 1919, 400 p.

101 - Basset's contributed to Milan's economy, www.milannews.com.

102 - Chiha, Michel, Visage et présence du Liban, Beyrouth, Le cénacle Libanais, 2ème édition, 1984, 169 p.

103 - Corm, Charles, La montagne inspirée trois étapes de la vie du Liban, Beyrouth, la Revue Phénicienne, 3ème édition, 1987, 134 p.

104 - History of the formation of the society of clerks secular of Saint Basil, www.reu.org.

105 - Kherbawi, Basil M., the old church in the New World, New York, 1930.

106 - Mallen, Julia, I would like to trace my family roots from Beirut, www. genforum. Genealogy. com, January 09/2002.

107 - Rihani, Ameen, the book of Khaled, Beyrouth, Librairie du Liban, 6th Edition 2000, 1st Edition 1911, 364 p.

108 - St Nicholas Antiochi an Orthodox Cathedral-History,www.st nicholascathedral.org.

109 - Aboussouan, Camille (Directeur), le livre et le liban jusqu'à 1900, Beyrouth, Musée Sursock, 1982, 420 p.

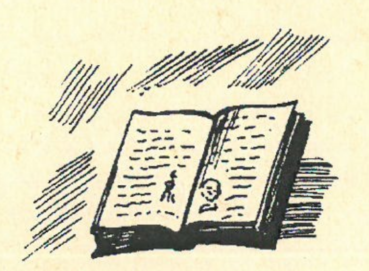
110 - Hayek, Michel, Le Chemin du désert: le père Charbel, Paris, Mappus, 2ème edition, 1962, 189 p.

فهرس الصوَر واللوحات



رقصة الدبكة اللبنانية

محتويات الكتاب



كتب للدكتور لويس صليبا / دار ومكتبة بيبليون

(تابع ص 2 من الكتاب)

II - في الدراسات الهندية والڤيدية

10- L'Hindouisme et son influence sur la pensée musulmane selon Al-Bïrünï (m1048), Paris, 1995, 170 p.

11 – **أقدم كتاب في العالم : ريك ڤيدا**، دراسة، ترجمة وتعليقات. ط2، 590 ص.

12 – **موسوعة الأيورڤيدا(الطب الهندي)**: دراسة علمية، ودليل عملي للتداوي، وحفظ العافية. 770 ص.

13 – **الأيورڤيدا والطب العربي**: دراسة في الطب الهندي وأثره في الإسلام، مع تحقيق لمقالة من جوامع كتب الهند للطبري. 350 ص.

14 – **ديانة السيخ بين الهندوسية والإسلام**: تاريخها، عقائدها، صراعها مع الإسلام مع نصوص من كتابها المقدّس.

III - في التصوّف

15 – **إشارات، شطحات ... ورحيل**: أناشيد ومختارات صوفية مع أبرز شطحات الحلاّج والبسطامي ولوحات لعدد منها، ودراسة لظاهرة الشطح في التصوّف، بقلم المستشرق بيير لوري. ط2، 170 ص.

16 – **مرآة القلب**: حكايات وأغنيات عاشق. ومحاولات في العشق الصوفي، مع مختارات من الأتهارڤاڤيدا وكتابات الشركسي الصوفي، خاتمة بقلم جاد حاتم. 160 ص.

17 – **المعراج بين المحدّثين والمتكلّمين والمتصوّفين**، دراسة ونشر وتعليق لكتاب المعراج للقشيري. 320 ص.

18 – **الصمت في الأديان الكبرى**: أضواء على مفهومه واختباراته في الهندوسية واليهودية والمسيحية والإسلام والبوذية.

19 – **مقامات الصمت والمدن المقدّسة**: مع ملحق في الصمت واليوغا ومقدّمة للمستشرق بيير لوري. 260 ص.

IV - في الدراسات اليهودية

20 – **صراع اليهودية والإسلام من منظور يهودي** / دراسة وتحقيق لكتاب تاريخ اليهود في الجاهلية وصدر الإسلام لإسرائيل ولفنسون، 350 ص.

21 – **الفكر اليهودي بين الخصوصية والشمولية** دراسة ومدخل لكتاب خلاصة الفكر اليهودي عبر التاريخ للحاخام هرتس. 650 ص

22 – **الفلسفة اليهودية: جسر تواصل بين العرب والغرب.** دراسة وتكملة لكتاب تاريخ الفلسفة والعلوم اليهودية في أرض الإسلام لِسليم شعشوع. 405 ص

23 – **من تاريخ الصهيونية في أرض الإسلام**، دراسة لجذورها في المشرق، وتلفيقاتها لتاريخه ورد على كتاب نهضة العالم اليهودي. 320 + 310 ص